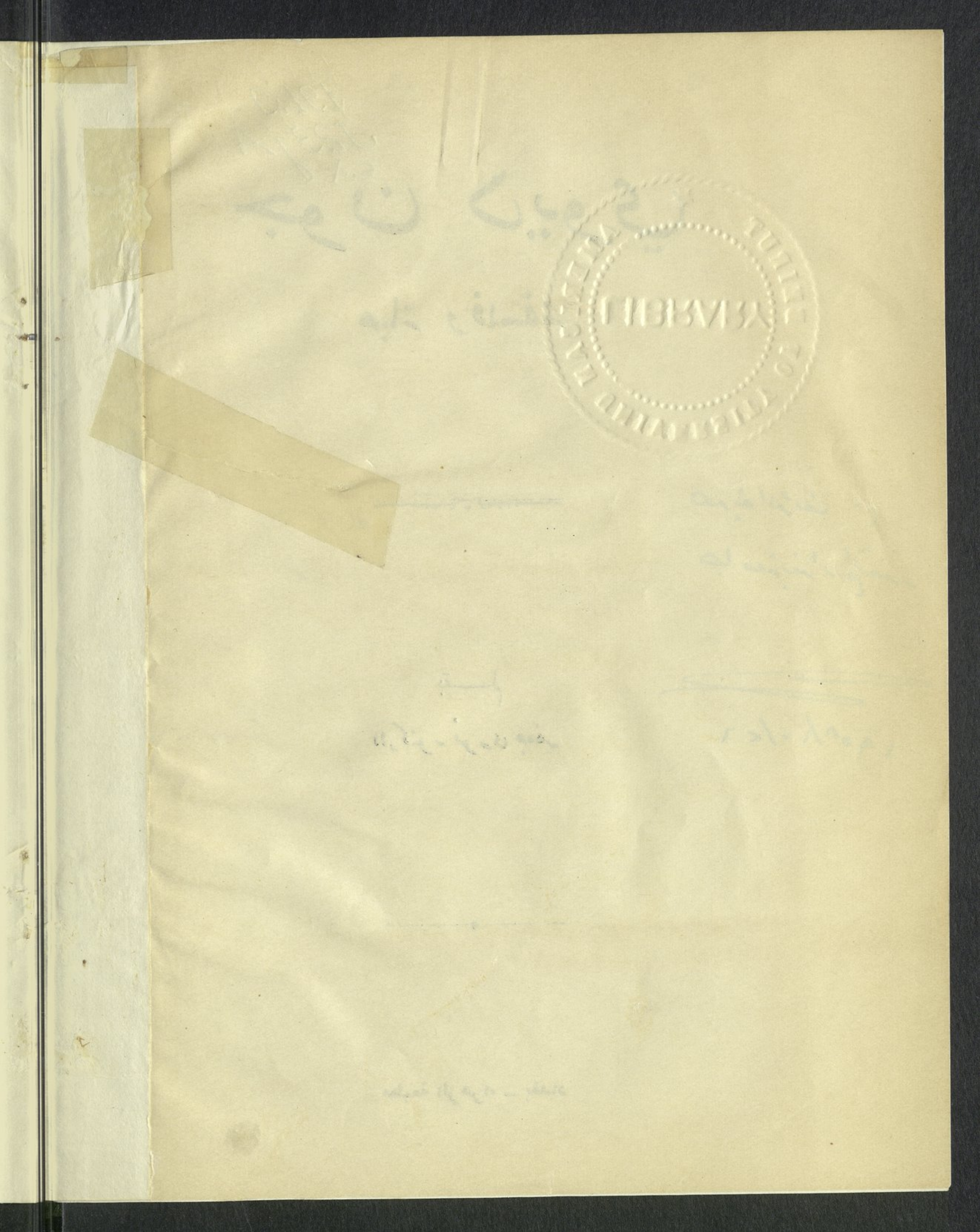
جون ديوي

حياته وفلسفته

بقلم

الدكتور نوري جعفر

مطبعة الزهراء – بغداد



فهرست الموضوعات

—:o:—

فهرست الاعلام

—:o:—

فهرست المصطلحات

—— :o: ——

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٢	يضمز	يضمر
٢٦	١٠	الشك اذا خالفت	الشك الا اذا خالفت
٢٦	١٧	تتوجه	توجهه
٢٦	١٨	توقعاتهم من	توقعاتهم المستمدة من
٢٧	٣	وسنقرأها	استقرأها
٢٨	٥	الاسلامية	غير الاسلامية
٣٠	٣ـ٤	ان نقول كذلك ان اخفاق	ان نقول باخفاق
٣٠	٥ـ٦	يضاف الي ذلك	غير
٣٠	٨	فهل ان من	فهل من
٣٠	٨	جانب على جانب	جانب من العقائد على جانب آخر
٣١	١٩	او تفضل	او ايثار
٣٢	٢	انضم	انقسم
٣٣	١	جمال	مجال
٢٤	١١	مصدرها	مصدر
٣٧	٨	ويتبج	وينتج
٤٤	٢١	ووجود ظواهر	ووجود الظواهر الطبيعية
٤٥	١٦	يستعملونها	يستعملانها
٤٦	٢١	واحق	واقل
٤٧	١٣	العلم	الفلسفة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٦	٤	فافراد	فالقول بان افراد
٥٦	٦	وهذا صحيح	صحيح
٥٨	١٤	اختلف مع	اختلف كل جانب مع
٥٨	١٨	مجانبتها	مخالفتها
٦٠	١٨	النظام ومبدأ	النظام وانتقاصاً لمبدأ
٦٤	١٧	هي	هو
٧٠	١٥	يجب	يحبب
٧٢	١٥	دعوة تحقيق	دعوة الى تحقيق
٧٦	١٨	والاصطدامات	والاصطلاحات
٧٧	١٢	يتخرجون منها	يتخرجون بها

٨٢ سقط بعد السطر ١٢ ما يلي : يعتقد ديوي بان المجتمع الانساني في الوقت الحاضر يتعرض لتأثير فلسفتين اجتماعيتين مختلفتين هما : الفلسفة الديمقراطية والدكتاتورية بجناحيها (الايمن النازي والايسر الشيوعي) . وان الفلسفة الديمقراطية وبنظره تفضل الفلسفة الدكتاتورية .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨٣	١٧	الاجتماعية في	الاجتماعية الا في
٨٦	١٦	وبالعكس	ولاعكس
٨٩	٨	هي	هما
١٠٠	٤	اليمنية	اليمينية
١٥١	٨	والطريقة	والحقائق
١٥٢	٨	حجومه غير ممزوجة	حجوم ممزوجة
١٦٠	١٢	ومن	وهي

تقديم

هذه سلسلة مباحث يصل بين حلقاتها وحدة البحث في فلسفة جون ديوي .
بدأت البحث فيها منذ اكثر من ثلاثة اعوام ، حتى إذا نضجت قليلاً رأيت أن اثبتها في موضوع تتيسر مراجعته . وربما عدت الى تحويرها واستصلاحها مرة اخرى حين يقتضيني البحث ذلك . ولهذا اعدها مباحث قابلة للتجريح والتعديل على يدي أو يد غيري من رجال التربية وطلابها . وعلى أي حال فاني لا اعدها إلا محاولة اولى لتحرير هذه المباحث ، تمهد الى محاولات ارجو ان تكون اعمق واوفى .

بغداد في ١ـ٥ـ١٩٥٤ نوري جعفر

الفصل الاول

نشأته ، ثقافته ووفاته

ولد جون ديوي في مدينة برلنكتن في ولاية فرمونت في الولايات المتحدة يوم ٢ـ١٠ـ١٨٥٩ وكان ثالث اربعة من الاولاد لعائلة متواضعة المركز الاجتماعي والاقتصادي . كانت عائلة ابيه تمتهن الفلاحة فلم يستطع ابوه بحكم وضعه الاقتصادي ان يحصل على تعليم مدرسي منتظم . فشب ناقص التعليم ، ضعيف الثقافة المدرسية اللهم إلا الحصول على اوليات القراءة والكتابة وبعض المعلومات العامة السطحية التي استطاع ان يكتسبها بوساطة اتصاله الشخصي بالناس . وقد امتهن الفلاحة (كسائر افراد عائلته) على الرغم من قساوتها وضآلة مورده منها . غير انه ترك الفلاحة عند شيخوخته لقساوتها وقلة مورده منها واخذ يتعاطى بيع السكاير . اما ام جون فكانت تنتمي الى عائلة مرموقة المركز الاجتماعي وذات ثقافة عالية احتل بعض افرادها مراكز مرموقة في الحكومة الامريكية كالقضاء وعضوية مجلس الشيوخ . وكانت امه نفسها على درجة كبيرة من التعليم المدرسي والثقافة العامة فلا غرو اذا مااصبحت عنصراً قوياً في تكوينه الفكري وتعليمه المدرسي . وقد توفي جون في ٢ـ٥ـ١٩٥٢ في مدينة نيويورك على اثر اصابته بمرض ذات الجنب بعد ان عاش اكثر من تسعين عاماً قضى شطراً كبيراً منها في المطالعة والتدريس والتأليف والاسفار .

دخل جون المدرسة الابتدائية ، وكان منطوياً على نفسه خجولاً ، قليل

الاختلاط بزملائه ومدرسيه ، وكان من اضعف الطلاب في دروسه . فاتهم بالبلادة وضعف التفكير . وقد عمل ذلك الاتهام بدوره على تأخره في دروسه الامر الذي افقده عطف مدرسيه وتشجيعهم وحرمه من احترام زملائه واعجابهم وابعد عن عائلته توسم الخير في دراسته ومستقبله . ولعل تأخره في دروسه كان راجعاً الى انه كان شديد العزوف عن المطالعة المتصلة بمواد المنهج السائد في عهده وراغباً عن الانظمة المدرسية واساليب التدريس والكتب المدرسية المقررة الشائعة آنذاك لما فيها جميعاً من قساوة وبعد عن المألوف في حيـاة الاطفال ، وارتفاع عن مستوياتهم الفكرية والاجتماعية . ومما زاد في تأخره المدرسي انه كان يصرف قسماً كبيراً من وقته خارج اوقات المدرسة في تعاطي العمل الحر كبيع الجرائد لغرض الانتفاع بما يجنيه من نفع مادي ضئيل في سد حاجاته المدرسية من كتب ولوازم وما شاكلها . وقد استمر على هذا المنوال حتى اكمل تحصيله الابتدائي والثانوي . غير انه لم يستطع نظراً لضيق ذات يده ان يلتحق بالجامعة التي كان يقتضيه الالتحاق بها ان يبتعد عن بلدته واهله . فاشتغل معلماً في احدى المدارس الابتدائية ، وجمع مبلغاً من المال ساعده على دخول جامعة جون هوبكنز . ومن الطريف نذكر في هذه المناسبة ان جون ديوي اظهر ضعفاً مريعاً في دراسته الجامعية بشكل عام وفي موضوع اختصاصـه (الفلسفة) بشكل خاص الامر الذي اشاع من جديد (بين معارفه واهله ومدرسيه) فكرة بلادته وعدم قدرته النظرية على تلقي المعرفة مما حمل مدير الجامعة ان يشير عليه بترك الدراسة . غير ان اصراره على البقاء والاستمرار قد حدا بالمدير ان يقترح عليه تغيير موضوع اختصاصه على اقل تقدير . ولـكنه ابى إلا الاستمرار على التخصص بدراسة الفلسفة فتخرج بجامعة جون هوبكنز بعد جهد كبير مزوداً

بشهادة رسمية وانطباع مضمونه انه « لايصلح لدراسة الفلسفة أو تدريسها » .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان عبقرية جون ديوي كما ظهرت في مؤلفاته وتدريسه قد برهنت على خطل ذلك الانطباع حيث لم يصبح جون ديوي صالحاً لدراسة الفلسفة وتدريسها حسب بل اصبح من أشهر الفلاسفة والمفكرين في هذا القرن الذي الذي نعيش فيه . وقد انتظمت شهرته معظم ارجاء العالم المتحضر ، واقترن اسمه مع اسماء اعاظم الفلاسفة والكتاب القدامى والمحدثين ، وانتشر اتباعه وطلابه والمعجبون به وبفلسفته في كثير من اقطار المعمورة . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان تأخر جون ديوي في المدرسة كما قيس ذلك التأخر بمقاييس اساتذته كان ناتجاً في جوهره عن سوء اساليب التدريس وجمود مناهجه لاعن نقص في ذكاء الرجل أو قدرته على استيعاب المعرفة . اننا مع مزيد الاسف كثيراً مانجور على طلابنا فنصمهم بالتقصير أو البلادة عندما نجدهم يفشلون فى ترديد مايسمعونه من المدرسين من معلومات داخل جدران الصف ناسين أو متناسين ان كثيراً من عوامل هذا التقصير راجعة الى امور اجتماعية ـ بيئية كعقم اساليب التدريس وجمود الادارة المدرسية وسوء التوجيه في المناهج والكتب وعوامل اخرى عائلية ـ اجتماعية واقتصادية . وفي تاريخ التربية من الامثلة على وجاهة ماذهبنا اليه شيء كثير . فقد اتهم دارون بالبلادة والغباء ووصف بانه لايصلح للاستمرار على الدراسة ـ غير ان انتاجه العلمي فيما بعد قد فند ذلك الزعم وبخاصة عندما وضع نظرية النشوء والارتقاء في اواسط القرن الماضي ـ تلك النظرية التي احدثت دوياً هائلاً وضجة كبرى في تاريخ الفكر الانساني . وطرد اديسون من المدرسة الابتدائية لغبائه ورسوبه المتتالي في صف واحد . غير انه تحدى ذلك الطرد وتوابعه بقدرته الفكرية التي كانت احدى

نتائجها اختراعه للكهرباء الذي يتوقف على طرائق استعمالها مصير المدنية الحديثة .
ووصف البرت آينشتين بالبلادة والضعف الفكري فبرهن على خطل ذلك الاتهام
بوضعه نظريته « النسبية » في مطلع هذا القرن وما تبع ذلك من آثار بعيدة
المدى وعميقة الغور في التفكير العلمي الحديث . وباستطاعة القارىء ان يتذكر
عشرات الامثلة من هذا القبيل .

أشغل جون ديوي عدة مناصب تدريسية في كثير من الجامعات ـ فدرس
في جامعة مشيغن وفي جامعة شيكاغو وفي جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك .
كما انه سافر خارج حدود الولايات المتحدة بدعوة من بعض الحكومات لاصلاح
مناهج التعليم فيها . فزار كثيراً من اقطار امريكا الجنوبية وبخاصة المكسيك
كما زار قسماً كبيراً من اقطار اوربا وزار تركيا والاتحاد السوفياتي في اوائل حكم
لنين وزار الصين واليابان . وكان اثناء اقامته في تلك الاقطار يبشر بآرائه التي
سيأتي شرحها عن طريق المحاضرات والمناقشات والمقالات والتقارير التي يقدمها
الى المسؤولين .

يعتبر جون ديوي من الكتاب المكثرين وكان يكتب باللغة الانكليزية
والالمانية والفرنسية وفي مختلف الموضوعات الاجتماعية وفي مقدمتها التربية وعلم
النفس والسياسة والاجتماع . وقد نشر طوال فترة حياته زهاء سبعمائة مقالة ظهرت
اولاها وهو في سنه العشرين وكانت آخرها قبيل وفاته ببضعة اسابيع . كما ألف
نيفاً واربعين كتاباً . ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان الباحث الاجتماعي،
سواء أكان متفقاً مع جون ديوي في آرائه أم كان يخالفه ، لا يسعه وهو يدرس
فلسفة هذا الرجل إلا ان يكبر فيه اهتمامه في بحث مشكلات المجتمع السياسية
والفكرية والاجتماعية بحثاً مشبعاً بروح العلم ورامياً الى خدمة البشرية . لقد

اعلنها ديوي حرباً شعواء على الذين يتخذون من التراث البشري ، بنوعيه الفكري والمادي ، وسيلة لتقسيم البشر إلى أقسام مختلفة ، يضمر بعضها العداء لبعض آخر ، ويحاول بعضها ان يسلب بعضاً آخر حق الحياة والعيش . ودعا إلى ضرورة الاعتناء بالذات البشرية وفسح مجال العمل والعيش والثقافة لجميع الناس بغض النظر عن خلافاتهم الدينية والسياسية والجغرافية ولغاتهم والوان بشراتهم . كما نادى كذلك بضرورة احلال التعاون بين الناس محل التباغض والتباعد ، ونشر الثقة المتبادلة بين الناس لغرض رفع مستوياتهم المادية والفكرية .

تناول جون ديوي فى كتاباته جوانب كثيرة من حياة الفكر والمجتمع واوجه نشاط كل منها . فكتب فى موضوع الفلسفة ووظيفتها ، وفى العلم : منطقه واثره فى الحياة ، وفى الفن وعلاقته بالعلم والفلسفة ، وفى الاخلاق من حيث مصدرها واهميتها ، وفى التربية : معناها ووظيفتها ، وفي الحرية ومجالها ، وفي العقل من حيث طبيعته ووظائفه .

لقد ساهم جون ديوي بالاضافة الى نشاطه الفكري في الاشتراك بكثير من أوجه النشاطة التي يبديها العمال والمعلمون للمطالبة بحقوقهم ورفع اجورهم وتقليل ساعات عملهم . وكان ديوي أحد المؤسسين لنقابة المعلمين فى الولايات المتحدة . وقد إشترك ديوي فى كثير من اللجان والمؤتمرات الداعية الى نشر حرية الفكر ، فترأس لجنة التحقيق فى قضية تروتسكي المعروفة ، وشارك فى لجنة الرد على اتهامات القضاء الامريكي وبعض الفئات فى قضية برتراند رسل المعروفة التي شغلت الرأي العام الامريكي حيناً من الدهر . وملخصها : ان برتراند رسل عين فى عام ١٩٤٠ استاذاً فى كلية مدينة نيويورك . وبعد تعيينه بعدد من الاسابيع تصدت سيدة واحد رجال الدين فى مدينة نيويورك الى اتهامه بالزندقة والخروج

على مبادىء الدين والاخلاق مستشهدين بفقرات من كتاب وضعه برتراند رسل سنة ١٩٢٩ عنوانه «الزواج والاخلاق» . وقد عرض الامر على المحكمة فقررت الغاء عقد التدريس وعدم السماح لبرتراند رسل بتعاطيه في تلك الكلية الامر الذي اثار كثيراً من رجال الفكر في الولايات المتحدة وفي مقدمتهم جون ديوي فتحدوا قرار المحكمة ومؤيديه ووضعوا كتاباً خاصاً بذلك عنوانه «قضية برتراند رسل» .

وقبل ان نتصدى للبحث في مؤلفاته يجمل بنا ان نشير هنا الى انه قد حصل لي شرف التعرف شخصياً على جون ديوي اثناء دراستي في الولايات المتحدة بين عامي ١٩٤٥–١٩٤٩ . وقد زرته مرتين : مرة في داره في مدينة نيويورك ومرة اخرى في مصيفه في احدى قرى ولاية بنسلفانيا حيث اقمت معه زهاء شهر استطعت اثناءه ان اتباحث معه في اسس فلسفته وموقف نقدته منها . وقد هيأت لي دراستي في الولايات المتحدة فرصة قراءة جميع مؤلفاته تقريباً واقتناء اكثرها وجلبه معي الى العراق . وقد ساهمت في الاحتفالات الكثيرة التي اقامتها الجامعات الامريكية عام ١٩٤٩ بمناسبة بلوغه عامه التسعين . وكنت منذ رجوعي الى العراق في اواخر العام الآنف الذكر حتى وفاته قبيل زهاء عامين على اتصال وثيق به عن طريق المراسلات ، ولدي الآن مجموعة كبيرة من رسائله بخط يده ، كما ان لدي بعض التصاوير التي اخذناها معاً اثناء اقامتي عنده في مصيفه في احدى قرى ولاية بنسلفانيا .

. . . .

اما اشهر مؤلفاته فهي :

1. The Psychology of Kant

علم النفس بنظر كانت الفيلسوف الالماني ، وضعه ديوي عام ١٨٨٤ ، وهو رسالة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز .

2. Leibniz : Chicago, S. C. Yriggs and Company, 1888.

وهو كتاب يبحث فى فلسفة لايبنز الفيلسوف الالماني ، وضعه ديوي عام ١٨٨٨ ، ويحتوي على زهاء (٣٠٠) صفحة من القطع المتوسط .

3. Applied Psychology : Boston, Educational Publication Company, 1889.

وهو كتاب يتناول البحث فى الجوانب التطبيقية لعلم النفس ، الفه عام ١٨٨٩ ، ويحتوي على (٣٣٠) صفحة من القطع المتوسط .

4. Outlines of a Critical Theory of Ethics: Ann Arbor, Register Publication Company, 1891.

وهو كتاب يستعرض المؤلف فيه الشائع من النظريات الاخلاقية ويعلق على كل منها ، الفه عام ١٨٩١ ، ويقع فى (٣٦٠) صفحة من القطع المتوسط .

5. The Stufy of Ethics : Ann Arbor, Register Publication Company, 1884.

وهو كتاب يبحث بشيء من الايجاز فى اهم النظريات فى علم الاخلاق ، الفه عام ١٨٩٤ ، ويقع في (١٦٠) صفحة من القطع المتوسط .

6. Psychology : New York, Harper, 1894.

وهو كتاب يبحث فى علم النفس ، وضعه عام ١٨٩٤ ، ويقع في (٤٢٩) صفحة من القطع المتوسط .

7. The Psychology of Numbers : New York, D. Appleton and Company, 1895.

وهو كتاب يبحث فى موضوع الرياضيات من الناحية النفسية الفه عام ١٨٩٥، ويقع فى (٣١٥) صفحة من القطع المتوسط .

8. The School and Society : The University of Chicago Press, 1899.

وهو كتاب يبحث في الصلة بين المدرسة والمجتمع ، وضعه عام ١٨٩٩ ، ويتكون من (١٦٤) من القطع المتوسط .

8. The Child and the Curriculum : The University of Chicago Press, 1902.

وهو كتيب يقع في (٤٠) صفحة من القطع الصغير ، ويتناول البحث في علاقة منهج التعليم فى المدارس الأولية باولاع الأطفال ومستوياتهم الفكرية .

9. Studies in Logical Theory : Chicago, The University of Chicago Press, 1903.

وهو كتاب يبحث فى علم المنطق ، الفه عام ١٩٠٣ ، ويقع في (٣٠٠) صفحة من القطع المتوسط . وضعه بالاشتراك مع فريق من زملائه .

10. Ethics : New York, Henry Holt and Company, 1908.

وهو كتاب يبحث في علم الاخلاق وضعه بالاشتراك مع زميله الأستاذ جيمز تافت عام ١٩٠٨، ويقع فى (٥٨٢) صفحة من القطع المتوسط . وقد اعيد طبعه منقحاً عام ١٩٣٢ .

11. How We Think : D. C. Heath and Company, 1908.

وهو كتاب يبحث فى موضوع التفكير عند الانسان وعلاقته بالتربية والتعليم، الفه عام ١٩٠٨ ، وهو يشتمل على نظرية ديوي في التفكير كما سيأتي شرحها .

12. Moral Principles in Education : Houghton Mifflin Company, 1909.

وهو كتيب يقع في (٦٠) صفحة من القطع الصغير ، وضعه عام ١٩٠٩ ، وتناول فيه البحث في صلة الاخلاق بالتربية والتعليم .

13. The Influence of Darwin on Philosophy : New York, Henry Holt and Company, 1910.

وهو كتاب يبحث في الآثار التي تركتها نظرية النشوء والارتقاء التي وضعها دارون في منتصف القرن الماضي في الفلسفة من حيث طريقتها في البحث ومن حيث موضوع بحثها ، وضعه عام ١٩١٠ ، ويقع في حوالي (١٥٠) صفحة من القطع المتوسط .

15. Interest and Effort in Education : Houghton Mifflin Company, 1913.

وهو كتاب يبحث فى ظاهرة الجهد والرغبة التى يبديها الطلاب فى دراستهم وصلة كل منهما بالآخر ، وقد وضعه عام ١٩١٣ ، وهو يقع فى (١٠٢) صفحة من القطع الصغير . وقداعيد طبعه اكثر من عشر مرات مع تعديلات وتنقيحات واضافات . وترجم الى عدة لغات .

16. Democracy and Education : The Macmillan, 1915.

الديمقراطية والتربية ، وضعه عام ١٩١٥ واعيد طبعه حوالي اربعين مرة ، وقد ترجم الى كثير من اللغات ، ويقع فى (٤٣٤) صفحة من القطع المتوسط .

17. Schools of Tomorow : American Book-Stratford Press, 1915.

مدارس الغد ، وهو كتاب يبحث في التربية والتعليم ، وضعه فى عام ١٩١٥ بالاشتراك مع ابنته ايفلين ، ويقع في (٣١٦) صفحة من القطع المتوسط .

18. German Philosophy and Politics : Putnam, 1915.

كتاب يبحث في الفلسفة الالمانية والنظريات السياسية المستندة عليها ، وضعه في عام ١٩١٥ ، ويقع في (١٤٥) صفحة من القطع المتوسط . وقد اعيد طبعه عدة مرات ، وكان اصله مجموعة من المحاضرات التماها جون ديوي في جامعة نورث كارولينا بدعوة من اساتذتها وطلبتها .

19. Essays in Experimental Logic : Chicago, the University of Chicago Press, 1916.

وهو كتاب يبحث في علم المنطق في ضوء التطورات العلمية الحديثة ، وضعه عام ١٩١٦ ، ويقع في حوالي (٢٠٠) صفحة من القطع المتوسط .

20. Reconstruction in Philosophy: Henry Holt and Company, 1920.

وهو كتاب يبحث في موضوع الفلسفة في ضوء العلم الحديث ، ومشكلات المجتمع بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وقد وضعه عام ١٩٢٠ ، ويقع في (٢٢٤) صفحة . وقد اعيد طبعه عدة مرات وترجم الى عدة لغات . وكان اصل وضعه سلسلة من المحاضرات القاها جون ديوي في جامعة طوكيو في اليابان بدعوة من هيئتها التدريسية عام ١٩١٩ . وهو من اعمق كتبه موضوعاً واوضحها فكرة واسلسها اسلوباً .

21. Human Nature and Conduct: Henry Holt and Company, 1922.

وهو كتاب يبحث في طبيعة الانسان ، ويستعرض نظريات الاخلاق المختلفة ، وضعه عام ١٩٢٢ ، ويقع في (٣٣٦) صفحة من القطع المتوسط وقد اعيد طبعه عدة مرات . وكان اصل وضعه مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي على طلبة جامعة ستانفورد في الولايات المتحدة بدعوة من هيئتها التدريسية في عام ١٩١٨ .

22. Experience and Natu:e: George Allen and Unwin, 1925.

وهو كتاب فلسفي عميق الفكرة ، م قد الاسلوب ، صعب الفهم ، وضعه في عام ١٩٢٥ ، ويقع فى (٤٤٣) صفحة من القطع الكبير . وقد اعيد طبعه عدة مرات . وكان فى اصله سلسلة من المحاضرات القاها جون ديوي في ذكرى الفيلسوف الامريكي بول كروس ، عام ١٩٢٥ .

23. The Public and Its Problems: Henry Holt and Company, 1927.

وهو كتاب يبحث في النظريات السياسية المختلفة من حيث اصل الدولة ونشؤها ووظائفها ومن حيث صلة الحكومة بالشعب ، وضعه عام ١٩٢٧ ، ويقع في (٢٢٤) صفحة من القطع المتوسط . وكان في اول وضعه مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي على طلبة كلية كنيول فى ولاية اوهايو في الولايات المتحدة عام ١٩٢٦ . وقد اعيد طبعه عدة مرات .

24. Impressions of Sorviet Russia, Mexico, China and Turkey: New Republic 1929.

وهو كتاب يتناول الانطباعات التى احدثتها زيارة جون ديوي فى نفسه لكل من روسيا السوفييتية والمكسيك والصين وتركيا بدعوة من حكوماتها لاصلاح مناهج التعليم فيها ، طبع الكتاب عام ١٩٢٩ ، ويقع فى (٢٧٠) صفحة .

25. The Source of a Science of Education: Livright Publication, 1929.

وهو كتيب يبحث في الصلة بين بعض العلوم — كعلم النفس والاجتماع — وبين التربية ، ويقع فى (٧٧) صفحة ، تم طبعه عام ١٩٢٩ . وكان فى اصل وضعه

محاضرة القاها جون ديوي على فريق من المعنيين بشؤون التربية فى الولايات المتحدة . وقد اعيد طبعه عدة مرات .

26. The Quest for Certainty : George Allen and Unwin, 1929.

وهو كتاب فلسفي عميق الفكرة ، صعب الفهم ، يستعرض فيه جون ديوي طائفة من المشكلات الفلسفية ويناقشها فى ضوء العلم الحديث ، وقد تم طبعه فى عام ١٩٢٩ ، ويقع فى (٢٩٧) صفحة من القطع الكبير . والكتاب فى اصل وضعه سلسلة من المحاضرات القاها جون ديوي بدعوة من اللجنة المشرفة على محاضرات كرفورد المعروفة .

27 Characters and Events : George Allen and Unwin, 1929.

وهي سلسلة مباحث فى موضوعات مختلفة يقع فى جزئين من القطع المتوسط يحتويان على (٨٦١) صفحة .

28. Individualism Old and New : George Allen and Unwin, 1931.

وهو كتاب يبحث فى الجوانب الاقتصادية للمجتمع الحديث ، وصلة الحكومة بالحرية الفردية فى مجال الاقتصاد والسياسة . وقد تم طبعه عام ١٩٣١، ويقع فى (١٦٠) صفحة من القطع المتوسط .

29. The Way Out of Educational Confusion : Cambridge, Harvard University Press, 1931.

وهو كتيب يبحث فى ضرورة الاهتمام بنشاط الاطفال فى التعليم الابتدائي، وضعه عام ١٩٣١ ويقع فى ٤١ صفحة من القطع الصغير . والكتيب فى اصله

محاضرة القاها جون ديوي بدعوة من جامعة هارفرد في موضوع اصلاح التعليم .

30. Philosophy and Civilization : Minton, Balch and Company, 1931.

وهو من كتب جون ديوي الكبرى التى تبحث في موضوع الفلسفة من حيث صلتها بالعلم والمجتمع ، وضعه عام ١٩٣١ ، ويقع في (٣٣٤) صفحة من القطع الكبير .

31. Art as Experience : Minton, Balch and Company, 2934.

وهو كتاب يحتوي على رأي جون ديوي في موضوع الفن واهميته في الحياة ويستعرض عدداً من النظريات المتصلة بالموضوع ، طبع عام ١٩٣٤ ، ويقع في (٣٥٥) صفحة من القطع الكبير ، وهو من أجل كتبه واهمها . وكان في اصل وضعه سلسلة محاضرات في موضوع الفن القيت في جامعة هارفرد تخليداً لذكرى الفيلسوف الامريكي وليم جيمز عام ١٩٣١ .

32. A Common Faith : Yale Univercity Press, 1934.

وهو كتاب يبحث فيه جون ديوي موضوع الدين وصلته بالعلم والمجتمع ، يقع فى (٨٧) صفحة من القطع المتوسط ، وقد تم طبعه عام ١٩٣٤ ، واعيد عدة مرات . وهو فى اصله محاضرة القاها جون ديوي فى جامعة ييل بدعوة من هيئتها التدريسية تخليداً لذكرى الاستاذ الامريكي المعروف دوايت هارنكتن تيري .

33. Liberalism and Social Action : Putnam, 1935.

وهو كتاب يبحث فى موضوع الحرية وبخاصة جوانبها الاقتصادية فى المجتمع الحديث ، ويستعرض نظريات كل من آدم سمث وبنثام وجون ستورت مل وكارل ماركس ويعلق عليها فى ضوء التطورات الاجتماعية والعلمية الحديثة ،

وضع الـكتاب في عام ١٩٣٥ ، ويقع فى (٩٣) صفحة من القطع المتوسط . واصل الـكتاب مجموعة من المحاضرات القاها جون ديوي في جامعة فرجينيا بدعوة من هيئتها التدريسية .

34. Experience and Education : Macmillan, 1938.

وهو كتاب يبحث في اهم مشكلات التربية الحديثة باسلوب مبسط وبشيء من الايجاز غير المخل ، تم طبعه فى عام ١٩٣٨ ، ويقع في (١١٦) صفحة من القطع المتوسط .

35. Logic : The Theory of Inquiry : Henry Holt and Company, 1939.

وهو كتاب يبحث في المنطق في ضوء النظريات العلمية الحديثة ، ويعتبر اصعب الـكتب التي الفها جون ديوي . تم تأليفه عام ١٩٣٩ ، ويقع فى (٥٤٦) صفحة من القطع الـكبير . وقد اعيد طبعه عدة مرات .

36 Freedom and Culture : Putnam, 1939.

وهو كتاب يبحث فى الصلة بين الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعى ، وضعه عام ١٩٣٩ ، ويقع فى (١٧٦) صفحة من القطع الـكبير .

37. Theory of Valuation : The University of Chicago Press, 1931.

وهو كتاب يبحث في موضوع الجمال والذوق من الناحية الفنية ، تم تأليفه عام ١٩٣٩ ، ويقع فى (٦٧) صفحة من القطع الـكبير .

38. Education Today : Putnam, 1940.

وهو سلسلة مباحث تجمع بينها وحدة البحث في موضوع التربية من حيث

اهدافها ووسائلها وادارتها وصلة المدرسة بالمجتمع ، تم طبعه عام ١٩٤٠ ، ويقع في (٣٧٣) صفحة من القطع الكبير .

39. Problems of Men : Philosophical Library, 1946.

وهو سلسلة مباحث تجمع بينها وحدة البحث في صلة الفلسفة بالمجتمع ، وعلاقة الحرية الفردية بالتنظيم الاجتماعي فى مختلف المجتمعات مع توضيح لاسس النظام الديمقراطي والتربية الحديثة . تم طبعه عام ١٩٤٦ ، ويقع فى (٤٢٤) صفحة من القطع المتوسط .

40. Knowing and the Known : The Beacon Press, 1949.

وهو آخر كتبه ، وضعه بالاشتراك مع زميله آرثر بنتلي ، والكتاب يتناول البحث فى كثير من المشكلات الفلسفية والمنطقية ، طبع عام ١٩٤٩ ، ويقع في (٣٣٤) صفحة من القطع الكبير .

ذلك مايتصل باهم المؤلفات التي وضعها جون ديوي ، اما الفصول التي كتبها في مؤلفات اخري بالاشتراك مع مؤلفين آخرين فنذكر اهمها لغرض التمثيل لا الحصر .

١ـ فصل عن الصلة بين الجوانب النظرية والتطبيقية للتربية ، ظهر في الكتاب الثالث لجمعية دراسة مشكلات التربية دراسة علمية في الولايات المتحدة عام ١٩٠٤ .

٢ـ فصل عن ضرورة تغيير اسلوب الفلسفة فى البحث وموضوعها نشر في كتاب « الفكر المبدع » ، وهو مجموعة من البحوث ساهم بتحريرها فريق من المعنيين بشؤون الفلسفة فى الولايات المتحدة وقد تم طبعه عام ١٩١٧ .

٣ـ فصل عن اثر الفن في التربية ، نشر في الكتاب المسمى « الفن في التربية » والذي ساهم بتحريره عدد من المعنيين بموضوع الفن وصلته بالتربية وقد تم طبعه في عام ١٩٢٩ .

٤ـ فصل عن تكوينه الفلسفي من الناحية التاريخية نشره في المجلد الثاني من الكتاب الموسوم « الفلسفة الامريكية المعاصرة » الذي تم طبعه في عام ١٩٣٠ . وساهم في وضعه رجال الفكر الفلسفي في الولايات المتحدة .

٥ـ فصل عن فلسفة التربية في الكتاب الذي عنوانه « الحدود التربوية » الذي تم طبعه عام ١٩٣٣ بالاشتراك مع طائفة من كبار المربين الامريكيين .

٦ـ فصل عن اثر الزمن في الفكر الانساني ، ظهر في الكتاب الموسوم بـ « الزمن » الذي تم طبعه في عام ١٩٣٦ وساهم في انتاجه عدد من الاساتذة .

٧ـ فصل عن منزلة المعلم في المجتمع ، نشر في الكتاب المسمى « المعلم والمجتمع » الذي ظهر عام ١٩٣٧ ، وساهم في تحريره عدد من المربين الامريكيين .

٨ـ فصل عن مهنة التعليم ، نشر في الكتاب المسمى « مهنتي » الذي صدر في عام ١٩٣٨ والذي ساهم فيه عدد كبير من رجال الفكر والمال الامريكيين كلٌ في موضوع اختصاصه .

٩ـ فصل عن اهمية التربية في المعرفة الانسانية ، نشر في الكتاب الذي اصدرته طائفة من الفلاسفة المعاصرين في الدعوة الى توحيد المعرفة الانسانية ، تم طبعه عام ١٩٣٨ .

١٠ـ فصل عن العلاقة بين الفلاسفة الدهريين والجوانب الروحية للمجتمع ، ظهر في الكتاب الموسوم بـ « الفلسفة الطبيعية والروح الانساني » الذي تم طبعه عام ١٩٤٠ بالاشتراك مع نخبة من المعنيين بشؤون الفلسفة في الولايات المتحدة .

١١ـ فصل عن تحيز المحكمة في قضية برتراند رسل التي مر ذكرها ، نشر

فى كتاب عنوانه « قضية برتراند رسل » ســاهم فيه عدد من رجال الفكر الامريكي ، وتم طبعه عام ١٩٤٠ .

. . . .

اما اهم ما كتب عن جون ديوي في اللغة الانكليزية فهوما يلي :

1. A. W. Moore, Pragmatism and Its Critics, the University of Chicogo Press, 1910.

وهو كتاب وضعه الاستاذ مور للبحث فى فلسفة جون ديوي ووليم جيمز وشارلس بيرس والرد على نقدتها ، ويقع في (٢٨٣) صفحة من القطع المتوسط ، طبع عام ١٩١٠ .

2. Essays in Honor of John Dewey : New York : Henry Holt and Company, 1929.

وهو مجموعة من المقالات بقلم طائفة من رجال الفكر الامريكي تبحث كل منها فى ناحية من نواحي فلسفة جون ديوي . وقد قدم الكتاب اليه هدية بمناسبة بلوغه عامه السبعين .

3. John Dewey : The Man and His Philosophy, Harvard University Press, 1930.

وهو مجموعة من المحاضرات القيت فى الحفلات التي اقيمت في الولايات المتحدة بمناسبة بلوغ ديوي عامه السبعين وقد ســاهم فيها نخبة من زملائه وطلابه ، طبعت فى عام ١٩٣٠ ، وتقع فى (١٨١) صفحة من القطع المتوسط .

4. Mayhew and Eduards, The Dewey School : D. Appleton-Century Company, 1936.

وهو كتاب يستعرض تاريخ المدرسة النموذجية التي انشأها جون ديوي عندما

كان يدرس فى جامعة شيكاغو فى اوائل القرن الحاضر ، طبع عام ١٩٣٦ ، ويقع في (٤٨٥) صفحة من القطع المتوسط .

5. Sidney Hook, John Dewey : John Day, 1939.

وهو كتاب وضعه الاستاذ هوك عن جون ديوي وفلسفته فى عام ١٩٣٩ عند بلوغه عامه الثمانين ، طبع في عام ١٩٣٩ ، ويقع فى (٢٤٢) صفحة من القطع المتوسط .

6. The Philosophy of John Dewey, Schilpp, editor : The Library of Living Philosophers, George Bunta Publishing Company, 1939.

وهو مجلد ضخم يحوي طائفة من المقالات بقلم جمهرة من فطاحل الفكر في العالم الانكلوسكوني فى الوقت الحاضر، تناول كل منهم ناحية من نواحي فلسفة جون ديوي وشرحها وعلق عليها . وفي آخره تعليق لجون ديوي على تلك المقالات ، طبع في عام ١٩٣٩ ، ويقع في (٧٠٨) صفحات من القطع الكبير .

7. The Philosopher of the Common Man : Putnam, 1940.

وهو كتاب يشتمل على طائفة من المقالات التى حررها قسم من اصدقاء جون ديوي وزملائه وطلابه بمناسبة بلوغه عامه الثمانين ، ويقع الكتاب في (٢٢٨) صفحة من القطع المتوسط ، وقد تم طبعة في عام ١٩٤٠ .

8. M. G. White, The Origin of Dewey's Instrumentalism : Columbia University Press, 1943.

وهو كتاب يبحث في المنابع التى استقى منها جون ديوي اسس فلسفته ، طبع في عام ١٩٤٣ ، ويقع فى (١٦١) صفحة من القطع المتوسط .

9. Sidney Hook, editor, John Dewey : The Dial Press, 1950.

وهي سلسلة من المباحث جمعت بينها وحدة البحث في فلسفة جون ديوي من

جوانبها المختلفة ، كتبها عدد من رجال الفكر الامريكي تكريماً لجون ديوي بمناسبة بلوغه عامه التسعين ، وتم طبعها في عام ١٩٥٠ ، وتقع في (٣٨٣) صفحة.

10. Buswell, I. The Philosophies of F. R. Tennant and John Dewey : Philosophical Library, 1950.

وهو كتاب يبحث في الموازنة بين فلسفتي جون ديوي وتانت من جوانبهما المختلفة ، تم طبعه عام ١٩٥٠ ، ويقع في (٥١٦) صفحة من القطع المتوسط .

11. I. Nathanson, John Dewey : Twentieth Century Library, 1951.

وهو كتاب يبحث في حياة جون ديوي وجوانب تفكيره الاجتماعي ، تم طبعه في عام ١٩٥١ ، ويقع في (١٢٧) صفحة من القطع المتوسط .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان « جمعية جون ديوي » التي تشكلت في الولايات المتحدة قبل اربع عشرة سنة ، والتي تضم طائفة من تلامذة جون ديوي وزملائه ، تصدر في كل عام كتاباً سنوياً يبحث في مشكلات التربية في المجتمع الامريكي في ذلك العام في ضوء فلسفة جون ديوي .

الفصل الثاني

الفلسفة : معناها ووظيفتها

يجمل بنا قبل ان نتصدى للبحث فى رأي جون ديوي فى الفلسفة ان نشير هنا الى المعنى المتداول للفلسفة بشكل عام من جهة والى جذور الفلسفة الى اعتنقها جون ديوي من جهة ثانية .

الفلسفة عند العرب ، كما تحدثنا معاجم اللغة تعني الحكمة ، وهي من الدخيل. ويلوح انها دخلت العربية فى العهد الاموي ، واكتسبت الشيوع والاهمية فى العصر العباسي نظراً لانتشار الفلسفة اليونانية آنذاك . واذا كانت الفلسفة عند العرب تعني الحكمة فما هي الحكمة ياترى ؟ جاء فى مختار الصحاح «ان ذا الحكمة يسمى حكيماً ، وان الحكيم هو العالم المتقن الامور » . ويقول صاحب لسان العرب « والحكمة عبارة عن معرفة افضل الاشياء بافضل العلوم . ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيماً .... والحكمة العدل .... واحكم الامر اتقنه ، واحكمته التجارب صيرته حكيماً .... اما احكم الرجل الشيء فمعنى ذلك انه منعه من الفساد » . وجاء فى تاج العروس من جواهر القاموس « الحكمة العدل فى القضاء .... والحكمة العلم بحقائق الاشياء على ماهي عليه والعمل بمقتضاها ..... وقيل الحكمة اصابة الحق بالعلم والعمل » . اما كلمة Philosophy باللغة الانكليزية فمشتقة من كلمة يونانية ذات مقطعين هما Philien بمعنى حب ، و Sophia بمعنى

حكمة . والحكمة باللغة الانكليزية تعني ، كما يحدثنا قاموس وبستر « القدرة على اصدار الحكم الصحيح على قيمة الشيء ، والسلوك المتزن المعقول فى جميع المواقف ، ومعرفة الاشياء معرفة دقيقة وعميقة » .

لقد انقسم المشتغلون فى موضوع الفلسفة الى فرق كثيرة يختلف بعضها عن بعض فى كثير من الاسس الفلسفية ، ويلتقي بعضها ببعض فى بعض الاسس ويختلف عنه فى التفاصيل . وباستطاعتنا لغرض تسهيل دراسة الموضوع من الناحية النظرية ، ان نصنف الفلسفات المختلفة الى مجموعتين شريطة ان نأخذ بنظر الاعتبار الفروض الاساس أو المسلمات العامة التي تستند كل فلسفة عليها بغض النظر عن تفاصيل ذلك وتفرعاته. واقصد بالفروض الاساس أو المسلمات العامة ماينطوي عليه الفيلسوف من عقائد لاتقبل عنده الشك أو الجدل . هاتان المجموعتان هما : (١) الفلسفات الروحية أو الفكرية التي تؤمن بالروح وخلودها ، وتعتبر المادة مظهراً من مظاهر الروح أو الفكر الذي هو اسبق منها فى الوجود والاهمية ، وتؤمن بان فوق هذا الكون الذي نعيش فيه قوة عليا عاقلة وعادلة خلقته وتصرف اموره فى منتهى الدقة والنظام والعدالة . (٢) الفلسفات الطبيعية أو المادية أو الدهرية التي تؤمن بالطبيعة كما تبدو لمدارك الانسان ، وتعتبر الكون محايداً من ناحية الخير والشر ، وان الخير والشر معنيان اجتماعيان نسبيان يختلفان باختلاف الزمان والمكان ، والمجموعة الاولى اقرب الى الاديان السماوية فى تفسيرها للكون وطبائع الاشياء على حين ان الثانية تجنح الى التسليم بما توصل اليه العلم من آراء فى الخليقة والمجتمع والانسان .

والفلسفة التي يعتنقها جون ديوي تقع ضمن فلسفات المجموعة الثانية ، وهي

فلسفة حديثة نشأت في الولايات المتحدة في اواخر القرن الماضي ، واشهر رجالها شارلس بيرس[1] ووليم جيمز[2] وجون ديوي .

يقول بيرس ان الانسان جزء من الطبيعة بما فيها من كائنات حية وجامدة ، وانه يؤثر فيها ويتأثر بها بصورة مستمرة ، ويصدر الانسان باستمرار احكاماً معينة (بغض النظر عن نوعها أو اختلافها احياناً باختلاف الزمان والمكان) على جميع مكونات الطبيعة من اشخاص أو اشياء أو حوادث . وتكون تلك الاحكام تارة لها وطوراً عليها . فيصفها مثلاً بالخير أو الشر ، بالجمال أو القبح ، بالانصياع أو التمرد ، وما شاكل ذلك مما نستطيع ان نسمي منه الكثير . وان تلك الاحكام مشتقة في حقيقتها كما يقول بيرس من سلوك الاشخاص أو الاشياء أو الحوادث التي تتكون الطبيعة منها ، كما يبدو ذلك السلوك للانسان الذي يصدر تلك الاحكام. ثم يتخذ الانسان ، على رأي بيرس ، من ذلك كله وسيلة لتصنيف تلك الكائنات الحية والجامدة الى اصناف حسب تماثل صنفها وتقارب مظاهر سلوكها فالانسان اذن (والمقصود بالانسان هنا النوع الانساني) على رأي بيرس يستدل على طبائع

---

(١) شارلس بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) من اشهر الرياضيين وعلماء المنطق الامريكيين درّس الفلسفة في جامعة هارفرد ، وعلم المنطق في جامعة جون هوبكنز ، طبعت آثاره الفلسفية بعد وفاته في عدة مجلدات . كانت باكورة نتاجه الفكري مقالة نشرها في احدى المجلات عام ١٨٧٨ عنوانها « كيف نجعل آراءنا واضحة ؟ » بحث فيها الفرق بين اسلوبين في التعبير : اسلوب واضح ، واسلوب مرتبك أو غامض أو مشوش . يجعل الأول الفكرة المعبر عنها واضحة ، على حين ان الثاني يجعلها مرتبكة أو غامضة أو مشوشة .

(٢) وليم جيمز (١٨٤٢-١٩١٠) من مشاهير علماء النفس والفلاسفة المحدثين ، اشتغل في تدريس الفلسفة وعلم النفس في امهات الجامعات الامريكية . ترك عدداً من المؤلفات القيمة في علم النفس والفلسفة ، اشهرها « اصول علم النفس » وضعه عام ١٨٩٠ ، و « الفلسفة العملية » وضعها عام ١٩٠٧ .

مافي الطبيعة من حوادث وحيوانات ونباتات وجمادات بوساطة ملاحظته لسلوكها.
وقد توصل الانسان (اي الجنس البشري) بعد ان مر بمراحل تطورية طويلة
(من النواحي الجسمية والفكرية والاجتماعية) الى تصنيف ماتتألف الطبيعة منه
كل حسب خصائصه وانماط سلوكه، فاتخذ من سلوك الاشياء في الماضي (كما بدا
ذلك السلوك له) وسيلة للتنبؤ بسلوكها في الحاضر والمستقبل. واعتاد بمرور الزمن
ان يتوقع من كل شيء في الطبيعة (استطاع ان يكشف عن سلوكه في الماضي
بشكل مباشر أو بصورة غير مباشرة كأن يستدل عليه من اشياء مألوفة لديه)
ان يسلك سلوكاً خاصاً ضمن اطار معين لايحيد عنه. وتسير الحياة الانسانية بهذه
الطريقة كما يزعم بيرس بسهولة ويسر حيث تصبح جميع تصرفاتنا تقريباً مبنية على
سلسلة من الفروض والمسلمات والتوقعات التي لايتسرب اليها الشك اذا خالفت
ماتوقعناه منها. فانت تترك بيتك مثلاً متوجهاً الى زيارة أحد اصدقائك بداره
مسلماً تسليماً جازماً بان الشارع الذي يسلك اليه موجود بصورة سليمة، وان
دار صديقك موجودة في محلها، وانه بانتظارك اذا كنت معه على سابق ميعاد
الخ... فاذا حاد الشيء عن تحقيق ماهو متوقع منه (كانغمار الطريق الذي يسلك
الى دار صديقك بالماء، أو خروجه من الدار لامر طارىء، أو انتقاله الى دار
اخرى) تسرب الشك الى فكرة الانسان عن ذلك الشيء وتحتم عليه ان يعيد
النظر فيها لغرض تغيير سلوكه، لان السلوك يستند على الافكار التي تتوجه. والفرق
بين سلوك الافراد ناتج عن الفرق في توقعاتهم من مظاهر سلوك الاشياء التي تتصل
بسلوكهم في تلك اللحظة. فالشخص الذي يمتنع عن وضع يده في النار يفعل ذلك
تجنباً لاحتراقها لانه يتوقع من النار ان تحرق يده اذا وضعت فيها. على حين ان
من يضع يده في النار لاغرض احراقها وانما ظناً منه بان النار تلك لاتحرقه

لسبب ما ، فاذا احترقت يده كان ذلك نتيجة لخطأ وقع في توقعه ، وهكذا دواليك .
ولتوضيح ذلك دعنا نضرب مثلاً آخر فنقول : ان الكيميائي يدعو غازاً معيناً بالاوكسجين . وفق خصائص معروفة وسنقرأها بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة من سلوكه . فاذا جيء له بغاز قيل له انه اوكسجين فانه يتوقع منه ان يساعد على الاشتعال ، وان يتحد مع الهيدروجين بنسب معينة وتحت شروط خاصة لتكوين الماء ، وان لا يتفاعل مع بعض الغازات ، وان تكون له خصائص اخرى كيميائيـة وفيزيائية معروفة تميزه عن غيره . وللتسليم ، من الناحية العلمية ، ان الغاز موضوع البحث اوكسجين ، فان الكيميائي يحاول مراقبة سلوكه بوساطة وضعه باشكال مختلفة بحيث تتجلى خصائصه ومزاياه . فان دل سلوك الغاز الجديد على تحقيق ما توقعه الكيميائي منه ، فهو اذن اوكسجين . اما اذا اخذ الكيميائي مثلا مقداراً معيناً منه ووضعه مع مقدار معين من الهيدروجين ، بنسب كيميائية معروفة ، وتحت الشروط التي ينبغي ان يتكون الماء فيها ، ولم يتكون الماء (شريطة ان يكون الغاز الثاني هيدروجينياً) جاز للكيميائي ان يشك في صحة فكرته عن كون ذلك الغاز اوكسجيناً . واذا دلت القرائن الاخرى على ان ذلك الغاز ليس اوكسجيناً اصبح شك الكيميائي معقولا وقوياً ، وتحتم عليه ، من الناحية السلبية ، ان يغير فكرته عن ذلك الغاز ، وان يبحث ، من الناحية الايجابية ، عن اسم الغاز الجديد هذا اذا كانت خصائصه تختلف عن خصائص الغازات الاخرى المعروفة . وتتجلى تلك الظواهر باوضح اشكالها في المحاكم ودوائر الشـرطة والتحقيق في التوصل الى معرفة الجرائم ومسببيها .

ويصدق الشيء نفسه كما يقول بيرس على افكارنا الاخرى المتعلقة بالامور الدينية والسياسية وما شاكلها . فاننا نتوقع من المسلم مثلا ان يسلك سلوكاً

خاصاً نستدل (من ذلك السلوك الذي سبق لنا ان عرفنا اسسه العامة لا في هذا الشخص بالذات وانما في الشخص المسلم اطلاقاً) على كونه مسلماً وبالتالي عن كون فكرتنا عن اسلامه صحيحة . والمتوقع من المسلم ، من الناحية السلبية ، ان لا يذهب مثلا الى الكنيسة يوم الاحد لغرض اداء فريضة الصلاة على الطريقة الاسلامية ، وان تكون علاقاته بغيره من الناس فيما يتصل بالزواج والطلاق والارث الخ ... موضوعة بشكل معين ، وان يؤدي طقوسه الدينية بشكل خاص ، هذا في حالة ادائه لها .... فاذا ظهر في سلوكه مالا ينسجم مع ما اعتدنا توقعه من المسلم في الظروف الطبيعية تسرب الشك الى صحة كونه مسلماً . واذا كانت القرائن الاخرى بجانب الشك في اسلام الرجل تحتم اخراجه في تفكيرنا من حضيرة الاسلام ووضعه في حضيرة اخرى . ويمكننا ان نتبع الاسلوب نفسه فيما يتصل بالافكار السياسية كالشيوعية والديمقراطية والنازية وما شاكلها . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد أنه ينبغي للقاريء ان يميز بين قولنا «صحة كون الشخص مسلماً» و « صحة العقيدة الاسلامية » ذلك لان اهتمام بيرس كان منصباً على البحث في محتويات القول الاول ، ولا صلة له بالقول الثاني اطلاقاً .

يتضح مما ذكرنا ان فلسفة شارلس بيرس تنصب على المبدأ القائل بان طبائع الاشياء تتراءى عن طريق مراقبة مظاهر سلوكها وانماط تصرفاتها . وقد ادى هذا القول بدوره الى استنتاج مبدأ آخر منبثق عنه ومستند في اسسه الى جوهر فلسفة بيرس كما شرحناها ، وان لم يكن بيرس نفسه قد حرره تحريراً واضحاً وصريحاً ، بل هو امر يبدو للباحث بانه موجود ضمنياً في روح فلسفة بيرس ، مفاده ان قيمة كل شيء تقاس بنتائجه التي تقررها تصرفاته في الاوضاع المختلفة . وبما ان بحث بيرس لم يكن ، كما رأينا ، متعلقاً بالقوانين الاخلاقية والشرائع

الاجتماعية والعقائد الدينية والسياسية ، فلم يحدث رأيه ضجة في صفوف الفلاسفة والمشرعين كما فعل رأي جيمز الذي سنشير اليه في الفقرات القابلة ذلك لان وليم جيمز قد جعل مركز الثقل في تفكيره الفلسفي هو البحث في عقائد الناس من جميع نواحيها فذكر ان قيمة فعل الانسان (سلوكه) تقاس بنتائجه ، وبما ان افعال الانسان ، دوافعها ونتائجها ، تدخل عادة في بحث علم الاخلاق فقد اثار رأي وليم جيمز ضجة كبرى في صفوف الفلاسفة والمشرعين المحدثين . وقد تطور الجدل في هذه النقطة فدخل موضوع الوسائل والغايات . وفسر رأي وليم جيمز ، كما سنرى ، بانه يتضمن الدعوة الى الوصولية أو الانتهازية ـ الوسائل تبررها الغايات ـ . وقبل ان نبحث في موضوع الوسائل والغايات دعنا نتطرق الى جوهر فلسفة وليم جيمز .

بدأ وليم جيمز حيث انتهى بيرس ، بفحص صحة المعتقدات نفسها ، دينية وسياسية فقال ان صحة المعتقدات جميعاً في مجالات الحياة جميعها ـ عدا العلوم المختبرية والرياضيات بالطبع ـ تتوقف على مقدار ماتستثيره من شعور بالقناعة والطمأنينة لدى الشخص الذي يعتنقها من جهة ، وعلى مدى ايمانه بها ايماناً لايتسرب اليه الشك من جهة ثانية ، وعلى سيره في سلوكه وفق مستلزماتها من الناحيتين السلبية والايجابية من جهة ثالثة . فاذا كان زيد من الناس مثلاً مؤمناً بعقيدة ما ايماناً مطلقاً ، ومرتاحاً لتلك العقيدة من الوجهة النفسية ، وجاء سلوكه يسير بحسب مقتضاها ، فذلك كله دليل على صحة العقيدة من وجهة نظره .

ان هذا الرأي يستلزم ، دون شك ، تعدد العقائد من جهة ، وانتفاء المفاضلة بينها من جهة اخرى . ووليم جيمز شاعر بذلك وراغب فيه . وربما كان احد اسباب ذلك ان وليم جيمز عاش في الولايات المتحدة في فترة كان فيها الخلاف

الديني بين الفرق المسيحية على اشده عنفاً ، الامر الذي حرك النوازع الانسانية والوطنية عنده فدفعه الى بث الدعوة للتساهل واحلال الوئام محل الخصام فى علاقات الناس . واذا نظرنا للامر من زاوية اخرى امكننا ان نقول كذلك ان اخفاق وليم جيمز ، على مايبدو ، فى الاهتداء الى ايجاد مقياس علمي ، ثابت ومتفق عليه ، تقاس وفق مستلزماته صحة تلك العقائد بالنسبة لبعضها . يضاف الى ذلك ان وليم جيمز البارع في معرفة دخائل النفس الانسانية كان قد توصل الى الاعتقاد باستحالة اقناع الناس فى عهده على نبذ معتقداتهم بسهولة ويسر واذا كان الامر كذلك فهل ان من الانصاف والعدالة ايثار جانب على جانب ؟ وتتجلى عدم وجاهة مثل هذا الايثار اذا كان مستنداً على جوانب عاطفية .

يقول وليم جيمز فى معرض التدليل على صحة رأيه : ان الناس مختلفون كثيراً فيما بينهم فى قوائمهم الفكرية والجسمية ، وفى اختيارهم للاطعمة والملابس ودور السكنى وما شاكل ذلك حيث تلعب اذواقهم وقناعة كل منهم من الناحية العاطفية دوراً فعالاً في ذلك ، فلماذا لانجيز لهم ان يفعلوا ذلك في مجال العقائد والافكار ؟ واذا سلمنا بذلك ، كما يقول وليم جيمز ، جاز لنا ان نشك في وجاهة تفضيل عقيدة على اخرى ، على اسس غير اسس القناعة الشخصية . فكما انه لايجوز لنا ، من الناحية العلمية ، تفضيل لون معين من اللباس على آخر ، فكذلك ينبغي ان يكون الحال في مجال العقائد والافكار . وحجة جيمز في ذلك هو ان الانسان في العادة يعتنق عقائده (الدينية بشكل خاص) في اول الامر على اســـاس المشاركة العاطفية وحدها . فاذا كانت العاطفة هي الاساس الذي يستند عليه الايمان بالعقيدة ، فلماذا لاتتخذ العاطفة نفسها اساساً لقيـــاس صحة العقيدة ؟ وبهذه الطريقة وحدها يتسنى للناس ، كما يدعي وليم جيمز ، احترام عقائد بعضهم فتتلاشى

محاولة اجبار بعض الناس أو اقناعهم على ترك عقائدهم والايمان بعقائد اخرى .
ان مسألة الانتقال من عقيدة الى اخرى يجب ان تترك دائماً للشخص نفسه ، اذا
اقتنع بذلك من الناحية العاطفية .

واذا نظرنا الى فلسفة وليم جيمز من زاوية اخرى امكننا ان نقول انه قد
اعتبر الجوانب العاطفية اساساً لصحة العقائد وبالتالي مبرراً للتصرفات والاعمال
المنبثقة عنها . وهذا يعني ان تصرفات الانسان هي التي تقرر نوع العقائد التي
يحملها ، واننا عن طريق تلك التصرفات نستطيع ان نحكم على مايحمله الانسان في
نفسه من عقائد وآراء . وبما ان تلك العقائد ، كما سلف ان ذكرنا ، تستند الى
الشعور بالاطمئنان عند الشخص من الناحية العاطفية ، وهـــذا يختلف باختلاف
الاشخاص ، فقد فسر قول جيمز هذا كأنه يتضمن الدعوة الى ان أي عمل يشبع في
الانسان جانباً عاطفياً ينبغي له ان يتخذه بانه وسيلة من الوسائل . وهذا يعني بلغة
علم الاخلاق ان الوسائل تبررها الغايات . ان وليم جيمز ، كما يلوح لي ، اسمى
خلقاً من ان يدعو الى ذلك أو ان يحبذه ، وان اتهامه بذلك ناتج عن تشويه
لفلسفته ، أو قلة استيعاب لها . ان جل ما يقوله وليم جيمز في هذا الصدد ، كما
سلف ان ذكرنا ، هو ان الانسان يعتنق عقائده وبخاصة الدينية منها على اساس
المشاركة العاطفية في اول الامر على كل حال ، وان مجرد قناعته بها ، من تلك
الناحية ، دليل على صحتها بالنسبة له . ولما كان الناس مختلفين في عقائدهم ومتباينين
في آرائهم فان عقيدة كل منهم صحيحة بالنسبة له ، ولا تجوز المفاضلة بين العقائد
أو تفضيل بعضها على بعض . وهـــذا امر كما لايخفى لاصلة له اطلاقاً بموضوع
الوسائل والغايات .

وما دمنا في معرض البحث في موضوع الوســائل والغايات بمقدار صلته

بفلسفة وليم جيمز كما شرحناها نود ان ننبه القارىء الى ان هذا الموضوع بشكل عام من اطرف موضوعات علم الاخلاق واكثرها تشعباً . وقد انضم الباحثون فيه الى فرق كثيرة يختلف بعضها عن البعض الآخر . ويمكننا ان نجمل تلك الآراء ، على اختلاف انواعها ، في القول بانها تنقسم ، من حيث الاسس العامة التي تستند اليها ، الى قسمين : (١) مجموعة النظريات التي تعتبر « النية » أو « الغاية » هي الاساس في الافعال أو الاعمال بغض النظر عما ينتجه العمل نفسه من نتائج . فاذا كانت النية حسنة كان ذلك وحده مبرراً للعمل مهما كانت نتيجته — حتى قيل « ان الاعمال أو الافعال بالنيات » . ويعتبر كانت (١٧٢٤ـ١٨٠٤) الفيلسوف الالماني الذائع الصيت الممثل الصحيح لهذه الفرقة من علماء الاخلاق . (٢) مجموعة النظريات التي تدعي بان قيمة الافعال تقاس بنتائجها بغض النظر عن النية التي سبقتها . فاذا كانت النتائج سليمة كانت الافعال سليمة . والا فلا . ذلك لانه ، كما يدعي حملة هذا الرأي ، لاسبيل الى معرفة النية اطلاقاً إلا عن طريق نتائج العمل نفسه . ومن ابرز رجال هذا المذهب جرمي بنثام (١٧٤٨ـ١٨٣٢) وجون ستورت مل (١٨٠٦ـ١٨٧٣) الفيلسوفان الانكليزيان المشهوران . ولم يبحث وليم جيمز بشكل واسع وواضح هذه المشكلة الاخلاقية . غير ان جون ديوي قد اولاها جل اهتمامه وتوصل الى القول بانه لايمكن اطلاقاً فصل الغايات عن وسائلها ، وان قيمة الافعال تقاس بنية فاعلها وبنتائجها كذلك . وان الوسائل الفاسدة لايجوز ان تتخذ لتحقيق غايات نبيلة ، وان الوسيلة النبيلة تؤدي حتماً الى تحقيق غاية نبيلة ، وبالعكس .

. . . .

ذكرنا في الفقرات السالفة رأي كل من شارلس بيرس ووليم جيمز في

موضوع الفلسفة ومجال عملها - حدده الاول منهما في ظاهرة التوقع ، واطلقه الثاني في موضوع التساهل . وقبل ان نتصدى الى ذكر رأي جون ديوي يجمل بنا ان نشير هنا الى ان حملة الفلسفات الروحية بصورة عامة تعتبر الفلسفة وسيلة للبحث فيما وراء الطبيعة ، وان القسم الكبير من حملة الفلسفات المادية في الوقت الحاضر على كل حال يزعم بان وظيفة الفلسفة هي المحاولة الفكرية لتفسير الطبيعة تفسيراً شاملاً وعميقاً شريطة ان يستمد ذلك التفسير مقوماته من العلم الحديث بفروعه المختلفة .

يقول ديوي في معرض الرد على اصحاب الفلسفات الروحية ان البحث فيما وراء الطبيعة ، حتى في حالة كونه ممكناً وهو ليس كذلك ، لافائدة منه . وان حصر مهمة الفلسفة في ذلك حسب رأيه هي احد العوامل الرئيسة التي اوصلت الفلسفة الى حالتها الراهنة من التأخر والعبث والبعد عن مستلزمات الحياة الامر الذي جعل كثيراً من الناس يعتبر الفلسفة وسيلة من وسائل الهروب عن مواجهة مشكلات الحياة والمجتمع . ويرى ديوي كذلك ان وظيفة الفلسفة عند جمهرة الفلاسفة الطبيعيين امر لاضرورة له في الوقت الحاضر على اقل تقدير ، ولايجب ، في حالة كونه ضرورياً ، ان يقتصر على الفلسفة وحدها ، ذلك لان كل فرع من فروع العلم الحديث باستطاعته ، كما هو حادث فعلاً ، ان يتوسع وان يتعمق في البحث في مجال اختصاصه ، وان النظرة العميقة الشاملة للكون والحياة ينبغي ان يعهد بها الى فلسفة العلم لا الى الفلسفة اطلاقاً . اما وظيفة الفلسفة كما حددها شارلس بيرس فيمكن اعتبارها من وجهة نظر ديوي بداية لتثبيت وظيفة الفلسفة . وان الخطوة التي خطاها وليم جيمز وان كانت طريفة الا انها ليست جريئة ولا علمية ، بنظره . فما هي اذن وظيفة الفلسفة عند جون ديوي ؟ . . . .

يعتقد ديوي ان وظيفة الفلسفة (في الوقت الحاضر على اقل تقدير) هي ان تعالج مشكلات المجتمع معالجة وسيلتها العلم الحديث (اسلوبه ومخترعاته) ،وهدفها المصلحة العامة باوسع معانيها . وبما ان مشكلات المجتمع في الوقت الحاضر تختلف عما كانت عليه في الزمن الماضي وجب ان تنبثق فلسفة حديثة تستمد اصولها الفكرية من روح العصر الذي نعيش فيه ، وتأخذ مادتها من طبيعة مشكلاته الفكرية والمادية ، وان يكون هدفها رفع مستوى ابنائه من الناحيتين الفكرية والمادية بغض النظر عن جميع الاعتبارات . والوسيلة المهمة التي ينبغي للفلسفة الحديثة ان تلجأ اليها للتعبير عن نفسها وبحيث يتسنى نقلها من شخص الى شخص ومن مجتمع الى مجتمع ومن جيل الى جيل هي التربية (التي سوف نتصدى لبحثها في فصل آخر) . اي ان التربية هي الجانب العملي التطبيقي للفلسفة ـ اي انها ، كما يقول ديوي ، مختبر الفلسفة ، والفلسفة بدورها مصدرها الاشعاع الذي يمد التربية بالتوجيه الفكري النظري . واذا كان الامر كذلك فلماذا لا نعرّف الفلسفة (كما يقول ديوي) بانها نظرية للتربية باوسع معانيها !! والخطوة الاولى التي ينبغي للفلاسفة ان يخطوها لتهيئة اذهان الناس فيما يتصل بمعالجة مشكلاتهم الاجتماعية معالجة سليمة من ناحية الوسيلة والغاية هي تعويد الناس ، بوساطة التربية ، على التفلسف ـ أي التفكير الواسع العميق في قضايا المجتمع والحياة .

ولكي يصبح التفكير في مشكلات المجتمع سليماً وجب كما سلف ان ذكرنا ان يستند على العلم الحديث من حيث مادته ومن حيث اسلوبه في البحث (الذي سوف نتصدى لبحثه في فصل قابل) . ذلك لان التفكير الخاطىء (غير العلمي) يكون كذلك اما لاستناده الى مادة غير علمية تسوقه الى استنتاج نتائج غير علمية ، لان مقدمات التفكير غير علمية ، أو يكون كذلك لاتباعه اسلوباً غير علمي في

فيستنتج استنتاجات مغلوطة من مقدمات لاتؤدي اليها اذا كان اسلوب التفكير سليماً ، او للعاملين معاً . اي ان خطأ التفكير قد يأتي من المقدمات أو من النتائج المستندة إلى اسلوب خاطيء فى التفكير ، أو منهما معاً . ولكي نضمن سلامة المقدمات ينبغي لنا كما يقول ديوي ان نستمد مادة التفكير من العلوم المختلفة : فنستعين لمعرفة طبيعة الكون مثلاً بالفيزياء ، ومعرفة التغيرات الجوية بعلم الجغرافية ، وطبيعة المجتمع والانسان ، بعلم الاجتماع والنفس الخ . . . . ولضمان سلامة نتائج التفكير يجب ان نجعل اسلوب التفكير سليماً . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان ديوي يعرّف الفلسفة ، فيما يتصل بعلاقتها بالتفكير (الذي سوف نشرحه فى فصل آخر) بانها تفكير في التفكير ، أو انها التفكير المدرك لذاته من ناحية مقدماته ونتائجه واتجاه سيره .



الفصل الثالث

الفن : صلته بالعلم والفلسفة

يبدأ جون ديوي بتحديد الفن فيقول : ليس الفن صورة من الصور ، ولا تمثالا من التماثيل ، ولا قطعة من الموسيقى ، ولاقصيدة من الشعر ، وانما هوالمعنى الذي تحمله تلك الصورة ، ويرمز له ذلك التمثال ، وتعبر عنه تلك القطعة الموسيقية، وتتضمنه القصيدة تلك . والفن ، كما هو معروف ، شيء معنوي ، ليس له وجود مادي كوجود المعبرات عنه ـ وهي الادوات في الموسيقى ، واللغة فى الشعر ، والجبس أو غيره في التماثيل ، والورق والاصباغ فى الرسم . اي ان الفن بحد ذاته وان كان يدرك عن طريق الحواس ، وينتج عن طريقها بوساطة المادة ، الا انه ليس شيئاً مادياً . فوسائل الفن (مادته من حيث التعبير ومن حيث الايصال أو النقل أو التسلم) مادية دون شك . غير ان طبيعته فكرية عاطفية . ونحن نشعر به شعوراً عاطفياً نفسياً ، مع العلم باننا في الوقت نفسه نستمد ذلك الشعور من جوانب ادراكنا الحسي لمظاهر الفن المعبر عنها في اللغة ، أو الموسيقى ، أو الرسم، أو النحت وما شاكلها .

والمعنى الفني كما هو واضح تمازجه العاطفة ممازجة شديدة وتطغى عليه من حيث الانتاج والتعبير ومن حيث التسلم والتقدير . اي انه ليس من نوع المعاني العقلية (الخالية من الجوانب العاطفية تقريباً) التي تعبر عنها رموزالرياضيات

والعلوم بشكل عام . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول بصورة عامة بان كل موضوع يحدث ادراكه ارتياحاً للانسان من الناحية العاطفية يتضمن معنى فنياً .

ولا بد لوجود الفن من اركان ثلاثة يلازم بعضها بعضاً ملازمة الظل للذي الظل : هي الانسان (في حالتي التعبير والتقدير) من جهة ، وشيء غير الانسان (وهو الصورة أو القصيدة أو التمثال الخ ..) من جهة ثانية ، وصلة فنية تصل بينهما . تكون الصلة الفنية جزءاً من الشيء لانها صادرة عنه ، ويكون الشيء نفسه جزءاً منها لانها اتصلت بالانسان واثارت فيه احساساً فنياً يتجاوز الحدود المكانية لذلك الشيء . وينتج الفن عن العلاقة بين الانسان والشيء الفني . فليس الفن اذن موجوداً في عواطف الانســـان وحدها ، ولا هو موجود في الشيء الفني الذي يستثيره وحده ، وانما هو موجود فيهما معاً بقدر واحد . فهو موجود في الشيء الفني باعتبار ان ذلك الشيء مصدره ، هذا في حالة التقدير (اي وجود شيء فني يتمتع برؤيته أو سماعه أو قراءته احد الناس) . اما في حالة التعبير (أي اثناء عملية الرسم ، أو العزف ، أو نظم الشعر) فان عناصره ومكوناته مستمدة دون شك من اشياء قد تكون موجودة بشكل متناثر في الطبيعة ، جمعها الفنان والف بينها ، وخلعها بشكل جديد . والفن موجود في الانسان ، من الناحية المجازية ، في حالة تقديره للقطعة الفنية الموجودة باعتباره (حسب معلوماتنا الحاضرة) المخلوق الوحيد الذي يستجيب للفن ويتأثر فيه . فالفن اذن شيء موضوعي وذاتي في آن واحد ، ولا بد لحدوثه ـ كما اسلفنا ـ من وجود موضوع وذات ووسط يصل بينهما .

يتفق المشتغلون بموضوع الفن من الناحية التاريخية على تقسيمه الى قسمين : يدعى اولهما بالفن الجميل أو الرفيع ، ويسمى الثاني بالفن الصناعي أو التطبيقي . فالفن الرفيع ، على حد قولهم ، هو ما كانت قيمته ذاتية كامنة في جوهره ومتعلقة

بطبيعة تركيبه . وبعبارة اخرى هو كل فن لا علاقة لقيمته بفائدته ، وانما تتعلق قيمتة في ما يثيره من اعجاب عاطفي منبعث من طبيعته ومكوناته . فالقطعة الموسيقية الرائعة والصورة الجميلة والتمثال البديع امثلة من هذا القبيل . ولا نرى ضرورة ماسة الى ان نتطرق هنا الى البحث في المقاييس التي يستند اليها الحكم على روعة القطعة الموسيقية أو جمال الصورة أو بداعة التمثال . ويكفي هنا ان نشير الى انه على الرغم من وجود بعض المقاييس العامة عند المختصين بتلك الفنون فان للعوامل الذاتية أثراً في ذلك من جهة وان تلك المقاييس مع هذا كثيراً ماتختلف باختلاف الزمان والمكان .

اما الفن التطبيقي فهو كل فن ترتبط قيمته الذاتية بمدى الحاجة اليه . فطهي الطعام مثلاً فن تطبيقي ، وكذا بناء المساكن وخياطة الملابس ، والنجارة والحدادة وغيرها . فطهي الطعام يجهز الانسان بغذاء تتوقف فنيته على مدى قيامه بسد الحاجة اليه . وبناء المساكن يعد اماكن يأوى اليها الانسان ويحفظ فيها امتعته واثاثه من التعرض للتلف أو الضياع . غير ان تلك الفنون التطبيقية يمكن ان تتحول الى فنون رفيعة اذا فقدت فائدتها من الناحية التطبيقية . فالكرسي الصغير الذي لايصلح للجلوس ، بل يعمل لاجل المتعة يدخل ضمن حدود الفن الجميل أو الرفيع ، وهكذا .

يحدثنا المؤرخون بان فكرة تقسيم الفن الى نوعين (وتقسيمه فعلاً) قد نشأت بين اليونانيين قبل زهاء خمسة وعشرين قرناً . ويقولون بان هذا التقسيم مستمد من طبيعة المجتمع اليوناني آنذاك حيث كان منقسماً الى فئتين : فئة الاحرار وفئة العبيد . ولعل من المناسب ان نشير هنا الى ان الفرق بين الاحرار والعبيد فيما يتعلق بتركيب المجتمع اليوناني لم يكن مبنياً على اختلاف في الوان بشراتهم ،

بل كان منتزعاً من انواع مهنهم ومراكزهم الاجتماعية . فالطبقة الموسرة من ارباب النفوذ والجاه وهي اعمدة الحكم كانت تؤلف طبقة الاحرار . على حين ان طبقة العبيد كانت مؤلفة من ارباب المهن على اختلاف درجاتها وانواعها . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الفن الرفيع بدوره مؤلف من مجموعتين احداهما فوق الاخرى في الاهمية هما : (١) فن السياسة وفن الدين و (٢) الفنون الرفيعة الاخرى التي سلف ان ذكرناها . وسبب ذلك راجع الى ان فن السياسة متصل بادارة شئون الملك وفق مبدأ العدالة المطلقة ، على رأي افلاطون ، وهو شيء يتحدى الزمان والمكان ويسمو فوق الطبيعة والانسان ، اما فن الدين فامر يتصل كما يدعي افلاطون ، بتربية الروح وصقلها مما علق بها من ادران المادة نتيجة لاتصالها بالجسد — حيث هبطت اليه من العالم العلوي — ، فهي اذن ارقى من الجسد الذي تمتد اليه يد التغيير ويكتنفه التفسخ والانحلال . وما دام فن السياسية وفن الدين ارقى بطبيعتهما من سائر الفنون الرفيعة فان المشتغلين فيهما ارقى من سائر الاحرار الذين ينصرفون الى الانشغال فيما تبقى من الفنون الرفيعة ، وهؤلاء بدورهم ، كما ذكرنا ، ارقى من العبيد الذين يتعاطون الفنون التطبيقية والمهن المعروفة.

وقد قسم اليونان التربية الى قسمين : التربية الحرة والتربية المهنية . والتربية الحرة ، وهي خاصة بطبقة الاحرار كما لا يخفى ، هي ما تعلقت بتربية الذوق دون الالتفات الى ما يجنيه صاحبها من فوائد مادية منها . اما التربية المهنية فاهتمامها متعلق بتعلم الحرف المعروفة ولا علاقة لها بالذوق . وسبب ذلك ، كما سلف ان ذكرنا ، ان الاحرار آنذاك لم يكن لهم عمل سوى التمتع بما ينتجه العبيد من امور العيش . لذلك رغبوا عن العمل الجسمي وترفعوا عن تعاطيه . ولكي يجدوا ما يستطيعون بوساطته صرف الوقت لجأ بعض مفكريهم الى فتح المدارس وتزويدهم .

بالمعرفة التي لاهدف لها سوى التزود من المعرفة ذاتها . ولعل من الطريف ان نذكر في هذه المناسبة بان كلمة « مدرسة » تعني فى اللغة اليونانية « المحل الذي يصرف المرء فيه وقت فراغه » . ولما كانت المدرسة اليونانية قد اسست ليجد فيها الاحرار من المتع المعنوية ما يقضون فيه وقت فراغهم (وجل وقتهم كان فراغاً) اقترح افلاطون وارسطو بان تدخل فى مناهج التدريس الفلسفة والدين والرياضيات والمنطق والشعر والموسيقى والرسم والنحت وسائر الفنون الرفيعة . وقد رتبت هذه المواد فى منهج الدراسة حسب تسلسلها في الاهمية من الناحية النظرية . ذلك لان المادة المدرسية كلما ابتعدت عن الحياة التي يحياها الناس اصبحت ، بنظرهم ، اقرب الى مزاج طبقة الاحرار . والعكس صحيح كذلك ـ فلا غرو ان احتلت الفلسفة (على الشكل الذي كان شائعاً في زمن اليونان ـ أى التأمل الخيالي فيما وراء الطبيعة) الصدارة فى هذا المضمار (وهي الاساس الذي يستند اليه فن السياسة) ، وتلاها الدين فالرياضيات (وبخاصة هندسة اقليدس) فالمنطق (منطق ارسطو النظري المجرد) فسائر الفنون الرفيعة المعروفة كالشعر والموسيقى والرسم والنحت وما شاكلها . اما سبب وضع الفنون الرفيعة في آخر القائمة فناتج عن ان من يتعاطاها يستعين بحواسه (وهي امور مادية) من جهة ويتعامل مع المادة المتغيرة : فالرسام مثلاً يستعين بالقلم والورق الخ ... من جهة اخرى ، وعلى هذا الاساس لاتكون التربية حرة بالمعنى المراد ، على رأي افلاطون ، الا اذا ترفعت عن حواس الانسان وعن المادة كذلك . ومن جهة تفضيل التربية النظرية على التربية العملية يقول افلاطون ، فيما يتصل بالمهن ، ان صاحبها يستطيع ان يتقن عملها ولا يستطيع ان يحكم بمدى الفائدة منها أو بضرورتها . فصانع الاحذية مثلاً ، كما يقول افلاطون ، يستطيع بحكم اختصاصه ان يصنع الحذاء الجيد ، غير

انه ، بحكم اختصاصه كذلك ، لايستطيع ان يقول فيما اذا كان من الافضل للانسان ان يلبس الحذاء ام لا . ويصدق الشيء ذاته على الطبيب الذي يستطيع بحكم اختصاصه ان يميز بين حالتي الصحة والمرض ، ولكنه لايستطيع ان يصدر حكماً في انه هل من الافضل للانسان ، ان يظل حياً أو يموت ، وامر المفاضلة بين الاشياء يعود الى المختصين بفن السياسة وحدهم .

اما طبقة العبيد فقد اوجد لها افلاطون وارسطو ماسمياه بالتدريب المهني ـ أي التعليم المختص بالمهن المختلفة من زراعة وصناعة . ولما كان هذا النوع من التدريب مبنياً على استعمال الحواس من جهة وعلى المادة المتغيرة (مثل الخشب والارض والحديد وما شاكلها) من جهة ثانية لم يكن ضرورياً ، بنظر افلاطون وارسطو ، نقله من شخص الى شخص عن طريق التعليم النظري المدرسي ، بل يتم تعليمه عن طريق الاشتراك في العمل خارج جدران المدرسة . فمن يريد ان يصبح نجاراً في المستقبل عليه ان يشتغل مع نجار حاذق ليكتسب منه النجارة . ويصدق الشيء نفسه على الحدادة والزراعة والمهن الاخرى .

يتضح مما ذكرنا ان الواجب الاساس لطبقة العبيد كان القيام بجميع الاعمال التي تتطلب جهداً جسمياً ـ وهي تشمل سائر المهن التي يتوقف عليها استمرار الحياة بمعناها المادي . على حين ان العكس هو الذي كان شائعاً بين الاحرار . وبما ان الشقة بعيدة البون بين مراكز الاحرار والعبيد وبين مهنهم فقد نشأت ، كما سلف ان ذكرنا ، هوة اخرى لايقل غورها عمقاً عن زميلتها بين الفن الرفيع والفن الذي يتصل بالحياة التي يحياها الناس ، وقد نتج عن ذلك بمرور الزمن انه كلما ازدادت حياة الخاصة ترفاً ابتعد فنهم عن الحياة واصبح رفيعاً بالمعنى المراد ، وكلما كدحت العامة بعدت عن الفن الرفيع وانحطت الى عالم قريب من عالم غير الانسان . فانقسام

الفن الى رفيع وغير رفيع وان كان انعكاساً عن المجتمع اليوناني القديم قد عمل بدوره ، كما يقول جون ديوي ، على زيادة الشقة بين ابناء الامة الواحدة ابعد بعضهم عما تتطلبه الحياة اليومية من اعمال واورثهم الفرقة والكسل وطوح بالبعض الآخر حتى كاد ان يفقده الذوق السليم . وقد اخذ ايمان الناس بسلامة تقسيم الفن الى نوعين فى الازدياد على مر الايام . فالحركة التي ظهرت حديثاً فى اوربا وفي الولايات المتحدة ، والتي دعت الى طلب الفن لذاته كانت فى بعض مظاهرها صدى لهذا التقسيم . هذا الى انه من جهة اخرى يمكن ان يقال عن تلك الحركة بانها رد فعل لحياة مادية ميكانيكية تقلص فيها الميل للجمال وللفن وذوى حب الناس للخير وانصب اهتمامهم على طلب المادة بمعناها الضيق .

ان الحياة المادية تجرد الفن عن وظائفه الاجتماعية وتسلبه مسئوليته الادبية ذلك لانها حياة شغلتها المسئولية بمعناها المادي عن تلمس مواطن الجمال فى الحياة . ولهذا فان بعض الناس ، كما يقول ديوي ، بعد ان ضاقوا بالحيـــاة المادية اخذوا يتلمسون الجمال فى البحث عن كثير من المصنوعات الخزفية وادوات الحروب القديمة وما شاكلها ، وصاروا يخزنونها فى اماكن خاصة وينفقون عليها بسخاء معتبريها مصادر للفن ومنابع للجمال مع العلم بان تلك الفنون كانت في زمانها ادوات تدخل فى صميم الحياة ولا تخرج عن كونها فنوناً تطبيقية ، كما اخذت الحكومات في الامم المتحضرة فى بناء المتاحف ودور الآثار لخزن بعض مظاهر ثروتها الفنية وآثارها العسكرية والمدنية من جهة ولعرض ما استطاعت الحصول عليه من غيرها من الامم من جهة اخرى ، هذا من ناحية الاعزاز بمخلفات الماضي من الجوانب الفنية . غير ان المشاهد من الجهة الثانية ان دور الآثار ومتاحف الازياء وما شاكلها قد اصبحت وسيلة من وسائل الترف والعبث بالوقت والجهود والمال ،

وانها كذلك ، فى الاعم الاغلب ، مقصورة على الفئة المترفة من ابناء المجتمع .
فكأن الحكومات بهذه الطريقة تعمل (وبعضها ربما لايكون شاعراً بذلك) على
ابعاد الجماهير عن تلمس مواطن الجمال في الفن . يضاف الى ذلك ان تلك الحكومات
كثيراً ماتتباهى بعرض منتجات رجالها الفنيين المعاصرين ، وتشجع فنهم الرفيع
بجميع الوسائل الممكنة لجعله يسمو فوق المستوى العام للجماهير . وكلما تعذر التمتع
بالانتاج الفني على افراد الشعب جميعاً اصبح اصحابه محل اعجاب الفئة المترفةوموضع
تقديرها ومبعث تشجيعها .

وبقدر مايتعلق الامر بنوعي الفن اللذين اشرنا اليهما فان جون ديوي يدعو
الى تقريب الشقة بينهما ليجد العامل والفلاح لذة فى عملهما من جهة ، وليتنتج الفنان
فناً تطبيقياً نافعاً للمجتمع الذي يعيش فيه . كما انه يدعو كذلك الى تربية العامة
تربية تحبب لهم تذوق الفن لذاته ، وتربية الخاصة تربية تجعلهم يخلعون بعض
مظاهر فنهم الرفيع على الفنون التطبيقية .

. . . .

ذلك مايتصل بتحديد الفن وتوضيح وظائفه . اما مايتصل بعلاقة الفن بكل
من الفلسفة والعلم فيمكننا ان نقول بان بعض الباحثين في موضوع الفن يرون
انعدام الصلة بين الفن والعلم من جهة ، وبين الفن والفلسفة من جهة اخرى ، وحجتهم
فى ذلك ، فيما يتصل بالفرق بين الفن والعلم هي ان الفنان يشتغل بعواطفه وليس
لعقله أو تفكيره دخل فى مايتنتج . أي ان الفنان ـ كما يدعي هؤلاء ـ يفكر بعاطفته
التي تسيطر عليه وتصبغ نتاجه الفني بصبغتها التي تحدد تفكيره وتشله ان لم تقض
عليه . اما العالم ، بنظر هؤلاء ، فعلى العكس من ذلك تماماً . فهو يحاول ، ان كان
عالماً بالمعنى المطلوب ، كبت عواطفه والخضوع لسيطرة العقل خضوعاً تاماً أو قريباً

من ذلك . وبمقدار مايستطيع العالم الحد من مجال تدخل عواطفه في انتاجه يكون ذلك الانتاج اكثر دقة واقرب الى العلم منه الى اي شيء آخر . وجرياً مع هذا المنطق يصبح كل من العالم والفنان على طرفي نقيض . تقاس قيمة الانتاج العلمي بمدى تجرده من التأثر بالعواطف ، وبمقدار اعتماده على التفكير وحده ، بينما تحدد اهمية الانتاج الفني بمقدار تجرده من التفكير واعتماده على العاطفة وحدها .

يقول جون ديوي ان الفكرة التي تفصل بين العلم والفن الى ذلك الحد ليست صحيحة على هذا الوجه من وجوه الاطلاق ذلك لان العالم لايتجرد من عواطفه في مختبره من جهة ، ولا ينعدم التفكير عند الفنان مطلقاً من جهة اخرى . ولكن مع هذا فهناك فرق بين الحالين ، والفرق هذا يحدده مدى التدخل أو الشكل الذي يأخذه كل من العقل والعاطفة في الانتاج . اي ان الفرق بين تدخل العاطفة والعقل في كل من العلم والفن هو فرق في الكم لافي النوع . فللعالم نواحيه الجمالية والفنية المتعلقة بنجاح تجاربه أو اخفاقها وبخاصة في العلوم المختبرية وفي المجالات الصناعية المتصلة بالاصباغ والالوان والمحاليل العطرية وما شاكلها . وللفنان مشاكله الفكرية التي يريد حلها بطريقة عاطفية لاتخلو من التفكير على اقل تقدير . والفرق بينهما ، كما سلف ان ذكرنا ، فرق في تغلب العقل على العاطفة أو بالعكس . فتتغلب العاطفة على العقل في الفن ويتغلب التفكير على العاطفة في العلم . ولكن في المجالين ، مع هذا ، تفكيراً وعاطفة لايسهل فصلها .

ثم ان لكل من الفنان والعالم قوانينهما الخاصة التي يتبعانها في التطبيق . غير ان تلك القوانين اكثر ثبوتاً نسبياً في مجال الفن ، وان كانت اقل عدداً فيه منها في العلم . وسبب ذلك على مايبدو سعة مجال العلم وتشعبه بالنسبة للفن من جهة ، ووجود ظواهر (الا المختبرية منها) بشكل لادخل للانسان فيه الا بمقدار

أستنباطه للقوانين التي تخضع لها تلك الظواهر من جهة اخرى . على حين ان الامر في موضوع الفن ينحو منحى معاكساً لذلك في الاعم الاغلب . كما ان العنصر الشخصي (اي الجانب الذاتي الذي يختلف عادة باختلاف الافراد وباختلاف الزمان والمكان) اقل تدخلاً في البحث العلمي منه في الفن . غير ان الفرق بينهما في هذه الناحية مع هذا كمي لا نوعي ، فرق في الدرجة لافي النوع ، في مدى التغلب لافي وجوده كلياً في جانب وانعدامه اطلاقاً في الجانب الآخر . والعالم وان بدا انه قد يجوز له في بحثه ان يخرج على بعض قواعد العلم المسلم بها في زمانه فان ذلك يصدر عن طريق الاسلوب العلمي نفسه . والامثلة على ذلك كثيرة لا يسهل حصرها والفنان كذلك وان كان اكثر مرونة في عدم التقيد ببعض القواعد العامة في الفن (فيما يتعلق مثلاً بتركيب الالوان وتناسقها — في حالة الرسم — أو التزام بعض المبادىء العامة في نظم الشعر ، وفي العزف على الآلات الموسيقية وما الى ذلك —) أقول وان كان الفنان اكثر مرونة في عدم التقيد من تقيد العالم بالقوانين العلمية الا انه ينبغي للفنان ان يستند في مرونته اذا بلغت حد الخروج على بعض ماهو مسلم به من القواعد الفنية العامة على قاعدة فنية سابقة او لاحقة ربما يكون هو البادىء بوضعها ولو بشكلها العام غير المسلم به . ثم ان كلاً من الفنان والعالم يستعين بالرموز لاداء مهمته . ولكن هناك فرقاً بينهما في طبيعة الرموز التي يستعملونها . فالرموز التي يستعملها العالم تكون في العادة مؤلفة من ارقام وحروف لها معان ومدلولات خاصة يدركها المختصون . غير ان تلك الرموز ، مع هذا ، ليست واحدة من حيث الفاظها ومعانيها في مختلف العلوم (اذ ان لكل علم في العادة رموزه الخاصة به) . وقد يستعمل رمز معين في اكثر من علم واحد من حيث اللفظ مع اختلاف في المعنى والمدلول . وللفنان كذلك رموزه الخاصة به . غير انه يندر ان تكون تلك الرموز ارقاماً أو حروفاً ،

وانما هى الوان في حالة الرسم مثلاً ، وانغام فى حالة الموسيقى الخ . . . هذا الى ان كلاً من الفنان والعالم يتأثر عقلياً وعاطفياً بالعمل الذي يقوم به ، فهناك علاقة وثيقة بين المجال الذي يعمل المرء فيه وبين تفكيره وشعوره . والاختلاف بين المجالين ايضاً هو اختلاف في درجة التشبع بالمجال لا في نوعه . اي ان الفنان يتلذذ بفنه عاطفياً وعقلياً ، على حين ان العالم يتمتع بعامه عقلياً وعاطفياً .

اما القول بانعدام الصلة بين الفيلسوف والفنان فلا يخلو كذلك ، من وجهة نظر ديوي ، من مبالغة وتطرف . واساس ذلك التطرف وتلك المبالغة ناتج عن الاعتقاد بان الفنان يبدأ عمله متأثراً بمظاهر الطبيعة بما فيها من كائنات حية وجامدة كما تدركها الحواس من ابصار ولمس وما شاكلها . والفنان بنظر هؤلاء لا يفارق الطبيعة مطلقاً طوال عمله الفني ، وان حاول احياناً ان يسمو بفنه عن بعض مظاهرها . بينما يبدأ الفيلسوف عمله ، كما هو الشائع عند هؤلاء الباحثين ، مبتدءاً كل الابتعاد عن الطبيعة كما تظهر لحواسه ومعتمداً كل الاعتماد على غير المحسوسات من الاشياء . هذا الى ان الفيلسوف بنظر القائلين ببعده عن الفنان يتعامل مع الكليات والمطلقات (القوانين العامة التي تخضع لمفعولها قوى الطبيعة) بينما يبدأ الفنان عمله من الاجزاء والمتغيرات . فيبدأ الفيلسوف حسب رأيهم من البحث فيما وراء الطبيعة ، وهو شيء يتحدى الزمان والمكان . في حين ان الفنان يبدأ عمله بالمواد المألوفة لديه حيث يصوغ منها ضنوف فنه . والفيلسوف بنظر هؤلاء يحلل ما يدركه عقله من قوانين جامعة وثابتة تخضع لها قوى الكون والمجتمع والانسان ، ثم يهبط منها الى الاجزاء والتفاصيل . بينما يحاول الفنان ان يركب بين الاجزاء صوراً واشكالاً على هيئة كليات ، وان كانت اقل فى نطاقها سعة من الكليات التي يبحث فيها الفيلسوف واحق ثبوتاً منها كذلك . اي ان الفيلسوف يحلل

المطلقات الثابتة الازلية ، بنظرهم ، كما تتراءى له كالحق والخير والجمال ، وهي امور تسمو فوق الادراك الحسي والفكري للانسان . بينما يركب الفنان اجزاء معينة من مواد مألوفة وشائعة لغرض احداث اشكال واجسام جميلة تسبق المرء الى قلبه فتمتلكه عليه . هذا الى ان الفنان يهتم بالخلق والابداع ، بينما ينصب اهتمام الفيلسوف على الاكتشاف . اي ان مجال الفيلسوف ، حسب وجهة النظر هذه ، حقائق كلية ومطلقة وازلية موجودة في عالمها الخالد ، ومهمته اكتشافها أو العمل المستمر على اكتشافها بوساطة التفكير المجرد الذي يسمو فوق مدارك الانسان من الناحية الحسية - ويقرب الفيلسوف ، بنظرهم ، من اكتشاف تلك الحقائق بمدى سموه فوق الحواس وفوق المادة كما تدركها الحواس . اما اهتمام الفنان فمنصب على الابداع وخلق شيء جديد من مواد موجودة في عالم المحسوسات . وتتوقف براعته على مدى ابداعه وصوغه تلك المواد صوغاً جديداً لم يسبقه احد قبله الى ذلك .

يقول ديوي في معرض التعليق على الفصل بين العلم والفن ، ان هذا الفصل بالشكل الذي مرت الاشارة اليه مبني على فهم للفلسفة بمعناها القديم ، ذلك المعنى الذي تحدرت اصوله ، مع تحوير بسيط في تفاصيله لافي اسسه ، منذ عهد سقراط وافلاطون . وهو رأي ، كما يلوح للباحث على حد تعبير جون ديوي ، لم يأخذ بنظر الاعتبار ما احدثته الثورة الفكرية التي بدأت في اوربا قبل زهاء ثلاثة قرون تقريباً (وما زالت كذلك) من ضجة عنيفة حول موضوع الفلسفة ومجالها الامر الذي حدا بكثير من الفلاسفة القدامى والمحدثين ان يعتبروا الفلسفة علماً كسائر العلوم الاجتماعية ، كعلم النفس والسياسة والاجتماع ، وسبب ذلك على ما يبدو هو ان الفكرة القديمة القائلة بان في يد الفلسفة مفاتيح اسرار الكون قد نقضها تقدم

العلم الحديث في فروعه المختلفة اذ اصبح العالم الحديث ، عن طريق اعتماده على منطق الاسلوب العلمي في البحث والمشاهدة ، يفك اسرار الكون واحداً بعد الآخر . غير ان العلم مع هذا ، كما يقول ديوي ، يبحث في وصف مظاهر الكون وصفاً دقيقاً ومنظماً دون ان يتطرق ، في وضعه الحاضر على كل حال ، الى تفضيل بعض تلك المظاهر على بعض آخر ، ودون ان يتصدى لاصدار احكام خلقية عليها . اي ان العلم لايلج بحث الاخلاق حيث تبدأ المفاضلة بين انماط السلوك وانواع التفكير بين الناس داخل حدود الامة الواحدة وبين الامم كذلك في مختلف العصور والامكنة . واذا كانت الفلسفة علماً اجتماعياً فان مجالها التفضيل واصدار الاحكام المختلفة على مظاهر السلوك عند الفرد وبين الامم كذلك . ولكي تكون احكاماً سليمة ، كما يقول ديوي ، يجب على حملتها ان يستفيدوا ، كما سلف ان ذكرنا ، من تقدم العلم الحديث (مادته وطريقته) لبحث مشكلات المجتمع ، ونقد كثير من معاييره في السياسة والاخلاق ، ان فهم الفلسفة بهذا الشكل ، كما يقول ديوي ، يقربها كثيراً الى الفن حتى يجعل الحد الفاصل بينهما غير واضح . ذلك لان الفلسفة ، حسب هذا الرأي ، تبدأ من الحياة كما يدركها الانسان وكما يحياها كذلك ، وترجع اليها ثانية لاصلاح مافسد منها ، وبذلك تكمل الفلسفة مايريد الفنان ان يقومه مما اعوج من مظاهر الحياة . واذا صح ماذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان الفيلسوف فنان في كثير من مظاهر سلوكه من جهة وان الفنان لايستطيع ان يتجرد من جوانبه الفلسفية من جهة اخرى . قال افلاطون على لسان سقراط « الفلسفة نوع رقيق من الموسيقى » . هذا الى ان كلاً من الفلسفة والفن يدعو الى حطم القيود المادية والاجتماعية التي تقسم البشر الى جماعات غير متجانسة يكيد بعضها لبعض آخر ويعيقه .

فالفن والفلسفة والعلم ، وسائر مظاهر نشاط الانسان على وجه البسيطة ، يجب ان تتعاون ، كما يقول ديوي ، في رفع مستوى الحياة الانسانية من الناحيتين المادية والفكرية ، فهي اذن وسائل لتحقيق تلك الغاية الانسانية . وعلى هذا الاساس يمكن ان تسمى فلسفة جون ديوي بفلسفة الوسائل أو « الذرائع » شريطة ان لا يلصق بها مطلقاً ، كما سلف أن ذكرنا ، موضوع الانتهازية وموضوع « الوسائل تبررها الغايات » .



الفصل الرابع

الحرية : معناها ووظيفتها

يعتقد جون ديوي ان الحرية تعني ، فى كل زمان ومكان ، تحرر فئة معينة من الناس من بعض القيود . فالحرية بنظره اذن شيء نسبي لا مطلق ، يتغير معناه بتغير الزمان والمكان . وتتجلى وجاهة هذا القول اذا استعرضنا موضوع الحرية من الناحية التاريخية ، ولسهولة البحث دعنا ننظر الى تاريخ الحرية فى الاقطار الاوربية منذ عهد اليونان الى الوقت الحاضر . لقد كانت الحرية تعني فى عهد اليونان ، قبل زهاء خمسة وعشرين عاماً ، تمتع طبقة صغيرة من السكان بالعيش الرغيد ، حسب امكانيات زمانها ومكانها ، على حساب الاكثرية الساحقة من السكان . اي ان الحرية عند الشعب اليوناني ، الذي كان مقسماً الى فئتين : فئة الاحرار وفئة العبيد ، كما سلف ان ذكرنا ، كانت تعني ، بمقاييسنا الحاضرة ، عبودية اكثرية السكان وخضوعهم للاقلية الحاكمة . وسبب ذلك على ما يحدثنا ارسطو في كتاب « السياسة » هو ان العبيد يولدون كذلك بامر من الآلهة العادلة ، وان ليس من الانصاف في شيء ولا من مصلحة المجتمع ومصلحتهم ان يعاملوا خلافاً لما تستلزمه طبائعهم . ثم اصبحت الحرية تعني فى اوربا طوال القرون الوسطى (حيث انتشر الاقطاع في معظم ارجاء القارة ، وحيث كان اعتماد السكان على الزراعة وملحقاتها) تحرر الفلاحين من عبودية الارض ، اي من بعض مظاهر

النظام السياسي الذي كان شائعاً انذاك حيث كان الفلاح يعتبر جزءاً من الارض التي يفلحها ويزرعها (والتي يملكها غيره ويملكه معها) ولا يحق له الانتقال منها مطلقاً، سواء اكان ذلك الانتقال يتضمن التحول الى ارض اخرى او الى مهنة اخرى. واصبحت الحرية تعني (فى انكلترة بشكل خاص حيث بدأ المجتمع يتحول من الزراعة الى الصناعة والتجارة) اثناء ظهور الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر السماح للافراد بالتعبير عن ارائهم وممارسة معتقداتهم السياسية والدينية - بغض النظر عن نوعها او اختلافها عن آراء الفئة الحاكمة - من جهة، وضرورة رفع الحواجز التجارية، داخل حدود الامة وبين الامم كذلك، من جهة اخرى. وسبب ذلك على ما يبدو، بقدر ما يتعلق الموضوع بالتجارة على كل حال، زيادة الانتاج الصناعي وحاجة اصحابه الى تعريفه فى الخارج من جهة، واستيراد المواد الاولية الضرورية لانتاجه من جهة ثانية، وفتح ابواب القطر (الذي اخذ بالتصنيع) امام المنتجات الزراعية والحيوانية من جهة ثالثة. يضاف الى ذلك ما تتركه الاسفار من اثر في الميل الى التساهل نظراً للاحتكاك بين اقوام مختلفة، ذات لغات مختلفة وتقاليد مختلفة واديان ومذاهب شتى. واصبحت الحرية تعني في الوقت الحاضر الدعوة الى تحرير الناس من الفقر والجهل والمرض من جهة، وعدم الوقوف فى سبيل حرية الفكر من جهة اخرى.

واذا نظرنا الى موضوع الحرية من زاوية اخرى واستعرضنا تاريخ الفكر السياسي الاوربي، من الناحية النظرية التشريعية، في الفترة التاريخية الواقعة بين ظهور اليونان ومطلع القرن الحاضر، امكننا ان نقسم الفلاسفة والمشرعين والباحثين الاجتماعيين، حول موضوع الحرية وكيفية تحقيقها، الى فريقين متعارضين اشد التعارض. يرى الفريق الاول، وهو احدثهما تكويناً، ان الحرية لا تتحقق على

وجهها الا كمل الا اذا تمتع الفرد (اي فرد بغض النظر عن عقائده السياسية والدينية ولغته ولون بشرته الخ . . .) بجميع حقوقه وامتيازاته . ولا يتم ذلك التمتع كاملاً ، بنظرهم ، الا عن طريق تقلص ظل الحكومة تقلصاً كبيراً وضعف سلطانها على الافراد . ومن اشهر دعاة هذا المذهب مونتسيكو (١٦٨٩ـ١٧٥٥م) وفولتير (١٦٩٤ـ١٧٧٨م) وجان جاك روسو (١٧١٢ـ١٧٧٨م) في فرنسة ، وجيرمي بنثام (١٧٤٨ـ١٨٣٢م) وآدم سمث (١٧٢٣ـ١٧٩٠م) وجون ستورت مل (١٨٠٦ـ١٨٧٣م) في انكلترة . وقد نتج عن ارائهم تلك ظهور مذاهب الحرية الفردية في الاقتصاد المعروف . ويسمى مذهبهم بـ Literalism ، وتدعى تطبيقاته الاقتصادية بـ Laissez Faire, Laissez Passez . اما الفريق الثاني فيرى ان الحرية لا تتحقق على وجهها المطلوب الا عن طريق خضوع الفرد للدولة ذلك لانه يرى ان الفرد لا يصبح انساناً ، له لغته وتقاليده ومثله العليا في الحياة الا اذا انضوى تحت لواء دولة معينة . فهو اذن مدين لها من حيث وجوده الاجتماعي ووجوده المادي كذلك (لان تكوينه المادي لا يتم الا عن طريق الزواج والدين الذي يتم وفقاً لشرائع المجتمع ، كما ان وسائل عيشه ومصادر رزقه تأتيه من المجتمع كذلك) . فهو مدين للدولة اذن بحياته المادية والاجتماعية . وبما ان الدولة هي السلطة الوحيدة التي بوساطتها ينتشر النظام ويسود القانون ويسهل الاتصال الفكري والاجتماعي والمادي بين الافراد ، وبما انها ـ حسب وجهة النظر هذه ـ احرص على مصالح الشعب من الافراد الذين يسعى كل منهم في العادة لتأمين مصالحه على حساب غيره ، فان اطاعتها واجبة والانصياع الى انظمتها وقوانينها من اقدس الامور . ان هذا الرأي يتضمن قلة اهتمام حملة هذا الرأي بالحرية الفردية . ومن اشهر حملة هذا الرأي من القدامى

شيخ الفلاسفة افلاطون (٤٢٨ ق.م ب ٤٧ ق.م) ومن المحدثين هيكل (١٧٧٠_١٨٣٢م)في المانية وكروتشي (١٨٨٧_١٩٥٣م) في ايطالية .

ويجمل بنا ان نشير هنا الى ان الفريقين الآنفي الذكر قد اختلفا كذلك على شرعية ثورة الشعب أو بعضه على الحكومة التي يعتبرها فاسدة بمقاييس . فذهب الفريق الاول الى القول بان الثورة عمل مشروع يحق للشعب بل يجب عليه احياناً ان يقوم به للقضاء على الحكومة التي تتنكب عن السبيل السوي في الحكم . ذلك لان وظيفة الحكومة ، حسب رأيهم ، هي خدمة ابناء الشعب والعمل المستمر على رفع مستوياتهم من الناحيتين المادية والفكرية ، وان اخلالها بذلك يعتبر مبرراً مشروعاً لمناهضتها واقصائها بالقوة المسلحة (اذا فشلت جميع الوسائل الاخرى) في الدولة تمهيداً للمجيء بحكومة افضل منها . على حين ان الفريق الثاني قد ذهب الى الناحية المعاكسة فاعتبر الثورة امراً محرماً من ناحية العرف العام والتشريعات الاجتماعية . وسبب هذا الاختلاف أو التناقض بين الرأيين راجع الى اختلاف واضح بين نظريتي الفريقين في اصل الدولة وكيفية نشوئها . يعتبر الفريق الثاني الدولة كالانسان من حيث التركيب الجسمي والنشاط والوظائف . وتمثل الافراد الذين تتألف الدولة منهم من حيث صلاتهم ببعضهم وبالدولة كمثل اعضاء الجسم الانساني لكل منها وظيفة معينة . غير ان تلك الاعضاء جميعاً تتعاون ، مع وجود ذلك التخصص ، لخدمة الجسم كله . وقد يأخذ بعضها وظيفة بعض آخر وبخاصة في حالة المرض . والدولة بنظر حملة هذا الرأي سابقة للافراد في الوجود والاهمية. فيجب على جميع الافراد والحالة هذه ان يخضعوا لسلطانها وينصاعوا لاوامرها حتى وان بدا لهم أو لبعضهم ان تلك الاوامر لا تتفق هي والمصلحة العامة بله مصالحهم الخاصة . وينبغي للافراد كذلك ان يكونوا دائماً على اتم استعداد

للتضحية في سبيل الدولة كلما اقتضى الامر ذلك من وجهة نظر القائمين بتصريف شئونها ـ وهم الاعضاء الذين يمثلون المراكز العليا في الحكومة . فكما أن مصلحة الجسم قد تستلزم قلع الاسنان مثلاً أو استئصال احدى الرئتين اذا اشار بذلك المختصون من الاطباء فكذلك الحال اذا اقتضت مصلحة الدولة كما يراها اصحاب المراكز العليا في الحكومة للقيام بعملية تطهير داخلية أو اعلان حرب على عدو من الخارج . ووجه الشبه بين الدولة والانسان يتضح اذا نظرنا للامر من زاوية اخرى . فكما ان بعض اجزاء الجسم ارقى من بعض آخر من حيث الوظيفة والمركز ، كما يقول حملة هذا الرأي ، فكذلك افراد المجتمع ، يقع بعضهم فوق بعض من حيث نوع العمل واهميته . ويتسلسل الامر الى ان يصل الى الزعيم ، وهو الدماغ المفكر في جسم الدولة . هذا من ناحية صلات الافراد ببعضهم داخل حدود الامة الواحدة ، اما من ناحية صلات الدول ببعضها فانها تخضع كذلك لهذا التسلسل التصاعدي المار ذكره . فيقع بعض الدول فوق بعض آخر من حيث الاهمية والزعامة . ويقاس رقي الدولة وتقدر مكانتها في سلم التطور بمدى الانسجام الموجود في علاقات افرادها فيما بينهم ، وفي علاقاتهم بالدولة . فاذا فقد هذا الانسجام عن طريق تمرد بعض الافراد على السائد من القوانين اصبحت الدولة سقيمة ، كما يزعم هؤلاء ، وتبوأت منزلة تتناسب هي ونوع ذلك السقم ودرجته . غير ان الافراد حتى الدول السقيمة ، كما يدعي انصار هذا الرأي ، لايجوز لهم ان يثوروا على الشائع من انظمتها لغرض احداث تغيير في كيانها لان الدولة (حتى في حالة مرضها واحتضارها) ارقى ، بنظر هؤلاء ، من كل فرد من افرادها وارقى منهم مجتمعين ، ذلك لان رقي الفرد في كل دولة يقاس بمدى انسجامه معها وانصياعه لقوانين حكومتها . اما الفريق الاول فيعتبر ان نشوء الدولة كان نتيجة لاجتماع

الافراد وتعاقدهم . ويتلخص هذا الرأي في ان الافراد اسبق في هذا الوجود والاهمية من الدولة والحكومة . وانهم في فترة من فترات التاريخ الماضي اجتمعوا بمحض ارادتهم وتعاقدوا بشكل شفوي على مايظن فيما بينهم على انشـاء الدولة والحكومة لغرض القيام بخدمة مصالحهم والمحافظة على حقوقهم المكتسبة وبخاصة حق التملك . ويكون الافراد على هذا الاساس على الدولة حقوق والتزامات. واذا ثبت للافراد ان الدولة قد انحرفت عن السبيل السوي ، واخلت بواجباتها تجاههم اصبح من حق الافراد بل من واجبهم ان يثوروا عليها ويحطموا كيانها . وتدخل ضمن هذا الرأي نظرية كارل ماركس ، مع اختلاف لانرى ضرورة للدخول في تفاصيله لانه خارج نطاق بحثنا . وتحوي نظرية ماركس ان الدولة (والحكومة رأسها) مؤسسة ظالمة ، اوجدتها الفئة الحاكمة لغرض المحافظة على مصـالحها المركزة المبنية على اساس سلب الفئات المحرومة حقوقها المشروعة . وعلى هذا الاساس يصبح من حق الافراد ومن واجبهم كذلك ان يعلنوها حرباً شعواء لاهوادة فيها على الدولة والحكومة للقضاء على الفئة الحاكمة السائدة تمهيداً لاستلام زمام الحكم وانشاء حكومة يديرها مندوبون عن الجماهير والطبقات المحرومة لغرض الانتقال مع الزمن الى ايجاد مجتمع غير طبقي ينتفي فيه وجود الدولة والحكومة لانتفاء الحاجة اليهما .

. . . .

يقول ديوي في معرض التعليق على الرأيين الآنفي الذكر ان الرأي الثاني في الواقع ، على الشكل الذي عرضه دعاته ، يسلب الفرد حريته تحت ستـار التنظيم الاجتماعي . وهو رأي لايأتلف والكرامة الفردية في العصر الحاضر . وانه ، من

الناحية التاريخية ، سلاح بيد الفئة الحاكمة توجهه انى تشاء وكيفما تريد ضد من تحدثه نفسه تحدي مصالحها . هذا الى ان تشبيه الدولة بجسم الانسان لايخلو من تضليل ومغالطة وبخاصة اذا نظرنا الامر من ناحيته العملية الواقعية لا من ناحيته النظرية المثالية كما فرض حملة هذا الرأي . فافراد الدولة والحكومة كاعضاء الجسم يشد بعضها بعضاً ، ويؤثر بعضها في بعض ، وتتعاون جميعاً ، رغم تخصصها ، لخدمة الجسم ،وهذا صحيح اذا كان الافراد يتبوءون مراكزهم كل حسب كفاءته واختصاصه ، وهو ما ينبغي ان يكون اما ان توزع المناصب على اسس اخرى غير اسس الكفاءة والاختصاص ، ويطلب الى الناس الانسجام مع ذلك برغم انه ضرورة تقتضيه المصلحة العامة فامر لا تنتفع به الا الفئة الحاكمة التي تأتي الى الحكم على غير الاسس الشعبية ، وتتخذ منه وسيلة لتركيز نفوذها وتثبيت مصالحها التي لا تنسجم في العادة والمصلحة العامة كما تقررها الجماهير . وعلى هذا الاساس ، كما يرى ديوي يمكننا ان نقول ان حملة هذا الرأي لايدعون الى الحرية اطلاقاً بل يسعون الى طمسها . غير ان هذا القول لاينبغي ان يفسر بان ديوي يهمل جانب التنظيم الاجتماعي فى فلسفته السياسية والحق ان ديوي يهتم في هذا الجانب بقدر اهتمامه بالحرية الفردية لانه يرى ان كلاً منهما يكمل الآخر ويعتمد عليه ويتركز فيه ، ولا معنى ، الا لغرض الدراسة النظرية ، لتجريد احدهما عن الآخر واعتباره منفصلاً عنه . غير انه يعترض ، بقدر مايتعلق الامر بجانب التنظيم الاجتماعي ، على نوع ذلك التنظيم ومدى ضغطه على الحرية الفردية من جهة ، وعلى مصدره وصلة ذلك بالشعب من جهة اخرى . فاذا كان التنظيم الاجتماعي مفروضاً من قبل الهيئة الحاكمة دون اهتمام كبير بموقف الشعب منه فان ذلك بحد ذاته كما يقول ديوي يكفي لشجبه . اما اذا انبثق عن الشعب بوساطة

ممثليه (الذين ينتخبون انتخاباً حراً سليماً) فانه التنظيم الذي ينبغي تشجيعه حتى وان كان اقل نضجاً مما ينبغي ان يكون عليه هذا في حالة قلة نضج الشعب من الناحية الفكرية . غير ان ذلك التشريع اذا كان صادراً من الشعب ورامياً الى رفع مستواه الفكري والمادي فانه ، مع قلة نضجه ، سوف يعمل على رفع مستوى الشعب الذي سوف يسعى بدوره الى سن تشريع ارقى . وهكذا دواليك . فديوي اذن يشجب التنظيم المفروض من الفئة الحاكمة على الشعب ويحبذ التنظيم المنبثق عن الشعب نفسه .

اما حملة الرأي الاول فانهم قد ذهبوا الى الجهة المعاكسة . فالحرية الفردية دون شك مبدأ سام ينبغي لكل فرد ان يسعى الى تحقيقه . غير ان الدعوة الى رفع القيود ، عن التجارة مثلا ، مع عدم السماح للحكومة بالتداخل في تنظيم علاقات الافراد من الناحية الاقتصادية ، ما هي في الواقع الا دعوة لحماية جانب من الشعب على حساب جانب آخر اي انه يتضمن السماح لمن سبق له ان اصبح في وضع يساعده على الانتاج على نطاق واسع لاصدار ما يريد اصداره الى الخارج لكسب اكبر كمية ممكنة من الارباح . وهذا يعني من الناحية الثانية ان تقف الحكومة مكتوفة اليدين تجاه اغلبية ابناء الشعب الذين لم تسمح لهم الظروف بالتقدم الاقتصادي . فكأن الداعين الى هذا النوع من الحرية الفردية يريدون اطلاق يد كبار التجار واصحاب المعامل في الاثراء من جهة ، وابقاء اغلبية الشعب مكتوفي الايدي من الناحية الاقتصادية من جهة اخرى ، اي انهم يريدون ابقاء الاوضاع غير العادلة كما هي واكسابها صفة قانونية مشروعة من الناحيتين النظرية والعملية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الحرية الفردية

فيما يتعلق بالجوانب الاقتصادية في الوقت الحاضر ينبغي ان يشملها التشـريع الاجتماعي العادل الذي يهدف الى ضمان عدالة توزيع الثروات والخدمات بين افراد الشعب جميعاً بحيث يتسنى القضاء على ظاهرة استئثار بعض افراد الشعب بجهود بعض آخر . (سوف نشرح فلسفة ديوي الاقتصادية بشيء من التفصيل عندما نبحث في الاشتراكية الديمقراطية كما يراها ديوي) . هذا ما يتصل بالحرية الفردية في الجوانب الاقتصادية ، اما ما يتعلق بالحرية الفرديـــة في النواحي العاطفية والفكرية فان مجرد التساهل والسماح للافراد بممارسة حرياتهم العامة في مجال العبادة والسياسة وما شاكلها غير كاف بنظر جون ديوي وبخاصة في الحالات التي يصعب فيها توخي التساهل نظراً لتضارب الافكار والعواطف وتصادمها . ولـكي تضمن الحرية الفردية في هذه الجوانب ينبغي لنا كما يقول ديوي ان توجد التشريعات اللازمة المبنية على اساس التفكير السليم والرامية الى خدمة المصلحة ومن ثم نطلق العنان للحريات الفردية تسير ضمن ذلك الاطار لا خارجه .

يتضح مما ذكرنا ان كلاً من ديوي من جهة وبنثـام وجون ستورت مل وزملائهما من جهة ثانية يؤمن بالحرية الفردية وان اختلف مع الآخر في مفهومها وكيفية تحقيقها . ويعود سبب ذلك الاختلاف الى ان بنثام وزملاءه . كانوا يظنون ، من الناحية النفسية ، ان كل شخص سوي له قدرة على التفكير والتأمل بوساطة عقله Reason الذي من طبيعته ارشاد الانسان على القيام بالعمل الصالح . وان هذا العقل الفردي في العادة تفسده القوانين الشائعة في المجتمع نظراً لفسادها ومجانبتها المصلحة العامة لذلك نراه كثيراً ما يدفع صاحبه من الناحية الواقعية الى تعاطي الافعال الخبيثة . ولـكي نضمن للعقل الفردي السير وفق طبيعته السامية وجب علينا ان نخلصه من قيود المجتمع وانظمته غير العادلة ، ولا يتم ذلك الا اذا اقلعنا عن

فكرة تشريع القوانين وسنها ـ مهما كان نوعها ـ وفسحنا المجال واسعاً امام كل فرد ان يفكر تفكيراً سليماً وفقاً لطبيعة عقله . وبما ان العقل متوافر في جميع الافراد الاسوياء بنسب متكافئة فانهم دون شك يفكرون تفكيراً متماثلا فتتقارب انماط سلوكهم ولا يحدث التصادم بينهم الا عرضاً وفي حالات شاذة يقل عددها الى حد التلاشي كلما كان السلوك مبنياً على اساس التفكير السليم مجرداً عن كل العوامل الاجتماعية . وبما ان كل فرد يسعى الى تطمين مصالحه الخاصة والمصلحة الخاصة جزء من المصلحة العامة ، فان ذلك يعني ان كل شخص يسير بطريقته المعينة ووفق جهوده الى خدمة المصلحة العامة التي هي مجموع مصالح الافراد . في كل ذلك يكون الفرد خاضعاً لقوانين وقواعد ذاتية صادرة من طبيعة تفكيره لامفروضة عليه من المجتمع الذي يعيش فيه . وبما ان تلك القوانين الذاتية متماثلة فى جميع الافراد اذا تركوا لطبائعهم الخاصة فان مظاهر سلوكهم ، كما سلف ان ذكرنا ، تماثل كذلك . وبهذه الطريقة ، يسير جميع افراد المجتمع متعاونين ومتكاتفين في خدمتهم للمصلحة العامة .

اما ديوي فيرى استحالة فصل الانسان عن المجتمع وتركه لنفسه من الناحية العملية . فالانسان ، كما هو واضح ، يولد طفلاً ضعيفاً من جميع الوجوه ، محتاجاً ، لكي يستمر على الحياة ، الى عناية مستمرة يقوم بها الراشدون من بني جنسه . ويكون هذا الطفل ، من الناحية الجسمية ، اكثر ضعفاً من صغار كثير من الحيوانات. هذا الضعف البادي على الطفل من الناحية الجسمية مصحوب بضعف آخر من الناحيتين الفكرية والاجتماعية ـ اذ يولد الطفل بلا لغة أو قومية أو دين أو أي معتقد من المعتقدات السياسية . وكلما نما الطفل وضح اثر المجتمع في تكوينه

العاطفي والفكري (كما سنرى ذلك بوضوح عند بحثنا في موضوع التربية) . واذا كان الامر كذلك ، كما يقول ديوي ، ألا يجوز لنا ان نسمي الى تكوين اولئك الاطفال تكويناً اجتماعياً سليماً عن طريق سن تشريعات وقوانين سليمة ـ علمية في وسائلها وانسانية في اهدافها ؟ ونقطة البداية في ذلك عند ديوي هي تشجيع الحياة الديمقراطية البرلمانيـــة على الشكل الذي سوف أشرحه عند البحث في الاشتراكية الديمقراطية كما يراها جون ديوي .

ولعل من المناسب ان ننبه القارىء قبل الانتقال الى نقطة اخرى في البحث الى ان ديوي لايعترض على الرأيين الاول والثاني من حيث المبدأ ـ لانه يهتم جد الاهتمام بكل من الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي . ولـكنه يخالفهما من حيث الشكل الذي اتخذه كل منهما وبخاصة من الناحية الواقعية . وقبل ان نعرض رأيه في هذا الصدد بشيء من التفصيل يجمل بنا ان نتبسط في بحث موقفه من الرأيين الآنفي الذكر مجتمعين ، بعد ان ذكرنا رأيه في كل منهما على انفراد . ذلك لانهما بنظره يستندان على مسلمات متماثلة فلا غرو ان تعرضا لاغلاط مشتركة . واول تلك الاخطاء ان دعاتهما اعتبروا كلاً من الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي مبدأين متعارضين فتبنى حملة الرأي الاول مبدأ الحرية الفردية ، وخالفهم حملة الرأي الثاني فاعتنقوا مبدأ التنظيم الاجتماعي . وقد اعتبر انصار مبدأ الحرية الفردية تداخل الحـكومة في شئون الافراد اعتداء على حرياتهم ، بينما خالفهم دعاة التنظيم الاجتماعي فاعتبروا الحرية الفردية خروجاً على النظام لمبدأ الحرية نفسه . ويرجع سبب ذلك من الناحية النفسية ، على مايقول ديوي ، الى ان الباحثين الاجتماعيين ، ومعظم الناس ، في الاعم الاغلب ، يميلون الى اعتبار الحرية اساس الحياة السياسية

حينما يرون الدولة تتداخل لعرقلة تلك الحرية تداخلاً لامبرر له بنظرهم .
والجانب السلبي لهذه الظاهرة هي العزوف عن التنظيم الاجتماعي من حيث الاساس
لامن حيث المظهر الذي يأخذه فقط . فكأن مظهره الصارم يصبح صفة ملازمة له
فى كل زمان ومكان ، وعلى هذا الاساس ترتفع اصوات الفلاسفة السياسيين مطالبة
بالحد منه أو الغائه ان امكن . وتنعكس الآية عندما تأخذ الحرية الفردية شكلاً
بعيداً عن التنظيم وعن المصلحة العامة بنظر قسم آخر من الفلاسفة السياسيين
فيدعون الى وضع القيود التي يرونها ملائمة لتحديد حرية الافراد كي يسود النظام
والقانون . اي انهم يتخذون مما يشاهدونه في زمانهم من تسيب وضعف في النظام
العام وسيلة لاعتبار كل حرية فردية نوعاً من انواع التسيب وخرقاً للنظام بغض
النظر عن الزمان والمكان .

والاوضاع السياسية التي عاش فيها الباحثون الاجتماعيون الذين ذكرنا اسماءهم
توضح ماذهبنا اليه فى الفقرة السابقة توضيحاً كبيرا . فقد عاش دعاة الحرية الفردية
في ظروف سياسية كان تداخل الحكومة في شئون الافراد عنيفاً صعب الاحتمال
الامر الذي دفعهم الى الدعوة الى تقلص ظل الحكومة لاطلاق حرية الناس . بينما
عاش اصحاب نظرية التنظيم الاجتماعي في ظروف سياسية تضاءل فيها نفوذ
الحكومة الامر الذي دعاهم الى اعتبار تمتع الفرد بحريته نوعاً من انواع التسيب
والفوضى وفقدان النظام ، فدعوا الى عكسه . فانبرى فولتير وروسو ، حينما ساءهما
كثيراً تداخل الحكومة والكنيسة في امر حرية الافراد ، الى مهاجمة التنظيم
الاجتماعى مهاجمة عنيفة ، وحمل جرمي بنثام وجون ستورت مل وآدم سمث حملات
صارمة على تداخل الحكومة فى حرية الافراد من الناحيتين السياسية والاقتصادية ،
ونادى كل منهم بوجوب رفع الحواجز التي وضعتها الحكومة لكي يصبح

الافراد احراراً . ولعل من المناسب ان نذكر القارىء في هذه المناسبة ان الدين في اوربا بشكل عام آنذاك لم يكن منفصلاً عن الدولة كما هي الحال في الوقت الحاضر ، فلا غرابة ان التقت مصالح الفئة الحاكمة مع مصالح رجال الدين فقاومت جميع الافكار التي لا تأتلف هي والوضع القائم آنذاك . وبقدر ما يتعلق الامر بفرنسا في الفترة التي عاش اثناءها كل من فولتير ومونتسيكو وجان جاك روسو ، وقبل ذلك ، يمكننا ان نقول ، فيما يتصل بالحرية الفردية في مجال الدين ، بان التعصب الديني قد بلغ اشده ضد الطوائف المسيحية غير المنتمية الى المذهب الرسمي للحكومة . فاضطهد البروتستنت الفرنسيون (الهيكونوت) ولم يسمح لهم بالتوظف أو التعليم أو الخدمة في الجيش أو السكنى في باريس والمدن الفرنسية الكبرى ، كما لم يعتبر زواجهم شرعياً . اما قضية استبداد الفئة الحاكمة في فرنسا بمصالح الشعب من جميع النواحي قبل اندلاع نيران الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ فاشهر من ان تذكر . فلا عجب اذن ان رأينا رجال الفكر الحر في فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر واثناء القرن التاسع عشر يدعون الى الحرية الفردية على الشكل الذي وصفناه . ولم يكن الوضع العام في انكلترا آنذاك احسن مما كان عليه في فرنسا . فقد كانت الوظائف الكبرى في الدولة (مدنية وعسكرية ودبلوماسية) مقصورة على الطبقة الارستقراطية المكونة من كبار المزارعين وارباب المال والجاه واغلبهم من اتباع الكنيسة الانكليكانية (المذهب الرسمي للحكومة البريطانية) . وكان متوقعاً والحالة هذه ان لا يسمح لابناء الطوائف الاخرى من بروتستنت وكاثوليك الا باشغال المناصب الحكومية المتواضعة وقد بلغ الضغط الفكري على الكاثوليك درجة صعب عليهم معها التمتع بممارسة شعائرهم الدينية بشكل مكشوف . وكانت ابواب كثير من المعاهد العلمية مقفلة بوجه ابناء تلك الطوائف . فقد امتنع كثير

من المدارس الخاصة امثال ايتون وهارو وونجستر عن قبول الاطفال الكاثوليك والبروتستنت في عداد طلابها . هذا من ناحية التعليم في مراحله الاولى . اما الدراسة الجامعية فان اكسفورد وكمبردج لم تفتحا ابوابهما لابناء تلك الطوائف الا في عام ١٨٥٤ ولكن ضمن شروط خاصة منها انهم لايتمتعون بالوظائف التي تؤهلهم لاشغالها شهاداتهم المدرسية ، وانه لايسمح لهم كذلك نيل شهادة الـ M. A. أو الدكتوراه ، وان لايدخلوا كلية اصول الدين (لان تلك الكلية لاتدرس الا اصول المذاهب الانكليكان ، وهو المذهب الرسمي للحكومة) . فلا عجب ان اثار ذلك كله الكتاب والمفكرين فدعوا الى ضرورة نشر العدالة الاجتماعية عن طريق القضاء على النظام السائد واحترام الحرية الفردية .

على حين ان حكم الجماهير (الناتج عن تمتعهم بحرياتهم الفردية على الشكل الذي كان شائعاً عند اليونان) بالقتل على سقراط (لانه كان يفسد عقول الناشئة ويدفعهم الى الشك في وجاهة التقاليد) قد آلم تلميذه الوفي افلاطون ، فنفر من الحرية الفردية ودعا الى ضدها . كما اتعب فقدان التنظيم الاجتماعي في المانية ، الفيلسوف هيكل طوال الفترة التي عاش اثناءها ، الامر الذي افقد المانية ، بنظره ، القدرة على تأدية رسالتها التاريخية للعالم « لاخراجهم من الظلمات الى النور » من جهة ، وجعلها تتعرض لمهاجمة الجيوش الفرنسية تحت قيادة نابليون من جهة اخرى ، فنادى هيكل بوجوب القضاء على الحرية الفردية ، ونشر النظام والقانون في ربوع ذلك القطر .

. . . .

يقول ديوي ان الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي شيئان متلازمان ، لايمكن ان يتحقق احدهما على وجهه الاتم على حساب الثاني . فاذا انعدمت الحرية الفردية

انعدم وجود التنظيم الاجتماعي واصبح المجتمع خاضعاً لمشيئة الفئة الحاكمة . واذا انعدم التنظيم الاجتماعي انعدمت الحرية الفردية كذلك واصبح الافراد سائرين وفق قاعدة التسيب والفوضى ، وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول على حد تعبير ديوي ، ان التنظيم الاجتماعي لا يحصل الا اذا رافقته حرية فردية ، والحرية الفردية بدورها لا تزدهر دون وجود حارس ومنظم .

والصراع بين الحرية والضغط عليها قديم قدم الحياة الاجتماعية ذاتها . ولا يوجد عهد مرت الانسانية فيه دون ان يتمتع بعض الناس بالحرية في بعض المجالات ويحرم آخرون من ذلك . غير ان الدعوة الى الحرية ، من الجهة الثانية ، لا ينبغي ان تفسر بانها تتضمن الخروج على مبدأ السلطة ، وانما هي محاولة للقضاء على النظام السائد (الذي يظن بانه فاسد) لغرض تغييره باحسن منه ، وذلك عن طريق احداث تبديل في نوع السلطة السائدة وفي مجالها . اي ان الدعوة الى الحرية ما هي الا محاولة لاحداث تغيير في موقع السلطة وفي مجال عملها السياسي لا القضاء على السلطة نفسها من حيث المبدأ . فهي اذن ، بعبارة اخرى ، عملية استبدال سلطة باخرى . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان السلطة والحرية موجودتان جنباً الى جنب في جميع الاحيان والامكنة مع اختلاف في الشكل من جهة وفي كمية احداها بالنسبة لكمية الاخرى من جهة ثانية والمقصود بكمية احداها هنا هي مقدار الافراد الذين يتمتعون بذلك من جهة ومدى ما يتمتع به كل منهم من جهة اخرى .

ورب معترض يقول ان وجود السلطة والحرية معاً يتلاشى في وقت الهزات الاجتماعية العنيفة السياسية والعسكرية ، التي يتعرض المجتمع لتأثيرها حيث تتلاشى هيبة السلطة القائمة وينعدم سلطانها على الافراد ولو لمدة قصيرة من الزمن ، كما

تتلاشى حريات الافراد كذلك . كما حصل ذلك مثلاً في فرنسا اثناء ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩ ، وفي روسيا ايام قيام ثورتها الدامية عام ١٩١٧ . وللاجابة على ذلك نقول ، بقدر مايتعلق الامر بالسلطة ، ان حال المجتمع في وقت الازمات الاجتماعية لاتعني انعدام السلطة من حيث المبدأ ، بل تعني ان هناك نزاعاً على السلطة بين اكثر من جهة واحدة . فليس حدوث الازمات اذن زمناً تنعدم فيه السلطة بل هو وقت يظهر فيه تعددها حيث يستمر النزاع بين اكثر من سلطة واحدة الى ان تتم الغلبة لواحدة منها . والخروج على وضع اجتماعي معين ، بقوة الفكر أو السيف أو بهما معاً ، لايدل على فقدان السلطة بمقدار دلالته على تجزئتها . فهو وان دل من حيث الاساس على ضعف السلطة القائمة من وجهة نظر اولئك الذين ينازعونها البقاء غير انه من الجهة الثانية يتضمن حتماً التبشير بظهور سلطة جديدة تتحدى الاولى وربما تحتل محلها في المدى القريب أو البعيد والخروج على الانظمة والقوانين السائدة لايعني الخروج على الانظمة اطلاقاً بل يعني الدعوة الى نشر نوع آخر من الانظمة والقوانين — هي ، بنظر دعاتها ، اكثر صلاحاً من القوانين السائدة والانظمة المرعية . هذا من ناحية السلطة ، اما من ناحية الحرية الفردية فانها كذلك لاتتلاشى في وقت الازمات الاجتماعية من حيث الاساس وانما هي تختلف من حيث الشكل والمظهر من جهة ومن حيث المدى أو السعة من جهة اخرى . فهي تزداد من ناحية فيما يتعلق ببعض افراد المجتمع وبمدى مايتمتع به منها كل منهم . وتنقص من ناحية اخرى فيما يتعلق ببعض آخر وبمدى ماسيتمتع به منها كل منهم . فالافراد الذين يريدون تغيير السلطة القائمة أو قلب نظام الحكم تتجلى حرياتهم في هذه الناحية ويتسع مداها . غير ان تلك الحريات مع هذا تأخذ شكلاً منظماً لاشكلاً فردياً مبعثراً . وتنعكس الآية فيما يتعلق بالسلطة القائمة حيث

تتضاءل حريتها في بعض المجالات من حيث عدد تلك المجالات وسعة الحرية في كل منها .

. . . .

يبدأ جون ديوي بحثه فيما يتصل بمعنى الحرية فى الوقت الحاضر بتوجيه طائفة من الاسئلة ثم يحاول تلمس اجوبة يراها وجيهة ، لتوضيح وجهة نظره فيما ينبغي ان تكون عليه الحرية في هـذا العصر الذى نعيش فيه . ومن اهم تلك الاسئلة ما يلي : ما الحرية ؟ ولماذا يرغب الناس فيها ؟ ايرث الانسان الميل الى الحرية كما يرث صفاته الجسمية ؟ ام ان الحرية شيء مكتسب يأتي الى الانسان من البيئة الاجتماعية التي يشاركها حياتها كما يأتيه اسمه ودينه ومقاييسه في السياسة والاخلاق ؟ هل الحرية غاية بحد ذاتها ؟ ام انها وسيلة لتحقيق غايات اخرى ؟ هل ينبغي حتماً ان يرافق الحرية شعور بالمسؤلية ؟ ام ان الحرية تعني ان يفعل المرء ما يشاء ؟ هل تعني الحرية التحرر من جميع القيود ؟ ام انها تقتصر على التغلب على بعض القيود تحت ظروف سياسية واقتصادية معينة ؟ واذا كانت الحرية تعني التحرر من بعض القيود فهل يزول الميل للحرية عند زوال تلك القيود ؟

يقول ديوي ان تلمس الاجابة المقنعة على هذه الاسئلة ليست من الامور الهينة ، وان الباحث ، لكي يحاول ان يجيب عليها اجابة مثمرة ، ينبغي له ان يلم بعلم النفس فيما يتصل بمعرفة الطبيعة البشـرية ، وفي علم الاجتماع فيما يتعلق بمعرفة القوى الاجتماعية التي يخضع الفرد لها فتتعدل طبيعته وسلوكه . ثم يقول : انني شخصياً اميل الى الاعتقاد ، وربما كنت غير محق ، بان الحرية الفردية شيء مكتسب يتعلمه الانسان من البيئة الاجتماعية التي يشاركها حياتها . لذلك نرى معنى

الحرية الفردية تختلف باختلاف الزمان والمكان . وبما ان الحرية تظهر فى المجتمع البشري باشكال مختلفة فان الانسان في العادة يدعو الى تحقيق الشكل الذي يرى ضرورة وجوده فى زمانه ومكانه معتبراً فقدانه فقداناً للحرية بكاملها وتحقيقه تحقيقاً لها . والحرية ، بنظر جون ديوي ، وسيلة لا غاية بحد ذاتها . اي ان الانسان عن طريق تمتعه بالحرية يسعى الى تحقيق غايات اخرى . ثم ان الحرية ينبغي ان يصاحبها شعور بالمسؤلية والا انقلبت الى فوضى وفقدت اهميتها من الناحيتين الفردية والاجتماعية . وناحية المسؤلية فى الحرية هى الجانب الاجتماعي الذي تسير تصرفات المرء وفق هديه وتوجيهاته . وهذا الجانب ، كما يقول ديوي ، هو الذي يجعل الانسان يزن تصرفاته وزناً اجتماعياً من حيث آثارها ونتائجها عليه وعلى الآخرين فى المدى القريب والبعيد ، وهو الذى يعصم الانسان من الاستسلام الى الجموح فى تصرفاته . وبما ان الحرية تظهر باشكال مختلفة وتتكون من جوانب متعددة فان ميل الانسان لا يزول بمجرد تحقيقه النوع الذى يرى ضرورة تحقيقه بالنسبة لظروفه الزمانية والمكانية ذلك لان الحياة عملية مستمرة وعلاقات الافراد ومصالحهم تتأثر بالزمان والمكان المتغيرين باستمرار الامر الذى يؤدى دائماً الى الدعوة الى تحقيق انواع جديدة من الحرية . اى ان تطمين الانسان ، بعبارة اخرى ، لجانب معين (او اكثر) من جوانب الحرية يدفعه حتماً (نظراً لطبيعة الحياة نفسها) الى المطالبة بتحقيق جوانب اخرى تختلف باختلاف الزمان والمكان . هذا من جهة ومن جهة ثانية فانه ما دام المجتمع الانساني ناقصاً من ناحية نشر العدالة الاجتماعية با كملها بين الناس ، وما دام بعض الناس يتمتعون بحريات اكثر من غيرهم على اسس غير اسس العدالة الاجتماعية فان الميل الي المطالبة

بالحرية عند بعض (مع تغيير فى نوع هذا البعض ومقداره باختلاف الزمان والمكان) سيبقى ما بقي المجتمع الانساني .

واذا سلمنا بان الحرية شيء مكتسب يتلقفه المرء من بيئته الاجتماعية (كما يتلقف عاداته وعقائده فى الدين والاجتماع) جاز لنا ان نقول بان تحقيقها (فى الوقت الحاضر على كل حال) لا يتم الا عن طريق التنظيم الاجتماعي والتشريع السياسي . وهذا يعني ان المرء يكتسب حديثه بوساطة تداخل الحكومة فى تعيين ما له من حقوق وما عليه من واجبات غير ان تداخل الحكومة فى تعيين حقوق الافرادوواجباتهم ، كثيراً ما يتم بشكل يحدد حريات الافراد ويقلصها ان لم يقض عليها . والمشكلة الكبرى التي ينبغي مواجهتها عند بحث تداخل الحكومة فى تعيين ما للفرد وما عليه هي نوع ذلك التداخل ومداه . اى كيف تتداخل الحكومة تداخلا معقولا فى هذا الصدد فلا تترك الحبل على الغارب للافراد يعملون ما يشاؤن تحت ستار الحرية وفى الوقت نفسه لا تضغط على الحرية فتصادرها تحت شعار التنظيم الاجتماعى والقضاء على الفوضى . هذه مشكلة اجتماعية عويصة تواجهها ، بدرجات مختلفة ، جميع الدول المعاصرة . وقد صعب كثيراً حلها . وقبل ان يقترح ديوى ما يراه مناسباً لعلاجها يعود مرة اخرى لبحث الحرية بمعناها الاجتماعى .

يقول ديوي ان الحرية الفردية ، من الناحية الاجتماعية ، تتحقق بوساطة اعادة النظر في قضية توزيع علاقات افراد مجتمع من المجتمعات فى وقت ومكان معينين لغرض وضعها على اسس جديدة . أي ان الحرية تستند في وجودها على اجراء عملية تغيير فى كمية حصص الافراد والجماعات التي تكون ذلك المجتمع من حيث

حقوقها وواجباتها بالنسبة لبعضها . فتزداد حرية بعض وتنقص حرية بعض آخر من حيث عدد مجالات ظهورها ومن حيث سعة كل مجال منها . واذا نظرنا الى الحرية من ناحية الافراد الذين تقلصت حرياتهم فى المجالات التي مسها ذلك التقلص امكننا ان نعرف الحرية بانها مالايستطيع المرء عمله في وقت معين وزمن خاص . ذلك لان عدم قدرة شخص من الاشخاص ، من الناحية الاجتماعية ، على القيام بعمل ما ، تحت ظروف معينة ، تعني ، اذا مانظرنا للحرية من ناحية الافراد الذين ازدادت حرياتهم ، فسح المجال امامهم كي يقوموا بذلك العمل نفسه أو بعمل معين آخر في تلك الظروف ، حسب مبدأ توزيع الحصص الذي المعنا اليه . ويتجلى ذلك بوضوح اذا شبهنا الحرية العامة ببركة السباحة ، وشبهنا افراد المجتمع بالسابحين ، فاذا نظمت علاقات السابحين وفق قاعدة عادلة فان تحديد نشاط بعضهم وقتيا وفقاً لتلك القاعدة معناه من الجهة الثانية ، انطلاق الآخرين . وهكذا . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول : إننا لكي نعرف الحرية السائدة في مجتمع من المجتمعات ينبغي الا ننظر الى مايستطيع بعض الناس ان يفعلوه فقط ، بل والى مالايستطيعون ان يفعلوه كذلك . وسبب ذلك راجع ، من الناحية الاجتماعية الواقعية ، الى ان افراد المجتمع ، فى الوقت الحاضر بشكل خاص ، يعيشون معتمدين على بعضهم اعتماداً كبيراً . وكلما ارتقى المجتمع سلم التطور الثقافي ازدادت درجة ذلك الاعتماد ، واصبحت اعمال الفرد وآراؤه ذات أثر كبير في غيره من الافراد . فحرية الفرد ، فى القول وفى العمل ، متعلقة بحرية غيره اشد التعلق . واذا وقفت مؤقتاً حرية فرد معين فى محل ما ، تحت ظروف معينة ، فان ذلك يعني . كما سلف ان ذكرنا ، بدء تحرك حرية فرد آخر اوافراد آخرين . وهكذا . وعلى هذا الاساس لاينبغي للمرء ان يتصدى للبحث في حرية فرد من الافراد او جماعة من الجماعات البشرية ،

كما سلف ان ذكرنا ، دون ان يأخذ بنظر الاعتبار حرية الافراد الآخرين والجماعات الاخرى التي تشارك ذلك الفرد أو تلك الجماعة حياتها . ولما كانت مصالح الناس متشابكة ، تتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح ، لابد للحكومة من ان تقوم بقسطها في تنظيم توزيع علاقات الافراد تجنباً لاصطدام بعض المصالح وابعاداً لعبث بعض الافراد بحقوق بعض آخر . ولا بد للافراد ، كي يحافظوا على حرياتهم ويتمتعوا بحقوقهم ويقوموا بالتزاماتهم ان يخضعوا للحكومة في هذا المضمار . والافراد ، في الاعم الاغلب ، بخضوعهم للحكومة ، كما يقول ديوي ، يحصلون على قسط من الحرية اكبر مما قد يصيبهم في حالة نفض الحكومة يدها عن القيام بعملية التوزيع كما انهم كذلك يتخلصون من كثير من اوجه الكفاح السلبي حين محاولتهم غمط حقوق بعضهم وتوسيع مجالات حريتهم على حساب اشخاص آخرين . غير ان اعضاء الحكومة ، من الجهة الثانية ، قد لا يترددون عن اساءة استعمال سلطتهم فيقتلون الحرية تحت ستار الدفاع عنها وذلك عن طريق تمتعهم بكميات من الحرية (من حيث عدد المجالات وسعة كل منها) يسلبون قسماً كبيراً منها من افراد الشعب بطرائق شتى . أي ان اعضاء الحكومة قد يصل غرامهم بالسلطة التي يمارسونها حداً يجب لهم وضع اكبر كمية ممكنة منها في ايديهم وتقليص حريات الآخرين وسلطاتهم الى حد يقربها من التلاشي لغرض استعمال سلطتهم تلك للقضاء على من تحدثه نفسه ان يحاول احداث تغيير في الوضع العام تتعرض معه الهيئة الحاكمة الى الخطر . والحكومة التي يقل الجموح في تصرفاتها المتعلقة بالحرية الفردية هي التي تكون منبثقة عن الشعب . والعكس صحيح كذلك .

فهل هناك من وحدة قياسية يمكن ان يتفق عليها الحاكم والمحكوم في تعيين

مدى الحرية التي ينبغي ان يتمتع الفرد بها سواء أكان حاكماً ام محكوماً ؟ لاشك ان الاتفاق لايتم بسهولة حتى في تعيين وحدات قياسية متفق عليها تتعلق بالاوزان والاطوال وغيرها من الامور المادية . فالوحدات المستعملة لقياس الاطوال والاوزان لاتختلف باختلاف الاقطار حسب بل هي كذلك تختلف احياناً باختلاف القطر نفسه في زمنين مختلفين ، أو في القطر نفسه ولكن في منطقتين منه مختلفتين ، ويتعقد الامر كثيراً بطبيعة الحال فيما يتعلق بايجاد وحدات قياسية متفق عليها لقياس الامور المعنوية كالحرية والنظام والعدل وما شاكلها . غير ان ديوي ، مع هذا ، يعتقد بامكانية حصول مثل تلك الوحدة — هي بنظره المصلحة العامة التي تسمو فوق مصالح الافراد سواء أكانوا حكاماً أم محكومين . والمصلحة العامة بنظره تتضمن رفع مستوى جميع ابناء الشعب (بغض النظر عن جميع الاعتبارات) من الناحيتين المادية والفكرية ، وجعلهم جميعاً يتقاسمون خيرات البلد بشكل عادل ويساهمون في ادارة شؤونه كل حسب كفاءته واختصاصه كما يقدرها العلم الحديث. وللسير وفق تلك الوحدة القياسية ينبغي للحاكم ان يوجه لنفسه طائفة من الاسئلة قبل ان يقوم بأي عمل معين أو سن تشريع من التشريعات الاجتماعية والسياسية فيقول مثلاً : ما المصلحة العامة في مثل هذا التشريع ؟ هل ان في الامكان سن تشريع آخر يؤدي الغاية نفسها في الظروف الراهنة ولكنه في الوقت نفسه اقل ضغطاً على حريات الافراد من هذا التشريع ؟ هل ان هذا التشريع بالذات ضروري في الوقت الحاضر ؟ كما يجب على المحكوم ان يوجه لنفسه اسئلة مماثلة فيما يتصل بموقفه من ذلك التشريع والتشريعات جميعاً . فيقول لنفسه مثلاً : هل ان موقفي ازاء هذا التشريع ، سواء أكان ذلك الموقف سلبياً أو ايجابياً يتفق هو والمصلحة

العامة ؟ هل ان تعاوني مع الحكومة في هذه القضية بالذات يحقق نفعاً ـ من حيث المصلحة العامة ـ اكثر منه فيما اذا وقفت موقف المعارض ؟ او المحايد ؟ هل ان المعارضة أو التأييد أو الحياد تجاه جميع اعمال الحكومة وتصرفاتها تتلاءم هي والمصلحة العامة ؟ ام ان المرء يجب ان يعارض حيث تكون المعارضة نافعة من ناحية المصلحة العامة ؟ ويؤيد كذلك ؟ أو يبقى على الحياد ؟ واذا سلمنا بان الموقف الاخير هو المفضل فانه ، دون شك ، كما يقول ديوي ، يستلزم حتماً توافر درجة كبيرة من الثقافة وضبط النفس والتحرر من ضيق التفكير والانانية التي يتم تحقيقها على أساس التفريط بالمصلحة العامة . لذلك فالحرية بمعناها النفسي ، بنظره ، هي القدرة على التصرف المتزن المعقول الرامي الى خدمة المصلحة العامة (أو تحقيق المصلحة الذاتية ضمن اطار المصلحة العامة لا على حسابها) في جميع الاوضاع الاجتماعية ، وما رفع القيود المادية لغرض تحقيق حرية الحركة الا وسيلة لحرية التفكير والارادة وحسن التصرف . والدعوة الى حرية الفكر لامعنى لها اذا لم يصحبها تعبير لحرية الفكر في مجالات الحياة العملية . ذلك لان الفكر بمعناه النفسي الشخصي غير المعبر عنه حر الى حد بعيد . والدعوة الى حرية الفكر انما هي في الواقع دعوة لتحقيق السلوك الحر الموزون المنبثق عن الفكر الحر . وما رفع القيود السياسية أو الاجتماعية عن شخص لم يصل بعد الى درجة معينة من النضج الفكري (بحيث يتلمس ولو بشكل عام نتائج افعاله على نفسه والآخرين في المدى البعيد والقريب بحيث يكون سلوكه موزوناً ورامياً الى تحقيق مصالحه الخاصة ضمن اطار المصلحة العامة) قد يكون عاملاً من عوامل هدم حريته الفردية بدلاً من تحقيقها . إذ ان هذا الفرد يقع عادة فريسة للدعاية أو للسير وفق مصلحة الطبقة أو الانصياع لعواطفه التي ليس لعقله سلطان كبير على ضبطها وتوجيهها .

الفصل الخامس

التربية : مجالها وفلسفتها

تشتمل التربية ، من وجهة نظر ديوي ، على جميع الآثار التي تتركها الطبيعة والمجتمع (بما فيه من تعليم مدرسي وصحافة واذاعة وصلات عائلية وتقاليد اجتماعية وعقائد دينية وسياسية) في الافراد الذين يتعرضون لآثارها فتتجلى في مظاهر سلوكهم وفي تكوينهم الفكري والعاطفي والاجتماعي . أي ان التربية ، بعبارة اخرى ، حسب رأي ديوي ، تأتي من منبعين : المدرسة (ابتدائية أو ثانوية أو عالية) ، والبيئة الاجتماعية وفي مقدمتها البيت بما فيه من نظم وتقاليد ومعتقدات . وفي معرض الموازنة بين اثر البيت واثر المدرسة يميل ديوي الى الاعتقاد بان أثر البيت اعمق بكثير من أثر المدرسة ، وبخاصة في السنوات الخمس الاولى من حياة الانسان . غير ان ديوي ، مع هذا ، يرى ان أثر المدرسة يكون عميقاً فيما يتصل بتكوين المعايير الخلقية والاجتماعية لدى الطلاب وبخاصة في مرحلة التعليم العالي حيث يتعرض الطلاب في العادة الى نوع من التعليم كثيراً ماينتج عنه تغيير كبير في فلسفاتهم الاجتماعية واحكامهم الخلقية المشتقة عنها . ويتوصل ديوي الى القول فيما يتصل بهذه النقطة الى انه اذا جاز لنا القول بان البيت اعمق أثراً من المدرسة في صوغ الاطفال اثناء مراحلهم الدراسية الاولى وبخاصة اذا تذكرنا انشغال المدرسة الابتدائية بصب المعلومات النظرية المجردة في اذهان

الطلاب دون ان تحاول المدرسة بشكل جدي معالجة انماط سلوكهم ومعتقداتهم واساليب تفكيرهم فانه لاينبغى لنا اهمال الاثر العميق الذي يمكن ان يتركه التعليم العالي فى سلوك الطلاب وفي تبديل كثير من معتقداتهم الدينية والسياسية والاجتماعية .

يتضح مما ذكرنا ان ديوي يستعمل كلمة « التربية » لتدل على جميع الآثار التي يخضع لها سلوك الانسان بغض النظر عن المنبع الذي تأتي تلك الآثار منه . أي ان اهتمام ديوي فى التربية (من حيث الآثار التي تظهر في سلوك الانسان) منصب على مجرد حدوث تلك الآثار ، ولا صلة له بنوعها (أو مايصح ان يطلق عليه بالسلوك الحسن أو القبيح) . ولا يكون الفرق بين الناس ، حسب وجهة النظر هذه ، من النواحى الخلقية الفاضلة فقط بل يشمل فى نظره التربية بمظهريها الحسن والسيء . فاننا حين نصم شخصاً بانعدام التربية أو بقلتها (عندما تفر من لسانه مثلاً كلمات بذيئة من وجهة نظرنا لايستطيع احتباسها) نشير في الواقع الى انعدام نوع من التربية لا انعدام التربية اطلاقاً . فكأننا نريد ان نقول ان هذا الشخص ليست لديه التربية التي نرتضيها له . ذلك لان السلوك الذي يدعوه بعض الناس بالقبيح (الذي يتخذ دليلاً على انعدام التربية أو قلتها بنظر بعض الناس) ما هو الا نتاج نوع خاص من التربية ــ قد لايكون كذلك من وجهة نظر صاحبه .

ويتجلى اثر التربية ، مهما كان نوعها وبغض النظر عن منبعها في سلوك الافراد اذا ماتذكرنا ان الطفل يولد ضعيفاً من جميع الوجوه ، ومحتاجاً ، لكي يستمر على الحياة ، الى عناية مستمرة يقوم بها الراشدون من بني جنسه : ويكون هذا المخلوق من الناحية الجسمية ، اكثر ضعفاً من صغار كثير من الحيوانات . هذا الضعف البادي على الانسان من الناحية الجسمية مصحوب بضعف آخر من الناحية الفكرية

والاجتماعية ـ اذ يولد الطفل بلا لغة أو قومية أو دين أو أي معتقد من المعتقدات السياسية . ولا يتضح ضعف الطفل بموازنته بصغار الحيوانات حسب ، وانما هو يتضح كذلك بالنظر له من حيث علاقاته بالراشدين الذين يكونون المجتمع الذي يعيش فيه . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان المجتمع يسعى الى تنشئة اطفاله تنشئة تتفق هي وتقاليده في الحياة ، وهو لا يحاول ان يجعل اطفاله اقوياء في اجسامهم فقط ، بل واقوياء فى ايمانهم بسلامة معتقداتهم فى الدين والسياسة والاخلاق . وعلى هذا الاساس تصبح الوظيفة الرئيسة للتربية (وبخاصة التربية المدرسية) هي اشاعة نوع معين من التربية ـ التربية «الصالحة» . غير ان المجتمعات، نظراً لاختلاف تقاليدها ومثلها في السياسة والاخلاق ، لا تتفق دائماً على تحديد كلمة «الصالحة» التي لا يختلف معناها باختلاف المجتمعات حسب بل وفي المجتمع نفسه في فترات مختلفة من تاريخه . والتربية الصالحة بنظر ديوي هي التي تربي الناشئة على التعاون للمنفعة العامة ، وعلى الثقة المتبادلة ، والاحترام المتقابل ، وعلى حب الخير واحترام الذات البشرية ، والقدرة على التفكير السليم ، والاعتراف بمبدأ الكفاءة والاختصاص فى تدوير شئون الملك .

يقول ديوي انه اذا كانت التربية تشتمل على جميع الآثار (الصالحة والطالحة الآتية من الطبيعة والمجتمع والمدرسة) التي يتكون حسب مقتضاها سلوك الافراد وامزجتهم وانماط تفكيرهم ، فان التربية قديمة قدم الانسان . اما التربية بمعنى التعليم المدرسي فحديثة التكوين نسبياً . والتربية في الحالة الاولى تنتقل من شخص الى آخر ومن جيل الى جيل آخر ومن مجتمع الى مجتمع بوساطة المشاركة السلوكية المباشرة التي يقوم بها الافراد بطريقة متدرجة في الصعود حسب مراحل نموهم المختلفة من حيث اوجه النشاط التي يبديها الراشدون في مختلف مناحي

الحياة . أي ان هذا النوع من التربية لايتم عن طريق التلقين النظري المعروف اللهم الا فيما يتعلق بالنواحي النظرية للعقائد الدينية والمبادىء الخلقية التي يرى المجتمع ضرورة غرسها فى نفوس الناشئة تمهيداً لجعلهم يسيرون فى سلوكهم وفقاً لمستلزماتها . على حين ان اسلوب التلقين هو الشائع فى التعليم المدرسي . أي ان المدرسة مؤسسة اوجدها المجتمع لغرض تلقين الاحداث مخلفات السلف من علوم ومعارف نظرية وبخاصة تلك التي لايتسنى للبيت نقلها الى الاطفال نظراً لاتساعها من جهة ، ولقلة صلتها بالحياة التى يحياها سكان البيت من جهة اخرى ـ وهي تشمل كما ذكرنا جميع المعارف التى تتضمنها مناهج الدراسة فى مختلف مراحل التعليم . وقد اخذت المدرسة منذ تشكيلها تبتعد ، مع مرور الزمن ، عن الحياة اليومية التى يحياها افراد المجتمع بشكل عام والطلاب بشكل خاص ، شاغلة نفسها ، كما سلف ان ذكرنا ، بصب المعلومات النظرية المجردة فى اذهان الطلاب لغرض الاحتفاظ بها لفترة معينة من الزمن ثم استعادتها منهم ايام الامتحان . ومن يلق نظرة مهما كانت سريعة الى مناهج التعليم في أي قطر من الاقطار ، ولاية مرحلة من مراحل التعليم ، فانه يجد نفسه امام مجموعة كبيرة من المعلومات النظرية المجردة المنفصل بعضها عن بعض انفصالاً يكاد يكون تاماً من جهة والتى لاعلاقة قوية بينها وبين الحياة اليومية التى يحياها الطلاب خارج جدران المدرسة من جهة اخرى . فتؤلف جميع المواضيع المدرسية تقريباً كتلاً مرصوفة من التعاريف والاصطلاحات والمفاهيم المجردة التى ينوءباعبائها كاهل الطلاب . يشرح المدرسون للطلاب بعض الدساتير والحقائق المتعلقة بالمعلومات التى سبقت الاشـــارة اليها ويطلبون اليهم استظهارها استظهاراً لفظياً في اغلب الاحيان دون اهتمام كبير بفهم تطبيقاتها أو علاقاتها بالحياة . فطرق التدريس فى العادة تغلب عليها ناحية

التكرار اللفظي الممل . وهي تهدف الى تدريب الطلاب على التذكر دون اهتمام كبير في تعويدهم على التفكير أو الدقة في التعبير بله الانتفاع بمعلوماتهم تلك في حل مشكلاتهم الاجتماعية أو العمل على رفع مستوى الحياة العامة للمجتمع بشكل عام . وينصب اهتمام المدرسين ، في الاعم الاغلب ، حتى في المدارس العالية ، على النقل الحرفي من الكتب لغرض ايصال مافي بطونها من معلومات الى الطلاب . فلا غرو ان اصبح هم الطلاب رجع مايتسلمونه من تلك المعارف النظرية الى المدرسين اثناء الامتحان . وقد لايتردد بعض الطلاب اذا ماخانته ذاكرته أو صرفه عزوفه عن الدرس لجمودها (أو لسبب آخر) ان يلجأ الى الغش في الامتحان . وقد رافق ذلك كله ونتج عنه ان ترفع التعليم عن العمل الجسمي وانصب اهتمامه على الحفظ اللفظي النظري .

يقول ديوي في معرض التعليق على التعليم المدرسي الشائع ان المدارس بشكلها المعروف لاتثقف من يتخرجون منها ان كان المقصود بالثقافة شيئاً اكثر من مجرد حفظ معلومات كثيرة مترابطة أو غير مترابطة ذلك لان الثقافة السليمة بنظره هي التزود بتلك المعلومات لغرض الافادة منها في التغلب على مشكلات الحياة الخاصة والعامة من جهة ، والعمل المستمر على جعل تلك المعلومات تخدم المجتمع ومن ورائه الانسانية جمعاء من جهة اخرى . وان كل علم لايرفع من قيمة الحياة المادية والفكرية لصاحبه وللجنس البشري ، أو لايهذب من خلقه ويرفع من مستويات تفكيره وعواطفه هو عقيم لاطائل تحته ، وربما يكون ضرره اكثر من نفعه . غير انه من المحزن ان يقال عن التعليم الشائع بانه ابعد مايكون عن ذلك منذ نشأته حتى كتابة هذه السطور . ومن مظاهر الضعف الاخرى في التعليم الشائع ، بنظره ، ضعف الروابط الروحية بين الطلاب واساتذتهم من جهة وبين الطلاب انفسهم

من جهة اخرى . وباستطاعة الباحث ان يصف تلك العلاقات بانها في الاعم الاغلب علاقات شكلية متكلفة وميكانيكية ، وهي مبنية في اسسها على مايستطيع الطالب ان يحصل عليه من منفعة ذاتية ، مادية ، في الغالب ، كالدرجات العلمية . هذا الى ان كثيراً من الطلاب يعتبر المدرسة نوعاً من السجن الاختياري لا يبرر بقاءه فيه واستمراره على الخضوع لانظمته الا النجاح في آخر العام . وتعتبر العطل المدرسية نوعاً من الهروب المؤقت من هذا السجن . ومن الادلة على ذلك ان بعض الطلاب يحاول ان يزعج بعض المدرسين ، ويعبث ببناية المدرســــة أو اثاثها ، بمختلف الوسائل . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان الكثيرين من الطلاب يستبشرون بغياب احد مدرسيهم ، بغض النظر عن سبب ذلك الغياب ، ولعل ذلك راجع الى ان ذلك الغياب يخفف جزءاً من العبء الملقى على عواتقهم من الناحية التعليمية النظرية . ومن المظاهر الاخرى في التعليم الشائع انه لايمس اخلاق الناشئة ولا مثلهم العليا وفلسفاتهم الاجتماعية مساً عميقاً لانشغاله ، كما ذكرت ، بالتلقين والحفظ . وهو بوضعه هذا يهيء الطلاب ، تهيئة غير مقصودة ، ليقعوا فريسة للدعاية وتقبل كثير من الآراء والمبادىء تقبلاً عاطفياً ليس للتفكير نصيب كبير فيه . ويتضح خطر هذه الصفة من صفات التعليم المدرسي الشائع في الوقت الحاضر اذا ماتذكرنا اننا نعيش في زمن انتشرت فيه الدعاية انتشاراً كبيراً وتعددت اساليبها . ومما يؤسف له حقاً ، كما يقول ديوي ، ان التعليم الشائع لايحاول القضاء على ماكانت قد غرسته البيئة (وبخاصة البيت) في نفوس الناشئة من تعصب ديني أو مذهبي أو اقليمي كثيراً مايتخذ اساساً ، بطريقة لاشعورية ، للحكم على قيم الاشخاص أو الاشياء أو الاحداث .

يقول ديوي ، من الجهة الثانية ، ان سياسة التعليم تتأثر بالسياسة العامة للبلد

الذي ينشأ فيه . وكل اضطراب أو قلق في الوضع العام للمجتمع يرافقه حتماً تبلبل في سياسة التعليم واهدافه ووسائل تحقيقها . فكأننا ، والحالة هذه ، ندور في حلقة مفرغة لايسهل الخروج منها : يتأثر التعليم بالسياسة العامة التي هو جزء منها وتتأثر السياسة العامة بنوع التعليم الذي انشأته لكي يحافظ على كيانها . ولا تستطيع التربية السليمة اداء مهمتها الا اذا اصبحت سياسة التعليم مستقرة واهدافه واضحة وسليمة وخططه شاملة وعميقة ومرنة ، واذا استقر التعليم (والاستقرار غير الجمود) واتضحت اهدافه وسلمت ، وكانت خططه شاملة وعميقة ومرنة اصبح اداة فعالة في توجيه المجتمع وفي استقراره شريطة ان توجه ذلك كله وتنفذه ايادٍ نظيفة وبارعة تشعر بمسئولياتها الاجتماعية وتحرص على اداء واجباتها ، والجانب التنفيذ أو التطبيق ، فيما يتصل بالخطط والاهداف ، على رأي ديوي ، الارجحية على جانب الصوغ على الرغم من ترابط الجانبين . ذلك لان وضع الخطط السليمة لايؤدي من نفسه حتماً الى تنفيذها . وربما حدث العكس اذا جيء بغير المختصين أو الذين لاترتفع كفاءاتهم الى مستوى المسئوليات المتطلبة منهم . ويكفي للبرهنة على وجاهة ذلك ان نتذكر ان الكثيرين من الناس في كثير من الاقطار في الوقت الحاضر يشكون شكوى مرة لامن سوء الانظمة والقوانين المتعلقة بالتعليم وبغير التعليم بل من تعطيل تطبيقها ومن جموح بعض المشرفين على تنفيذها عن الصراط المستقيم .

يتضح مما ذكرنا ان للتعليم السائد في الوقت الحاضر آثاراً كثيرة ، فكرية وخلقية ، غير مرغوب فيها . اهمها ، كما سبق ان ذكرنا ، انصباب اهتمام كثير من الطلاب ، فيما يتصل بجهودهم المدرسية ، على مجرد ارضاء المدرس للحصول على الدرجات العالية . ولا غرو ان تخرج الكثيرون منهم يعوزهم الاعتزاز بالكرامة

ويفتقرون الى التحلي بالصراحة في الدفاع عن آراء يعتقدون بصحتها . ومن المؤسف حقاً ان تحاول المدرسة ومن ورائها الحكومة بتشكيلاتها المختلفة اذلال المدرسين والطلاب ورميهم بشتى انواع التهم فى حالة تكوينهم لآراء خاصة بهم ودفاعهم عنها بحرارة وايمان ، متجنبة مهمتها في الارشاد والتوجيه في هذا الشأن . يرافق ذلك وينتج عنه ان يصبح كثير من المدرسين والطلاب « مزدوجي الشخصية » كما يقول الباحثون الاجتماعيون ، فيستخذي الشخص امام رئيسه ويستضري امام مرؤوسه .

. . . .

يعتقد ديوي بان امر التفكير في مسألة ربط المدرسة بالمجتمع ، أو تكوين جسر يصل بينهما قد اصبح مشكلة من اعوص مشكلات فلسفة التربية في الوقت الحاضر . فلا غرو ان دعا الى ضرورة جعل الصلة بينهما وشيجة . وبقدر ما يتعلق الامر بالمدرسة نراه يقترح ان ينصب اهتمامها باستمرار على جعل مناهجها واساليب تدريسها وجميع تصرفاتها متجهاً الى ضرورة جعل طلابها يتزودون بالمعرفة العلمية والاجتماعية السليمة لغرض رفع مستوى تفكيرهم وعواطفهم وسلوكهم ومسئولياتهم الاجتماعية خدمة للمصلحة العامة وبما ان تلك المعارف يتعلق شطر منها بتقاليد كل مجتمع ومثله العليا في السياسة والاخلاق ، وبما ان تلك التقاليد والمثل تختلف باختلاف المجتمعات اصبحت التربية ، في بعض وجوهها ، مختلفة ، من حيث اهدافها ووسائلها وموضوعها ، باختلاف المجتمعات كذلك . اي ان الاسس العامة لفلسفة التعليم في كل مجتمع من المجتمعات البشرية مشتقة من الفلسفة العامة للمجتمع الذي ينشأ ذلك التعليم فيه . ولا بد لمن يتصدى للبحث في نوع التربية السائدة

في مجتمع ما الآن يغفل امر البحث في نوع العقائد والتقاليد والمثل العليا في الدين والاخلاق التي تنتظم المجتمع الذي يخضع له ذلك التعليم .

. . . .

غير ان الباحث ، من الجهة الثانية ، يستطيع ان يقول ان تاريخ الفلسفات الاجتماعية للجنس البشري يشير الى ان هناك اتصالاً مستمراً بينها من جهة ، وتأثيراً متبادلاً بينها من جهة اخرى . ومع التبادل الذي اشرنا اليه ، فان الفلسفات الاجتماعية للشعوب القوية في تنظيماتها العسكرية وتشكيلاتها السياسية تصبح في العادة بوضع يساعدها على التغلب على الفلسفات الاجتماعية للشعوب الضعيفة ، هذا اذا حدث اتصال من أي نوع كان من تلك الشعوب ، قويها وضعيفها ، سواء أكان ذلك الاتصال ايجابياً ، كما هي الحال في التجارة والاسفار ام سلبياً ، كما يحدث في الحروب والمنازعات . والفلسفات الاجتماعية كلها تقريباً تتضمن عنصرين رئيسين يستحيل الفصل بينهما من الناحية الواقعية . يتجلى احدهما في نظرة المؤمنين بتلك الفلسفة الاجتماعية الى طبيعة الكون وموقع الانسان فيه من جهة ، والى نوع العلاقة بين الانسان وقوى الطبيعة من جهة ثانية . ويتضح العنصر الآخر في نوع صلة افراد المجتمع ببعضهم وبالهيئة الحاكمة من جهة ، وفي نوع الاحكام التي يصدرها افراد ذلك المجتمع على قيم الحوادث والاشياء والاشخاص من جهة اخرى .

وللفلسفة الاجتماعية بعنصريها على الفرد سلطان قل ان يتمهر ، فآثارها موجودة في تكوينه النفسي والاجتماعي ، في اعماله واقواله ، في تفكيره وعواطفه ، بشكل يستحيل معه في كثير من الاحيان فصلها عنه اللهم الا لغرض الدراسة النظرية التحليلية . ولا غرو ان اصبحت الصلة وشيجة بين الانسان والفلسفة الاجتماعية التي

يدين بها الامر الذي يجعل تلك الفلسفة (في حال عدم استبداله بها فلسفة اخرى، وحتى فى حالة عزوفه عن جميع الفلسفات اذ ان عدم وجود فلسفة معينة للشخص هو فلسفة بحد ذاته) ترافق صاحبها من المهد الى اللحد . غير ان عمق اثر الفلسفة (ومداه) في سلوك الانسان تختلف باختلاف مدى الصلة بينهما . وكلما انقطعت الصلة بين الانسان وفلسفات المجتمعات الاخرى التي تختلف عن مجتمعه كان اثر فلسفة مجتمعه فى سلوكه عميقاً وواسعاً يصعب استئصاله والعكس صحيح كذلك. فلا غرابة ان جاء نقد الفلسفة الاجتماعية (السائدة فى قطر معين) من الاشخاص الذين اتاحت لهم ظروفهم فرصة الاحتكاك بافراد يؤمنون بفلسفات اجتماعية اخرى، أو تسنى لهم الاتصال الفكري عن طريق الدراسة المنظمة أو العارضة ، بتلك الفلسفات . وربما كان سبب ذلك راجعاً الى ان هذه الصلة الفكرية بالفلسفات المختلفة تهيء اصحابها مؤقتاً الى ان ينظروا الى الفلسفة الاجتماعية (التي نشأوا وهم يتعرضون لتأثيرها) بشيء من الموضوعية والتجرد العاطفي فيما يتصل بما هاووا عليها.

تمتاز الفلسفة الديمقراطية من الناحية النظرية كما يحدثنا ديوي بانها قائمة على اساس الاهتمام بالفرد واحترام آرائه وصون حقوقه على القدر المستطاع وعلى الشكل الذي لا يبخس الآخرين حقوقهم . والفلسفة الديمقراطية قائمة كذلك على اساس اعتبار الحكومة وسيلة يستعين بها افراد الشعب فى تنظيم علاقاتهم السياسية والاقتصادية والثقافية ، وان على الشعب وفق الاسس البرلمانية المعروفة الحق فى تغيير الحكومة التي يرغب عنها . في حين ان الجناح الايمن من الفلسفة الجبارية تبنى على اساس ان للحكومة مطلق التصرف بشئون الشعب من الناحيتين الداخلية والخارجية ، وان الشعب فاقد لتأثيره في توجيه سياسة الحكومة فى اسسها وفي تفاصيلها ، وليس له كذلك حق تغيير الحكومة التي لا يرغب فيها أو حق التفكير فى احداث

مثل ذلك التغيير . اما الجناح الايسر من الفلسفة الدكتاتورية فهو وان كان مبنياً في اسسه النظرية على اسس قريبة من الاسس الديمقراطية الا انه فى وضعه الانتقالي الحاضر (كما يبدو فى الاتحاد السوفياتي) لا يسير بهذا الاتجاه بل باتجاه يقرب من الاتجاه النازي ـ الفاشي من حيث سيطرة الحكومة المطلقة على الشعب واخضاعه الى حكم دكتاتوري عنيف يحصي على الناس انفاسهم السياسية والاجتماعية ويحاسبهم وفقاً لذلك . اي ان جناحي الفلسفة الجبارية يشتركان (على الرغم مما بينهما من فروق كثيرة) في السيطرة على الفرد والحد من نشاطه الفكري وتوجيه سلوكه العام توجيهاً خاصاً يجعله متفقاً (أو غير متعارض على الاقل) مع اهداف الحكومة . يضاف الى ذلك ان الفلسفة الجبارية بجناحيها تعتبر ان من حق الحكومة استعمال جميع الوسائل الزجرية الممكنة (كالنفي والسجن والشنق الخ.) للقضاء على من تحدثه نفسه ان تخرج على طاعتها . غير انها ، من الجهة الثانية ، لا تسمح للشعب أو بعضه ان يفعل ذلك . فاستعمال القوة المادية كوسيط لحل النزاع بين الحكومة وخصومها في هذا النوع من المجتمعات ، حسب منطق فلسفاتها ، حق من حقوق الحكومة صيانة للامن ومحافظة على النظام ، اما اذا لجأ الشعب أو بعضه الى ذلك فانه يعرض نفسه لشتى صنوف العقاب . على حين انه لا يجوز ، حسب رأي ديوي ، في الفلسفة الديمقراطية ان تلجأ الحكومة أو الشعب الى استعمال العنف كوسيط لحل المشكلات الاجتماعية فى الحالات الشاذة النادرة التي تتعارض هي وروح الفلسفة الديمقراطية . فاللجوء الى العنف في حل مشكلات المجتمع هو القاعدة في الفلسفات الجبارية . والعكس هو الشائع في الفلسفة الديمقراطية. أي ان فى كليهما سلماً وعنفاً ولكن مع اختلاف الدرجة والمدى .

ويجدر بنا ان ننبه القارىء في هذا الصدد الى اننا لحد الآن كنا نتكلم عن

الفلسفة الديمقراطية والجبارية من الناحية النظرية بشكل عام . اما جوانبهما التطبيقية فتبدو واضحة في كثير من الاقطار فى الوقت الحاضر . غير ان المشاهد يدل ، كما يقول ديوي ، من الجهة الثانية ، على انه لا توجد فى الوقت الحاضر (من حيث سلوك الشعب وتصرفات الحكومة) دولة ديمقراطية مثلى في جميع تصرفاتها ، سواء أكانت تلك التصرفات متعلقة بشعوب (أو حكومة) دول اخرى بشعبها أو حكومتها من جهة ، أو بعلاقة افراد شعبها ببعضهم وبحكومتهم من جهة اخرى . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان فى الدول الديمقراطية كثيراً من الصفات غير الديمقراطية ، وان في الدول الدكتاتورية كثيراً من الصفات غير الدكتاتورية ، والفرق بينهما ينحصر فى مدى تغلب احدى هاتين الصفتين على زميلتها . تتغلب الاولى على الثانية في المجتمع الديمقراطي . وتنعكس الآية فى المجتمع الثاني . وبما ان ديوي يسلم من حيث الاساس بتفضيل المبدأ الديمقراطي لذلك نجده يعتبر نواحى الضعف في المجتمعات الديمقراطية المعاصرة ناتجة عن وجود الصفات غير الديمقراطية فى تصرفات حكوماتها وشعوبها من الناحيتين الداخلية والخارجية . اما نواحي القوة في المجتمعات الجبارية فناتجة، بنظره، عن وجود الصفات غير الدكتاتورية فى تفكير شعوبها وحكوماتها وفي تصرفاتها من الناحيتين الداخلية والخارجية .

. . . .

ذلك من ناحية التفكير العام للمجتمع . اما صلة ذلك بالتربية فيقول ديوي : ان حكومات الدول الديمقراطية والجبارية تتخذ ، مع اختلاف اساس في الاهداف والوسائل ، من التربية ، وبخاصة التعليم المدرسي ، وسيلة لغرس مبادئها العامة في الاجيال المتعاقبة لافراد مجتمع كل منهما . وتسعى حكومات كل منهما سعياً

حثيثاً ، مستعينة بجميع الوسائل الممكنة ، لتثبيت تلك الاسس وجعل الصحافة والاذاعة وغيرها من وسائل النشر والاتصال الفكري ، على القدر المستطاع ، وضمن امكانية كل منها وما تسمح لها به قوانينها المرعية ، متعاونة مع المدرسة في اداء مهمتها على وجهها الاتم . وعلى هذا الاساس يحاول المشرفون على شئون التعليم في حكومات الدول الجبارية تدريب الناشئة على اطاعة زعماء البلد ، في الماضي والحاضر ، وتعويد الناشئة على احترام القادة العسكريين والسياسيين وتقبل آرائهم دون مناقشة أو تردد . ولعل من المناسب ان نشير هنا الى ان هناك فرقاً جوهرياً ، من الناحية النظرية ، بين منزلة الزعيم في النظام الجباري الايمن وبين منزلته في النظام الجباري الايسر . فقد تمتع هتلر في المانيا طوال وجوده في الحكم بقدسية روحية بالاضافة الى قدسيته الزمنية ، واصبح بنظر اتباعه رمزاً للقوة والحق . على حين ان ستالين لم يتمتع طوال حياته الا بقدسية زمنية . ولكن قدسية هتلر ، بعنصريها الزمني والروحي ، مع هذا ، لم تكن اكثر سيطرة على اتباعه من قدسية ستالين ذات العنصر الزمني . ولعل سبب ذلك راجع الى اختلاف في طبيعة كل من الفلسفتين النازية والشيوعية من حيث نفاذ كل منهما الى اذهان اتباعها وعواطفهم وسلوكهم . ويدل المشاهد على ان الشيوعية اكثر نفاذاً الى نفوس كثير من الناس واكثر سيطرة عليهم من النازية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول انه اذا كان المبشرون بالمبدأ النازي بحاجة الى ادخال العنصر الروحي لكسب ولاء الجماهير لزعمائهم فان دعاة المذهب الشيوعي لايحتاجون الى شيء اكثر من مجرد ذكر اسم ماركس مضافاً اليه مبدأ كفاح الطبقات مثلاً لكسب مثل ذلك الولاء ، ولدفع الجماهير زرافات ووحداناً نحو فعل مايريدون منهم ان يفعلوه .

يسعى المهيمنون على شئون التعليم في حكومات الدول الجبارية جهد طاقتهم لكسب ولاء الطلاب ، من الناحية العاطفية ، لتعاليمهم الفلسفية والاجتماعية ، ولا يشجعون التفكير أو النقد عند الطلاب الا بالقدر الذي يجدون انفسهم بحاجة اليه وعلى الشكل الذي يريدونه . ويسود في مدارسهم نوع من النظام الجامد ، لا يختلف كثيراً عن النظام المعروف لدى ضباط الجيش والجنود . فيخضع الطلاب ، نتيجة لذلك ، لسلسلة متصلة الحلقات من الواجبات ولا يتمتعون الا بمقدار ضئيل من الحقوق . هذا الى ان المربين (ومن ورائهم الحكومة بتشكيلاتها المختلفة) ينزعون الى اثارة الشعور بالخوف من عدو خارجي لدى الطلاب وبخاصة فى المراحل الاخيرة من التعليم كي يكسبوا ولاءهم للحكومة من جهة ، ويضمنوا وحدتهم الداخلية من جهة اخرى . ويتخذ المربون ، للغرض نفسه ، من ماضي الامة وحياة رجالها وسيلة فعالة لغرس حب الامة فى نفوس الطلاب والدفاع عن امجادها . وبعبارة اخرى ، يحاول جميع المسئولين فى الدولة ، كل باسلوبه الخاص وضمن نطاق عمله ، جعل الناشئة تؤمن ايماناً قوياً بسلامة مثلها العليا وعقائدها وتقاليدها. فلا غرو ان رأينا جميع الموظفين وبخاصة المشتغلون بالتعليم خاضعين لادارة مركزية عنيفة تتسلسل فيها الالقاب والرتب وتسير فيها الاوامر باستمرار من المركز الى الاطراف . وبالعكس . ويكون الواجب الاساس للمدرسين من حيث صلتهم بالوضع القائم ان يبثوا الولاء لتثبيت ركائز ذلك الوضع . ويقاس مدى نجاح المدرسين فى القيام باعمالهم بمدى استطاعتهم ان يبثوا الولاء للحكومة بين الطلاب ويجعلوهم يسيرون في تصرفاتهم وفق اهدافها . واذا تقاعس احدهم عن ذلك الواجب ، أو اعتقد المسئولون بانه تقاعس تعرض الى صنوف من الاذى تتناسب هي ونوع التقاعس الذي اسند اليه ومداه .

اما التربية في البلاد الديمقراطية فتنحو منحى معاكساً للتربية التي شرحناها . فليست هي مركزية (الاماندر) . وهي مبنية في اسسها النظرية (على كل حال) على مبدأ التعاون المتبادل لا بين الطالب والمدرس حسب بل بين جميع المشتغلين فيها بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية ونوع الوظائف التي يشغلونها . هذا الى انها تهدف الى تربية التفكير والنقد عند الطلاب ، وتسعى الى تعويدهم على التعاون واحترام آراء غيرهم من طلاب واساتذة وما شاكلهم وان اختلفت عن آرائهم . ويتمتع الطلاب ، في النظام الديمقراطي بحقوق لا تقل اهمية وسعة عن الواجبات . ويكون احد اهداف التربية في التعليم الديمقراطي هو ان يعتاد الطلاب على الدفاع عن آرائهم والمحافظة على كرامة كل منهم ، والتمتع بحرية لا تغض من المسئولية الاجتماعية . ولكن دفاعهم عن آرائهم ، مع هذا ، لا يحبذ الا على الشكل الذي يعطيهم مجالاً للتعبير عنها وتوضيحها ، لا ان يجعلهم يستخفون بآراء الآخرين أو يحاولون ان يقضوا عليها . وهم يتشربون كذلك في العادة بفكرة ترك الآراء التي يظهر بطلانها ، أو تصبح صعبة الانسجام مع منطق العلم وروح العصر الذي يعيشون فيه . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان الآراء التي يسمح باعتناقها والدفاع عنها أو التبشير بها يجب ان تكون جارية ضمن اطار النظام الديمقراطي نفسه ومنسجمة مع روح التسامح العلمي واحترام الآراء المختلفة . غير ان المذهب الديمقراطي مع هذا لا يشجع الآراء التي من شأنها ان تستأصل روح التسامح العلمي وتدعو الى وأد الآراء التي تخالفها . اي ان الديمقراطية شأنها كشأن غيرها من النظم الفلسفية ، لا تسمح الآراء التي تناهضها بالظهور والانتشار باساليب غير ديمقراطية كي تحافظ على نفسها وتضمن بقاءها .

. . . .

يؤمن ديوي بان الوظيفة الاساس للتربية في البلاد الديمقراطية ينبغي ان تنصب على استئصال جذور الاندفاع والطيش الفكري عند الناشئة . والاندفاع بنظر ديوي ، هو التسرع في اصدار الاحكام على قيم الاشخاص أو الحوادث أو الآراء من الناحية الفكرية ، أو القيام باعمال اندفاعية مرتجلة تفتقر الى الدقة والتريث من الناحية العملية ، أوهو توافر الجانبين (الفكري والسلوكي) . والاندفاع في الحالة الاولى اقل خطراً على كيان الفرد والمجتمع منه في الحالة الثانية ، ويبلغ خطر الاندفاع نهايته في الحالة الثالثة . ويقول ديوي اذا نظرنا لظاهرة الاندفاع ، من زاوية اخرى ، اصبح بمقدورنا ان نصف تلك الظاهرة بانها محاولة غير ناضجة يبذلها بعض الناس في بعض الاحيان عندما يحاولون حل مشكلة من المشكلات التي يواجهونها بغض النظر عن نوع المشكلة ومقدار صعوبتها ، والاندفاع كما سلف ان ذكرنا ، صفة فكرية وسلوكية تغاير النضج الفكري والاتزان السلوكي تمام المغايرة . ولا يشترط دائماً ان تكون هناك صلة كبيرة بين نضج الشخص في تفكيره وسلوكه وبين مقدار السنين التي يصرفها الشخص في الحياة . اذ ان المشاهد يبرر القول بان كثيراً من الاشخاص الذين تبدو على مظاهرهم امارات النضج يمكن وصفهم بانهم « اطفال » في كثير من تصرفاتهم العامة والخاصة ، من الناحيتين الفكرية والعاطفية . وقد اوجد علماء النفس مقاييس خاصة (لازالت في بداية تكوينها) لقياس نضج الانسان من الناحية الفكرية ومن الناحية العاطفية بالنسبة لسنه من الناحية الزمنية . وبهذه الطريقة يكون للشخص الواحد ثلاثة « اعمار » هي عمره الزمني المعروف ، وعمره العقلي ، وعمره العاطفي . وللعلماء في كيفية حساب ذلك طريقة لانرى لزوماً للدخول في تفاصيلها ، ومن الطريف ان نذكر هنا ان بحوثهم كثيراً ما اثبتت وجود فروق كبيرة بين تلك الاعمار في الشخص

الواحد كأن يكون عمر زيد مثلاً ثلاثين عاماً ، على حين ان عمره العقلي يكون عشرين سنة ، وعمره العاطفي خمس عشرة سنة . اي ان زيداً هذا على الرغم من انه في عداد الاشخاص الذين تبلغ اعمارهم ثلاثين عاماً فانه ، بمستوى تفكيره ونضجه العقلي ، يقع ضمن حضيرة ذوي عشرين السنة من العمر ، ويكون ضمن حضيرة من اعمارهم خمس عشرة سنة في نضجه العاطفي .

ويعزو ديوي ظاهرة الاندفاع الى عوامل شخصية او فردية وعوامل اجتماعية بيئية . وبقدر ما يتعلق الامر بالجانب الفردي يقول ديوي ان هناك عاملين رئيسين تستند اليها ظاهرة الاندفاع هي : ميل ، ربما كان فطرياً في اسسه ، يدفع الانسان الى التسرع في اقواله وافعاله ، ويرافق هذا الميل ميل آخر ، ربما كان فطرياً في اسسه كذلك ، يجعل الانسان يميل الى تصديق ما يسمعه او يقرؤه من الآراء والحوادث اذا لم يظهر له ما يؤيد بطلانها . اما العوامل الاجتماعية او البيئية فتأتي من البيت والمدرسة والمجتمع . وكلما كانت الآراء التي تأتي للمرء من بيئة مندفعة ومتسرعة اصبح مجال تسرعه كبيراً . والعكس صحيح كذلك . والوسيلة الوحيدة التي تساعدنا على معرفة الاشخاص المندفعين هي تأمل سلوكهم ومراقبته وبخاصة عندما يجابهون بعض المصاعب او يتعرضون لبعض الازمات النفسية والاجتماعية .

ويظهر الاندفاع في سلوك الافراد باشكال مختلفة حسب مستوى نضجهم من جهة ، وحسب نوع الموضوع الذي يظهر تسرعهم فيه من جهة اخرى . ويتضح الاندفاع باجلى مظاهره على شكل تعصب عاطفي لا يدع مجالاً للتفكير والمناقشة في تأييد الآراء او رفضها ، او عند محاولة القيام ببعض الاعمال او الامتناع عن القيام باعمال اخرى . وسبب ذلك راجع الى ان الشخص المندفع ، في القول او العمل او فيهما ، لا ينظر الى الموضوع الذي بين يديه نظرة شاملة وموضوعية

وعميقة ، تتصل به من جميع جوانبه ومن حيث علاقاته القريبة والبعيدة بغيره من المواضيع ، بل يركز اهتمامه فى بعض جوانبه بشكل مجسم مكبر . هذا الاندفاع يصيب الامم كما يصيب الافراد . وللاندفاع كثير من الآثار السيئة من الناحيتين الفردية والاجتماعية . ويتوقف مدى خطره على مقدار الافراد الذين يمسهم وعلى مركز الشخص الذي يتصف به . ومن سوء حظ كثير من الامم – ومن عوامل تأخرها كذلك – كما يقول ديوي ، ان يتقلد زمام امورها العامة اناس مندفعون ذلك لان مراكزهم تجعلهم في وضع يستطيعون ان يلعبوا على عواطف الناس من جهة ، ويطوحوا بالمصلحة العامة فى سبيل ارضاء نزواتهم الجامحة من جهة اخرى . وللتخفيف من حدة الاندفاع ينبغي تشجيع العوامل التى تستأصله ، وفى مقدمتها تعويد الناشئة على التفكير السليم (الذي سنشرحه في فصل قابل) .



الفصل السادس

الاشتراكية الديمقراطية (١)

يعتبر جون ديوي من اشهر دعاة الاشتراكية الديمقراطية في الوقت الحاضر .

---

(١) يجمل بنا ان ننبه القارىء الى انه توجد بشكل عام ثلاثة انواع من الاشتراكية هي الاشتراكية الديمقراطية والاشتراكية الطوبائية (وهي موضوع بحثنا في المتن وقد نعتها ماركس واتباعه بالطوبائية أي الخيالية التي لايمكن تحقيقها لانها تستند في تحقيقها من حيث وسائلها الى التشريع والتفاهم وهي امور ، بنظر ماركس ، عقيمة اذ لايمكن تحقيق الاصلاح المنشود الا بالثورة والعنف) ، والاشتراكية الوطنية ، والاشتراكية الماركسية . والاشتراكية الوطنية هي الجانب الاقتصادي للحركة النازية التي اوجدها هتلر واعوانه في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى . اعتمدت تلك الاشتراكية في وضع قواعدها الفكرية على الفاشية (التي اوجدها موسوليني واتباعه في ايطاليا آنذاك) وعلى آراء الفلاسفة الالمان الذين عاشوا في القرنين الماضيين . وبدأت حياتها في حانة الخمر في مدينة ميونيخ عام ١٩٢٠ ، وكتب لها النصر النهائي في الداخل عام ١٩٣٣ الامر الذي قوى الحزب النازي الذي بسط قبضته الحديدية على الفكر السياسي الالماني وادى الى احداث دكتاتورية عسكرية عنيفة تستند الى الصرامة والعنف والاعتقال والسجن والابعاد والاغتيال للقضاء على خصومها . اما الاشتراكية الماركسية (وهي التي يبدو انها الآن مطبقة في الاتحاد السوفياتي) فهي الخطوة الوسطى بين المجتمع الطبقي والمجتمع الشيوعي الذي يدعي حملة المذهب الماركسي بانه مجتمع ينتفي فيه وجود الطبقات والحكومة بما فيها من تشكيلات مختلفة ، وتزول فيه جميع مظاهر الاستغلال التي يقوم بها عدد من الناس على حساب اكثرية السكان . وفي الاشتراكية الماركسية ينتفي وجود الملكية الخاصة وتصبح وسائل الانتاج ملكاً للحكومة ويصبح المبدأ الاقتصادي السائد « من كل حسب قدرته الى كل حسب انتاجه » وتسود فيها ، من الناحية السياسية دكتاتورية طبقة العمال (البروليتاريا) حيث يخضع المجتمع لحكومة مركزية صارمة مثل الحكومة النازية . ويتم الوصول الى هذه الاشتراكية عن طريق « حرب الطبقات » أي الثورة الدموية المسلحة التي يقوم بها العمال ضد الفئة الحاكمة ، كما حدث ذلك في روسيا عام ١٩١٧ .

وتستند هذه الاشتراكية ، من حيث جذورها التاريخية ، الى الافكار الاشتراكية التي انتشرت في اوربا وبخاصة في فرنسا وانكلترا طوال القرنين الماضيين . وقبل ان نتصدى للبحث في اسس الفلسفة الاشتراكية من الناحية التاريخية يجمل بنا ان نشير هنا الى ان المقصود بالاشتراكية ، بشكلها العام ، انها حركة فكرية واجتماعية تنزع الى نشر العدل الاجتماعي من الناحية الاقتصادية بين افراد المجتمع جميعاً كل حسب امكانياته الفكرية وكفاءته العلمية في موضوع تخصصه . والاساس الذي تستند اليه الاشتراكية الديمقراطية من الناحية الاقتصادية هو جعل اهم وسائل الانتاج ملكاً للدولة لضمان عدالة توزيع المنتجات والارباح بين السكان . أي ان الاشتراكية الديمقراطية ، مع كونها تؤمن بمبدأ الملكية الفردية الخاصة وتشجع التشبث الفردي ، الا انها لاتشجع ذلك في مجال الصناعات الكبرى والمشاريع الضخمة تفادياً لما قد ينتج عن ذلك من انتفاء وجود العدالة الاجتماعية في توزيع المنتجات والارباح بين المالكين والمنتجين والمستهلكين ، ويختلف حملة هذا الرأي فيما بينهم كثيراً على المجال الذي ينبغي ان يفسح للدولة في صدد الاستيلاء على وسائل الانتاج الكبرى . غير ان الاشتراكيين الديمقراطيين ، مع هذا ، وان اختلفوا فيما بينهم كثيراً على مدى سيطرة الدوله على وسائل الانتاج ، الا انهم متفقون على ضرورة سيطرة الحكومة (وهي الجهاز التنفيذي للدولة من الناحية السياسية) على قسم من وسائل الانتاج بالطرق القانونية التشريعية . اي ان الاشتراكية الديمقراطية ، بعبارة اخرى ، تستند الى الديمقراطية السياسية (لا على دكتاتورية طبقة العمال كما هي الحال في الاشتراكية الماركسية). والديمقراطية السياسية مبنية بدورها على اسس التشريع البرلماني المعروف .

بدأ ظهور الاشتراكية الديمقراطية بشكل واضح اول مابدأ على مايظن في

القارة الاوربية على اثر مقالة نشرتها المجلة التعاونية التي كان يشرف على اصدارها عدد من اتباع الكاتب الانكليزي روبرت اوين عام ١٨٢٧ ، وفي كتابات الكاتب الفرنسي سانت سايمون في فرنسة في تلك الفترة . واخذت الافكار الاشتراكية بالانتشار مع الزمن فاتضحت خطوطها العامة ، من ناحية الفكرة التي تستند اليها ومن ناحية الوسيلة لتحقيقها ، في النصف الاول من القرن الماضي وبخاصة اثناء قيام ثورتي عام ١٨٣٠ و ١٨٤٨ . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الفكرة الاشتراكية كانت في الفترة التي سبقت القرنين الماضيين في اوربا لم تخرج على وجه العموم عن كونها محاولة مستندة الى الجوانب الدينية المسيحية الرامية الى كسب عطف ذوي اليسار في المجتمع لمساعدة الطبقات المحرومة من ابنائه . أي ان الدعوة الاشتراكية ، بعبارة اخرى ، كانت مبنية على اساس كسب عطف الموسرين لتوزيع الاحسان والصدقات على الفقراء . غير انها دخلت منذ منتصف القرن الماضي مرحلة جديدة من حيث اسسها العامة فبرزت فيها الناحية الاجتماعية ، واصبح دعاتها ينادون بتحقيق العدل الاجتماعي فيما يتصل بمعالجة الفقر حيث اصبحت تلك المشكلة موضوعاً يهم المجتمع بتشكيلاته السياسية والاجتماعية ، لا امراً مقصوراً على الدعوة التي يوجهها بعض رجال الدين والمصلحين الاجتماعيين لكسب ولاء المثرين من الناحية العاطفية لتوزيع الصدقات على المعوزين وقد دخلت الفكرة الاشتراكية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرحلة جديدة من مراحل تطورها ، واصبحت قضية معالجة الفقر وملحقاته ضرورة اجتماعية . وفي تلك المرحلة انتقل مركز الثقل في المطالبة باصلاح الاوضاع الاقتصادية (للطبقات المحرومة) الى تلك الطبقات نفسها باعتبار المطالبة نفسها حقاً من حقوقها المشروعة . وهذا يعني انه قد صار من حق الطبقات المحرومة ان تسعى

بنفسها لتحقيق العدالة الاجتماعية والقضاء على كل مامن شأنه ان يجعل بعض الناس يستغل بعضاً آخر .

يتضح مما تقدم ان الفكرة الاشتراكية بدأت فى أول الامر مستندة الى التعاليم الدينية ، ثم انتقلت الى الميدان السياسي والعمل الاجتماعي المنظم داعية المجتمع الى ضرورة التفكير في امر القضاء على الفقر وملحقاته . ومن ثم انتقلت الفكرة الاشتراكية الى الدعوة الى ضرورة قيام الطبقات المحرومة ذاتها بتحرير نفسها بنفسها من الفقر ومصاحباته وملحقاته . وقد انشطر الاشتراكيون فى تلك المرحلة الى شطرين ، شطر يدعو (وهم الاشتراكيون الديمقراطيون الذين نحن بصدد البحث فى فلسفتهم) الى الاستعانة بالتشريع والطرق البرلمانية لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس . على حين ان كارل ماركس واتباعه نادوا بوجوب تكتل الطبقة المحرومة وتكاتفها لتحرير نفسها بطريق الثورة وقلب نظام الحكم للاستيلاء على مقاليده والتصرف بتوزيع الثروة على اسس جديدة .

تستند الاشتراكية الديمقراطية على اسس كثيرة اهمها (من الناحيتين الاقتصادية والسياسية) اعتبارها للمؤسسات الاجتماعية والسياسية، بما فيها الحكومة، وسائل لخدمة ابناء الشعب جميعاً عن طريق فسح مجال العمل والعيش والثقافة لكل منهم على الشكل الذي يتفق هو وامكانياته الفكرية (التي تكشف عنها التربية التي تصبح ملكاً مشاعاً لجميع الافراد) . والاشتراكية تدعو كذلك ، خدمة للمصلحة العامة ، الى جعل المناصب الحكومية على اختلاف درجاتها وانواعها مقصورة على ذوي الكفاءة والاختصاص والخلق الاجتماعي السليم . وتعتبر التربية الصحيحة (واولى مستلزماتها تنمية التفكير الحر وتربية المسئولية الاجتماعية) الوسيلة الوحيدة التي باستطاعتها احداث اصلاح جذري شامل فى كيان المجتمع

وصلات افراده ، وعن طريقها كذلك يتجه سلوك الافراد وانماط تفكيرهم واساليب اتصالهم الفكري والعاطفي اتجاهاً سليماً يعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع وعلى الانسانية . والتربية السليمة ايضاً تعود الناس على التعاون في سبيل المصلحة العامة وعلى الاتصاف بالثقة المتبادلة واحترام الآراء ومناقشتها مناقشة علمية وهي امور من اهم مستلزمات الثقافة الديمقراطية . والاشتراكية ، كما سلف ان ذكرنا ، تعتمد في تحقيق اهدافها على الديمقراطية السياسية التي تجعل للشعب ، من الوجهة النظرية والعملية ، اهمية كبيرة تتصل بتوجيه سلوك الحكومة ، وتجعل له كذلك حق التخلص من الحكومة التي يرغب عنها شريطة ان يسند فكرة ذلك التخلص دفاع عن المصلحة العامة وشريطة ان يتم ذلك التخلص بالطرق البرلمانية المعروفة : اما عن طريق التصويت ضد الحكومة القائمة ونزع الثقة عنها في البرلمان الذي يجتمع فيه ممثلو الامة ، أو بوساطة سير الشعب ضمن تشكيلاته السياسية والحزبية سيراً يؤدي الى تغيير تلك الحكومة عندما يحين موعد الانتخاب الجديد .

يتضح مما ذكرنا ان الاشتراكية (التي بحثناها) هي الجانب الاقتصادي للديمقراطية البرلمانية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول انه (على الرغم من ان الجانبين السياسي والاقتصادي متلازمان كل التلازم ، يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به) لابد ، لكي يتحقق الجانب الاقتصادي ، من ان يتوافر الجانب السياسي . اي ان الديمقراطية السياسية ، بعبارة اخرى ، لابد من ان تسبق الديمقراطية الاقتصادية فتمهد لظهورها السبيل . والديمقراطية السياسية بدورها ذات جانبين متلازمين كذلك هما جانب الشعب وجانب الحكومة ، فالحكومة الديمقراطية شرط اساس لتكوين شعب ديمقراطي . والعكس صحيح كذلك . فكأننا هنا ندور في حلقة مفرغة لاسبيل الى الخلاص منها . غير انه يمكن ان يقال ، من

الناحية التاريخية ، ان الحكومة الديمقراطية تسبق فى الوجود الشعب الديمقراطي . وإن الشعب بدوره كلما قرب من الديمقراطية في تفكيره وسلوكه كان اكثر قدرة على تقريب حكومته من السير وفق المبادىء الديمقراطية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الديمقراطية السياسية من الناحية النظرية اسبق في الوجود من الديمقراطية التطبيقية ، ويصدق الشيء نفسه على الديمقراطية الاشتراكية او الاشتراكية الديمقراطية . ولعل تاريخ انكلترا (وهي اعرق الامم في النظم الديمقراطية البرلمانية) يوضح ماذهبنا اليه توضيحاً مقبولا . فقد بدأت الفكرة الديمقراطية سياسياً ، من الناحية النظرية ، فى ذلك القطر قبل القرن السابع عشر ، ولم تطبق بعض جوانبها وبخاصة مايتصل منها بضرورة جعل الشعب يساهم فى انتخاب حكامه بشكل مباشر وحر (نسبياً) الا فى القرن التاسع عشر . وعملت الحكومات المنتخبة (من بين اعضاء مجلس العموم الذي ينتخبه الشعب بطريقة حرة ومباشرة منذ اواخر القرن الماضي وطوال ماانصرم من القرن الحاضر) بدورها على جعل الشعب اكثر ديمقراطية ، كما رفعت مستواه الثقافي والاجتماعي بوساطة مااحدثته من تشريعات ثم ان تركز الديمقراطية السياسية قد ادى منذ مطلع القرن الحاضر الى انتشار الفكرة الاشتراكية من الناحية النظرية ، والى تطبيقها في منهج وزارة العمال الثالثة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ ، ولو بشكل غير كامل كما هو معروف .

واذا نظرنا لموضوع الديمقراطية السياسية بشكل عام من الناحية التاريخية امكننا ان نقول انها بدأت بشكلها العملي في المدن اليونانية القديمة قبل زهاء خمسة وعشرين قرناً . وكانت تعني آنذاك اجتماع من تتوافر فيهم شروط معينة من ابناء الشعب في محل خاص ووقت معين ، كلما دعت الضرورة الى ذلك واشتراكهم

جميعاً فى التعبير عن آرائهم وفي التداول بشئونهم العامة وتبادل وجهات النظر في ذلك للتوصل الى حلول يرونها معقولة وصالحة لمعالجة مشكلاتهم المادية والفكرية . وكان رأي كل فرد من المجتمعين يعتبر مساوياً فى الاهمية لرأي اي فرد آخر . ويتم قبول الآراء في حالة اختلاف وجهات النظر ، على اساس آراء اكثرية الحاضرين عن طريق التصويت المباشر بطريقة مكشوفة . ونظراً لتعقد الحياة الاجتماعية فى اوربا بعد عهد اليونان ، وزيادة عدد السكان ، وتكوين الدول على اساس الاقاليم لا اساس المدن ، فقد استحال اجتماع جميع افراد الشعب (ممن تتوافر فيهم الشروط الخاصة) في مكان واحد وزمان واحد كذلك . وعلى هذا الاساس فقد استحدث نظام التمثيل البرلماني المبني على اسس الانتخابات الحرة المباشرة حيث يسمح لكل فرد تتوافر فيه شروط خاصة باختيار من يراه صالحاً لتمثيله فى البرلمان بطريقة الاقتراع السري ضماناً لحرية الانتخابات وتفادياً لما قد يحصل من الضغط على حرية الناخبين . والغرض من السماح للشعب بانتخاب نوابه هو جعل اولئك النواب مسئولين امام الشعب مباشرة ، وجعل الحكومة (الوزارة) مسئولة امام النواب مباشرة وامام الشعب بصورة غير مباشرة .

. . . .

تدعو الاشتراكية من الناحية الايجابية ، الى ضرورة تمتع جميع افراد الشعب بحقوقهم كاملة من جميع نواحيها وذلك عن طريق القضاء على امتيازات بعض الافراد من جهة وفسح مجال التعليم والتمتع بخيرات البلد والمساهمة بادارته من جهة اخرى . . ولا تميل الاشتراكية (الديمقراطية) كما ذكرنا الى استعمال العنف فى حل مشكلات المجتمع من الناحيتين الداخلية والخارجية . ونقطة البداية فى العمل الاشتراكي ، كما سلف ان ذكرنا . . هي القيام باصلاح المؤسسات الحكومية .

وفي مقدمتها البرلمان (الديمقراطية السياسية) . وجعلها بشكل يضمن توزيع العدالة الاجتماعية بين الناس . والاشتراكية الديمقراطية تختلف عن الاشتراكية الماركسية في تشجيعها للتشبث الفردي شريطة ان لا يتعارض هو والمصلحة العامة ، ولا تقف دونه الا اذا اتخذ منه اصحابه وسيلة لاستغلال غيرهم والانتفاع بجهودهم . ولكن الاشتراكية الديمقراطية من الجهة الثانية لا تقف ضد الطبقات ذات المصالح الخاصة بل ضد المصالح الخاصة نفسها .

يتضح مما ذكرنا ان الاشتراكية الديمقراطية تسعى لبلوغ اهدافها عن طريق تغيير المؤسسات السياسية بشكل تدريجي بادءة بالاهم فالمهم ، غير تاركة في المدى البعيد مؤسسة سياسية دون ان تعرضها لتبديل جوهري يجعلها اكثر انسجاماً مع المصلحة العامة . ذلك لان دعاة الاشتراكية (في الوقت الحاضر على كل حال) يعتقدون بان تغيير تلك المؤسسات هو الوسيلة الوحيدة لضمان تغيير تفكير الافراد الذين يقعون تحت تأثيرها . اي ان الاشتراكية الديمقراطية (بعبارة اخرى) تسير وفق خطة متدرجة في الارتفاع (كالسلم) تستند كل خطوة منها على ماقبلها وتؤدي الى ما بعدها ، ويتضح في كل خطوة مقدار من النفع العام اكثر شمولا من ذي قبل . وينشطر العمل الذي تقوم به الى شطرين : شطر تقوم به الحكومة وفقاً لامكانياتها المادية والفكرية ، وشطر تقوم به المنظمات الاجتماعية والهيئات الخاصة . ويتعاون الجانبان في كثير من المجالات الاجتماعية كالتعليم والصحة وما شاكلها .

يلوح للباحث ، في ضوء ما ذكرنا ، ان الاشتراكية الديمقراطية تأخذ المجتمع كما هو في فترة من فترات تاريخه ، وتحاول تحليل مؤسساته تحليلاً دقيقاً ونزيهاً لمعرفة مواطن القوة والضعف في كل منها لغرض العمل بطريقة تشريعية على تقوية...

نواحي القوة وتوسيع مجالها من جهة وتقليص نواحي الضعف والسير بها نحو التلاشي من جهة اخرى . وغرضها من ذلك هو تطبيق مبدأ العدل الاجتماعي في جميع مرافق الحياة . اي انها تسير بصورة متدرجة ومستمرة نحو توسيع دائرة اشراك افراد المجتمع بخيراته وامكانياته المادية والفكرية ، وفي تحملهم المسئوليات الفردية والاجتماعية كل حسب اختصاصه وكفاءته وشعوره بالمسئولية .

تعتبر الاشتراكية الديمقراطية الفقر[1] في الوقت الحاضر ظاهرة اجتماعية ناتجة عن سوء توزيع الثروة بين السكان . ويقول دعاتها انه اذا جاز للانسان ان يعتبر الفقر فى الماضي ناتجاً ، في الاعم الاغلب ، عن وجود عوامل طبيعية (تؤثر فى الانتاج الزراعي والصناعي من حيث نوعه ومقداره) لا سيطرة قوية للانسان عليها فان الانتاج الحديث في الصناعة والزراعة ـ ذلك الانتاج الكبير الذي حصل نتيجة تقدم العلم وتطبيقه في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة يجعلنا ان نعتبر الفقر ناتجاً في جوهره عن القوانين والانظمة الاجتماعية المرعيـــة غير العادلة التي يخضع لها توزيع الثروة والبضائع والخدمات بين الناس . فلا غرو ان رأينا الاشتراكيين الديمقراطيين ينادون بضرورة تعديل تلك القوانين وجعلها بشكل يخدم المصلحة العامة . غير انهم من الجهة الثانية يدركون الصعوبات التي

---

(١) الفقر والغنى امران نسبيان يختلفان باختلاف المجتمعات ، وباختلاف المجتمع نفسه في فترات من تاريخه . فكثير من فقراء الوقت الحاضر يمكن اعتبارهم اغنياء بمقاييس المجتمع الغابر . وبعض فقراء الولايات المتحدة فى الوقت الحاضر يجوز اعتبارهم اغنياء بالنسبة لكثير من سكان الهند والعراق . ولكن المتتبع لتطور المجتمعات البشرية يستطيع ان يقول مع هذا ان الفجوة بين الفقر والغنى في الوقت الحاضر اكبر منها في الماضي وذلك لكثرة الانتاج وتركيز الثروات الكبرى فى اياد قليلة نسبياً من جهة وكثرة الحاجات وتعدد وجوه الصرف من جهة اخرى .

تقف في طريقهم والعقبات التي يضعها خصومهم للحيلولة بينهم وبين تحقيق ماتصبو نفوسهم اليه .

تقسم القوى التي تحاول الحيلولة بين الاشتراكيين وبين تطبيقهم مناهجهم الى قسمين : الفئة الحاكمة المؤلفة من الاحزاب اليمينية والهيئات الرجعية واصحاب المصالح المركزة والانتهازيين من جهة ، والاحزاب اليسارية والفوضويين والهيئات المتطرفة من جهة ثانية . تحاول الفئة الاولى ابقاء المجتمع على ما هو عليه تطميناً لمصالحها ، وتسعى الثانية جاهدة الى بث القلق والفوضى والتذمر بين الناس تمهيداً لزعزعة النظام السائد وتأليب الناس عليه للقيام بثورة دموية مسلحة (ان امكن) على الحكومة القائمة لغرض اسقاطها واستلاب الحكم منها . وكلما كان المجتمع الذي يحاول الاشتراكيون رفع مستواه الفكري والمادي متخلفاً عن ركب الحضارة فى مكان وزمان معينين اصبحت مهمتهم شاقة . وتزداد صعوبة تلك المهمة فى المجتمعات التي تتظاهر الفئة الحاكمة فيها باتباع المبادىء الديمقراطية (من حيث شكلها في الظاهر فقط) اذ ان الديمقراطية المزيفة وسيلة يستعين بها اصحاب المصالح المركزة والرجعيون للاحتفاظ بالمجتمع واقفاً في المكان الذي هو فيه بوساطة وضع المؤسسات السياسية وفي مقدمتها البرلمان (فى حالة وجوده) - من حيث اسلوب انتخابه وطريقة معالجته للقضايا العامة - بشكل يجعلها تتصرف تصرفاً يمسخ جوهر الديمقراطية فتسير وفق تشريع مصلحي مستمد من اكثرية مصطنعة في البرلمان تؤيدها . ولعل هذه الظاهرة تفسر لنا شدة التزام دعاة الاشتراكية بضرورة البدأ بتغيير المؤسسات الاجتماعية - وفي مقدمتها البرلمان - لانهم يؤمنون بان اصلاح البرلمان هو حجر الزاوية في جميع الاصلاحات الاخرى .

وتتضمن وجاهة البدء باصلاح البرلمان اذا تذكرنا ان انكلترا (وهي اعرق

الامم فى التقاليد البرلمانية) لم يستطع قادة الفكر السياسي فيها ان يغيروا نظام عيشها ومرافق سياستها جميعاً الا عن طريق اصلاح الحياة البرلمانية فيها بسلسلة من الاجراءات . وقد مر اسلوب الاصلاح البرلمانى فى انكلترا بمرحلتين : حددت فى المرحلة الاولى منهما سلطات الملك وزادت حريات البرلمان . على حين ان الاصلاح فى المرحلة الثانية كان منصباً على احداث تغييرات اساس في البرلمان نفسه . وقد جرى ذلك كله ضمن النظام الملكي وفي حدود امكانيات البلد فى كل مرحلة من مراحل تاريخه . ولعل ذلك هو السبب الرئيس في استمرار التاج البريطاني والعرش وتقويتهما والتفاف الشعب حولهما . وربما كان انعدام الاصلاح البرلماني هوالعامل الاساس الذي طوح بكثير من التيجان واصحابها فى كثير من الاقطار . ويستطيع المرء ان يتصور عمق الاصلاحات البرلمانية فى انكلترا ومداها اذا تذكر ان البرلمان البريطاني بدء كهيئة استشارية (مكونة من رجال الدين والفرسان والاقطاعيين) ينتخبها الملك (ويعزلها) متى شاء ولاي سبب يراه وجيهاً . وقد استمرت الحال على هذا المنوال حتى اوائل القرن الرابع عشر حيث استطاع رجال الدين والنبلاء (تحت اشراف الملك وحاشيته) ان يوجدوا مجلساً خاصاً بهم سمي « مجلس اللوردات » . كما استطاع الفرسان والاقطاعيون ان يوجدوا (بالتعاون مع المسئولين) « مجلس العموم » . وقد تعرض ، كما سنرى ، كل من المجلسين الى سلسلة من التغيرات ولازالا كذلك حتى كتابة هذه السطور .

ومما يساعد على معرفة الآثار التي تركها البرلمان البريطاني بشكله الحاضر فى حياة المجتمع ونظام عيشه وصلات افراده ببعضهم وبالحكومة اذا تذكرنا الدور الذي لعبه التشريع البرلماني فى القضاء على التعصب (بشتى صوره وبخاصة الدينى والطائفي منه) الذي كان منتشراً آنذاك فيما يتصل بالتوظيف والتعليم وممارسة

الحريات العامة . فقد كانت الوظائف الكبرى فى الدولة مثلاً (مدنية وعسكرية ودبلوماسية) مقصورة على الطبقة الارستقراطية المكونة من كبار الاقطاعيين وارباب المال والجاه والنفوذ (واغلبهم من اتباع الكنيسة الانكليكانية ـ المذهب الرسمي للحكومة) . وكان متوقعاً ، والحال هذه ، ان لا يسمح لابناء الطوائف الاخرى (البروتستنت والكاثوليك) الا باشغال المناصب الحكومية المتواضعة . وقد بلغ التعصب الطائفي ضد الكاثوليك درجة صعب عليهم معها التمتع بممارسة شعائرهم الدينية بشكل مكشوف .

وكانت ابواب التعليم (وبخاصة العالي) موصدة باوجه اولادهم . فامتنعت المدارس الخاصة مثلا (ايتون وهارو ووينجستر) من قبول الاطفال الكاثوليك في عداد طلابها . ولم تفتح جامعتا كمبرج واوكسفورد ابوابها امام الطوائف المختلفة الا فى عام ١٨٥٤ ضمن شروط خاصة منها الا يتمتعوا بالوظائف التي تؤهلهم شهاداتهم المدرسية لاشغالها ، ومنها الا يسمح لهم بنيل شهادة الـ M A والدكتورا ، ومنها الا يدخلوا كلية اللاهوت (التي يقتصر التدريس فيها على الفقه الانكليكاني) . وقد استمرت الارستقراطية البريطانية (المبنية على اساس التفريق المذهبي بين ابناء الامة الواحدة) مستولية على الوظائف الكبرى في الادارة والقضاء والجيش والبرلمان والكنيسة والسلك الدبلوماسي . وقد بلغ التمييز الطائفي (وبخاصة ضد الكاثوليك) حداً جعل المتطرفين من انصار مذهب الحكومة ان يهيئوا فى القرن السابع عشر لائحة تقضي باقصاء الامير جيمز عن ولاية العهد لميوله الكاثوليكية الامر الذي ادى الى انقسام الارستقراطية على نفسها الى قسمين : قسم يؤيد العزل (حزب الهويك الذي عرف بعد منتصف القرن الماضي بحزب

الاحرار) ، وقسم لايؤيده (حزب التوري الذي عرف منـــذ عام ١٨٣٢ بحزب المحافظين) .

يتألف حزب الهويك ، بصورة عامة ، من كبار رجال المال واصحاب المعامل وقد بدأ نفوذهم بالظهور نتيجة للثورة الصناعية ، ومعظمهم من غير المنتمين الى المذهب الرسمي للحكومة . على حين ان اعضاء الحزب الآخر (وغالبيتهم من كبار الاقطاعيين) ومن اتباع الـكنيسة الانكليكانية . ولـكن قادة الحزبين مع هذا قد ارتبطا بروابط الزواج والمصاهرة والمصالح المتبادلة . وقد اخـــذ الحزبان يتناوبان الحكم الى ان ظهر حزب العمال سنة ١٩٠٠ (واعضاؤه خليط) . وكان الخلاف بين المحافظين والاحرار متعلقاً بتفاصيل الحـكم لا بأسسه العامة . ولم يختلف الحزبان فى الواقع اختلافاً كبيراً الا حيث اصطدمت مصالحهما بشكل لم يكن معه سهلا عليهما ان يتغلبا عليه . ولم يحدث ذلك الا فى حالات لايتجاوز مقدارها عدد اصابع اليد الواحدة . واشهر تلك الحالات اختلاف الحزبين فيما يتصل بموقف الحـكومة من التشريعات الزراعية والتجارية في اوائل القرن الماضي حيث تقلص ميل السكان الى الزراعة على اثر ازدهار الحياة الصناعية فى البلاد . فدعا حزب التوري (ومعظم اعضائه من كبار المزارعين) الى ضرورة قيام الحـكومة بفرض عوائد كمركية كبيرة على ماتستورده البلاد من مواد ولوازم ومنتجات زراعية ، وان تسن القوانين اللازمة لضمان وضع اسعار عالية للمنتجات الزراعية المحلية . وكان غرضهم من ذلك عدم تشجيع الدول الاخرى على تصدير منتجاتها الزراعية الى انكلترا وبذا يتسنى للاسواق الداخلية ان تتداول تجارياً ، من الناحية الزراعية ، بالمنتجات الزراعية المحلية ذات الـكميات القليلة بالنسبة لسد الحاجة الامر الذي يجعل الطلب عليها كبيراً فترتفع اسعارها فتزيد ارباح المزارعين . هـذا من .

جهة ومن جهة ثانية فان وضع الدول الاخرى عوائد كمركية كبيرة على ماتستورده تلك الدول من البضائع الانكليزية (ومعظمها كان زراعياً لان انكلترا كانت تجنح نحو الصناعة) ـ وذلك عملا بمقابلة انكلترا بالمثل في هذا الصدد ـ الامر الذي لايشجع سكان تلك الدول على اقتناء البضائع البريطانية لارتفاع اسعارها مما يجعل المعامل البريطانية غير قادرة على تصدير منتجاتها الى الخارج وبذا يكثر عرضها في الاسواق الداخلية لغرض الاستهلاك المحلي فتنخفض اسعارها ويتسنى بذلك للفلاحين اقتناءها فلا يحاولون ترك مزارعهم والانخراط فى سلك العمال ، اما العمال فنظراً لحاجتهم الى المنتجات الزراعية المرتفعة الاسعار يحاولون المطالبة برفع اجورهم فيربكون الصناعة من جهة وربما يفكر بعضهم بالعودة الى الريف من جهة ثانية . على حين ان حزب الهويك (ومعظم اعضائه من اصحاب الشركات) قد سار فى سياسة مناهضة للسياسة التي ذكرناها .

واخذ الحزبان يتناوبان الحكم بصورة تكاد تكون متساوية الى ان ظهرت زعامة شعبية عام ١٩٠٠ سميت بعد ذلك بحزب العمال . ومن الطريف ان نذكر هنا ان حزب العمال بدأ عمله السياسي على شكل جناح منشق من حزب الاحرار (الذي كان يعرف بحرب الهويك قبل القرن الماضي) وقد اصبح هـــذا الحزب (بعد ان تركزت اصوله العملية والنظرية) بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى الحزب الرسمي المعارض في مجلس العموم . واخذ منذ ذلك الحين يحل محل حرب الاحرار الذي انبثق عنه . فتولى الوزارة البريطانية اربع مرات : مرتين فى الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية (مرة فى عام ١٩٢٣ واخرى في عام ١٩٢٩) ومرتين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ . ولم يتبن الحزب المذهب الاشتراكي من الناحية النظرية الا بعد الحرب العالمية الاولى . غير انه لم يطبق النظرية الاشتراكية

في سياسته الا حين تولى الحكم للمرة الثالثة عام ١٩٤٥ : ويعود السبب الرئيس في ذلك الى قوة جذور المذهب الرأسمالي في انكلترا وانتشار الروح الارستقراطية بين الفئة الحاكمة من حزبي الاحرار والمحافظين على السواء . يضاف الى ذلك ان حزب العمال في وزارته الاولى والثانية (تحت رئاسة رمزي مكدونالد) كان معتمداً جد الاعتماد على مؤازرة حزب الاحرار في مجلس العموم ذلك لان عدد مقاعد حزب العمال فى مجلس العموم كان في سنة ١٩٢٣ (١٩١) مقعداً وللاحرار ١٥٨ مقعداً على حين ان مقاعد المحافظين كانت ٢٦٠ . اما في عام ١٩٢٩ فكانت مقاعد العمال ٢٩٠ والاحرار ٥٨ والمحافظين ٢٦٠ . واذا علمنا ان الاحرار كالمحافظين من حيث مقتهم للمبادىء الاشتراكية التي تتصادم هي ومصالحهم المركزة هذا من جهة ومن جهة ثانية فان اخفاق وزارة العمال الثانية في معالجة الازمة الاقتصادية التي مرت بها انكلترا ومعظم اقطار العالم بين عامي ٩٢٩ـ٩٣٠ قد ادى الى زعزعة مركز الوزارة وتصدع الحزب نفسه . فسقطت الوزارة وانشق زعماء الحزب على انفسهم فاستقال رئيس الحزب رمزي مكدونالد وبعض البارزين في الحزب . غير ان ذلك لم يقض على الحزب بل جعله يجمع شمله من جديد تحت زعامة كلمنت آتلي . اما في عام ١٩٤٥ فقد كانت مقاعد حزب العمال ٣٩٣ والمحافظين ١٨٩ ولم يحرز الاحرار اي مقعد بل وزعت الـ ٥٨ مقعداً الباقية بين المستقلين والكتل السياسية الاخرى . لذلك نجد وزارة العمال تتبنى المذهب الاشتراكي بشكل واضح وتسعى الى تطبيقه في سياستها العامة . فاممت كثيراً من الصناعات الثقيلة ومرافق الدولة الهامة مثل بنك انكلترا وطرق المواصلات البرية والنهرية والجوية الداخلية ومناجم الفحم والبرق والتلفون الخارجي . غير انها لم تستمر على تطبيق منهاجها لتصدع حصل بين صفوف اعضاء الحزب لاسباب بعضها داخلي وبعضها خارجي .

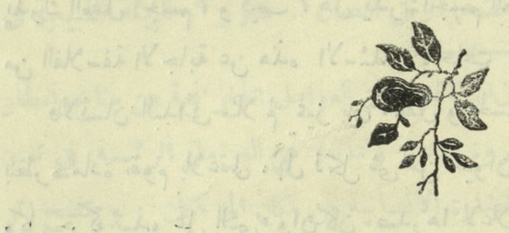
فمن الداخل لم يعد مستطاعاً ان تحتمل الفئة الحاكمة القديمة واصحاب المصالح المركزة وكبار رجال الصناعة والمال سريان عملية التأميم فقاوموها • ومن الخارج فقد هددت الولايات المتحدة (الدولة الكبيرة التي تسير اقتصادياتها على اسس رأسمالية) قطع مساعداتها عن انكلترا اذا استمرت على السير في الطريق الاشتراكي • وكانت من نتائج ذلك ان اكثرية الحزب والجانب المعتدل منه اكتفى (نظراً لحاجة انكلترا الى المساعدات الامريكية) بما حققه من تطبيق المبادىء الاشتراكية كخطوة اولى ، واتبع سياسة معتدلة فى الداخل والخارج انتظاراً لظروف اخرى اكثر ملاءمة للسير فى تطبيق منهجه الاشتراكي • على حين ان الجانب المتطرف من الحزب تحت زعامة بيفان اعتبر ذلك جبناً من الحزب وتنصلا عن السير في منهجه الاصلاحي فانشق على الحزب وما زال كذلك •

ومما تجدر الاشارة اليه ان جناحي الفئة الحاكمة البريطانية قبل ظهور حزب العمال لم يختلفا في الواقع الا حيث اصطدمت مصالحهما بشكل لم يكن سهلا عليهما ان يتغلبا عليه • ولم يحدث ذلك التعارض طوال ثلاثة القرون الماضية الا في حالات لا يتجاوز مقدارها اصابع اليد الواحدة . ولم تتزعزع مصالح الفئة الحاكمة في انكلترا من الناحية النظرية الفكرية الا بعد ان هاجمها الكاتب المعروف جرمي بنثام وانصاره وطلابه فى الثلث الاول من القرن الماضي . فقد عزا بنثام عوامل الفساد في المجتمع البريطاني آنذاك الى الفئة الحاكمة المؤلفة على حد تعبيره من ستمائة عائلة مرتبطة بروابط القربى والمصاهرة التي كانت تنعم على حساب الاكثرية الساحقة من افراد الشعب . وقد ساهمت الصحف البريطانية وبخاصة الجرائد اليومية

اللندنية فى ذلك الامر الذي ادى فى المدى البعيد الى تثبيت الحياة الحزبية والبرلمانية في انكلترا (١).

---

(١) لقد لعبت تلك الصحف ذلك الدور بغض النظر عن ميولها الحزبية وفلسفتها السياسية . وكان في مقدمتها التايمس التي ظهرت للوجود سنه ١٧٨٥ وهي جريدة مستقلة اقرب في ميولها السياسية الى المحافظين منها الى غيرهم ويقدر عدد ما يطبع منها في الوقت الحاضر بـ ٢٠٠ الف نسخة . والديلي تلغراف التي ظهرت عام ١٨٥٥ وهي كالتايمس من حيث ميولها السياسية العامة وبخاصة بعد اندماجها فى عام ١٩٣٧ مع المورننك بوست التي ظهرت عام ١٧٧٢ ، ويقدر عدد نسخها الآن بمليون نسخة يومياً . والديلي ميل التي ظهرت عام ١٨٩٦ وهي كالتايمس في ميولها السياسية ويقدر عدد نسخها اليومية في الوقت الحاضر بمليونى نسخة . والديلي اكسبريس التي ظهرت عام ١٩٠٠ . وهي مستقلة ويقدر عدد مايطبع منها يومياً في الوقت الحاضر باربعة ملايين نسخة . ونيوز كرونكل المستقلة ويطبع منها مليون واربعمائة الف نسخة . والديلي هرالد لسان حال حزب العمال وتطبع حوالي مليون نسخة في الوقت الحاضر .



الفصل السابع

العقل : محتوياته ووظائفه (١)

لا يخرج الانسان ، كما يراه جون ديوي ، عن كونه جسماً مادياً له تركيبه المعقد واعضاؤه المتعددة ووظائفه التي لا تقع تحت حصر . فهذه يد وتلك عين وذاك انف وذلك جهاز للتنفس وتلك جملة عصبية الخ . لكل منها اجزاء واجزاء اجزاء ، ولها ولاجزائها واجزاء اجزائها وظائف معروفة لدى المختصين بعلمي

(١) يؤلف موضوع العقل اعوص بحث تعرضت له الفلسفة منذ نشوئها حتى اليوم . لقد غصت رفوف بالمجلدات الباحثة في جوهر العقل ومجال عمله ، وانقسم المفكرون الى مدارس مختلفة يصعب حصرها . ماالعقل ؟ وما مجال عمله ؟ أعقل الانسان جزء من جسمه ؟ ام انه شيء آخر يختلف عن الجسم في تركيبه ووظائفه ؟ هل يؤثر العقل فى الجسم ؟ وكيف ؟ هل يؤثر الجسم في العقل ؟ وكيف ؟ هل يدرك العقل الجسم ؟ وكيف ؟ هل يدرك الجسم العقل ؟ وكيف ؟ لقد حاول كثير من الفلاسفة الاجابة عن هذه الاسئلة ، وجاءت اجوبتهم مختلفة ومتباينة .

فالانسان البدائى مثلا لم يميز بين العقل والجسم كما نميز بينهما اليوم . كما لم تكن بنظره مادة تقوم بلا عقل ، بل لكل شيء من حيوان وجماد عقله الذى يوجه اعماله . وكل حركة تبدو على الشيء وان كان مصدرها لا علاقة له به عزاها اسلافنا للشيء نفسه . وبتقدم الانسان في سلم التطور الثقافي استطاع ان يجرد سائر المخلوقات — عدا الانسان — من العقل .

التشريح والحياة . غير ان تلك الاجزاء مع هذا ترتبط ببعضها اشد الارتباط فيؤثر بعضها ببعض ويتأثر فيه مادام الانسان على قيد الحياة . اي ان قيام اي عضو من اعضاء الجسم بوظائفه يتعدي اثره ذلك العضو وينتظم اعضاء اخرى . فاليد مثلاً لا تبصر الاشياء لان الابصار من وظائف العين ، غير ان العين تتأثر بما تمسكه اليد وتؤثر في موقف الانسان ازاءه . والعين لا تشم الروائح لان الشم من خصائص الانف ولكن العين تتأثر بما يشمه الانف وتؤثر في موقف الانسان ازاء ما يشم . وقد يتعدى ذلك الاثر حدود العين والانف وينفذ الى اجزاء اخرى من الجسم كالمعدة وجهاز الهضم مثلاً . فاعضاء الجسم اذن يشد بعضها بعضاً ويؤثر بعضها فى بعض . وقد يقوم بعضها بوظائف بعض آخر عندما تستدعي مصلحة الجسم ذلك عند عجز قسم من الاعضاء على القيام بوظائفه بسبب المرض او الشيخوخة ، فالاعمى يبصر باذنه ويده ، والاصم يسمع بعينه .

هذا الجسم باجزائه الكثيرة العدد المنوعة الوظائف يولد فى بيئة ذات وجهين : وجه طبيعي يشمل الماء والهواء والتربة والمعادن واضرابها ، ووجه اجتماعي يتكون من اللغة والتقاليد والعقائدوالقوانين وما شاكلها . غيرانوجهي البيئة ، مع هذا ، متصلان ببعضها اوثق اتصال . فتؤثر[1] البيئة الطبيعية فى

(١) يميل كثير من الباحثين الى القول بان العوامل الجغرافية من مناخ وامطار وموقع وجبال وانهار وتربة وثروة معدنية ونباتية هي العوامل الرئيسة في تعيين مجرى التاريخ البشري ونقل الحضارة الانسانية من مكان الى مكان . ويتضح اثر البيئة في تركيب الانسان من الناحية الجسمية (وما يتصل بذلك من النواحي الفكرية والمزاجية والخلقية) اذا ما وازنا بين بشرة الزنوج وسكان المناطق الباردة =

حضارة المجتمع وتركيب الفرد وسلوكه وفي عقائده وفلسفته فى الحياة . وتؤثر عقائد الفرد والمجتمع بدورها في نظرته للطبيعة وموقفه ازاءها[١]. والانسان

= في اوربا وامريكا . فقد دل البحث العلمي الحديث بأن اختلاف بشرة كل منهما راجع فى اسسه الى عوامل جغرافية مناخية ذلك ان تحت البشرة الانسانية غدداً يفرز بعضها مادة كيميائية تدعى Carolene ويفرز بعض آخر مادة اسمها Melanin وان الفرق بين الوان البشرات الانسانية يتعين بمقدار تغلب احد الافرازين على الآخر . فاذا تغلب الاول مالت البشرة نحو الصفاء والشقرة . واذا تغلب الثانى مالت البشرة نحو السمرة فالسواد . واللون الاسود بدوره يصبح اكثر ملاءمة للعيش في المناطق الحارة لانه يحمي الجسم من نفاذ نوع معين من الاشعة المحرقة . عكس اللون الابيض . ويصدق الشيء نفسه على شكل الانف والشفتين . فالانوف القصيرة والشفاه العريضة عند الزنوج اصبحت كذلك جغرافياً لغرض تحويل الحرارة الجسمية الى الهواء الملامس للبشرة . عكس ذوي الانوف الطويلة الدقيقة والشفاه الضيقة من البيض . يضاف الى ذلك ان الوضع المناخى للسكان يعين نوع تغذيتهم وبالتالي نشاطهم الفكري والجسمي وامزجتهم .

(١) يلوح لي ان خضوع الانسان لقوى الطبيعة يتجلى باوضح مظاهره اذا كان الانسان يعيش في مجتمع بدائى من الناحيتين الفكرية والمادية . وما الحضارة في واقعها الا قدرة الانسان على استذلال قوى الطبيعة واخضاعها لمشيئته . فوسائل التبريد (في المناطق الحارة) ووسائل التدفئة (في المناطق الباردة) جعلت الانسان فى وضع استطاع معه التغلب على الطقس . غير ان خضوع الانسان للطبيعة (واخضاعه لها) لايخلو من التأثر بعوامل اجتماعية وسياسية ودينية تتصل بعادات المجتمع وتقاليده من جهة وبوضعه المادي والفكري من جهة اخرى . =

جزء لا يتجزأ ، الا لغرض الدراسة النظرية ، من الطبيعة والمجتمع[١] ، وهو خاضع لهما ومسيطر عليهما في آن واحد ، يؤثر فيهما ويتأثر بهما ما دام على قيد الحياة . فلا يمكننا ، والحالة هذه ، ان نفهم طبيعة الانسان ومظاهر نشاطه ، فهماً صحيحاً الا اذا اخذنا بنظر الاعتبار صلاته بالبيئة والآثار المتقابلة التي يتركها كل منهما في الآخر . فكما اننا لا نستطيع ان نفهم طبيعة اليد ووظائفها على

= فالثروة المعدنية لا تؤدي من نفسها الى ازدهار الحضارة مالم يستطع المجتمع استخراجها واستعمالها لخدمته . ويصدق الشيء نفسه على الثروة النباتية والحيوانية . ومعاملة الانسان للبقرة والخنزير والكلب مثلاً تختلف باختلاف عقائده الدينية والاجتماعية ولا يدخل العامل الجغرافي بشكل مباشر الا عرضاً . فتعتبر البقرة مثلاً في بعض الاقطار مخلوقاً مقدساً ، وفي اقطار اخرى تستعمل للذبح . ويحرم اكل لحم الخنزير في بعض الاقطار ويحلل في اقطار اخرى . ويقدم لحم الكلب للضيوف فى بعض مناطق الصين ويحرم في مناطق اخرى وفي اقطار اخرى . ثم ان كثيراً من مظاهر الطبيعة ينظر اليها الانسان بعين عواطفه وتقاليده وثقافته . فجميع الانهار مثلاً مكونة من ماء تركيبه الكيميائى واحد غير ان العراقي يشعر شعوراً خاصاً عندما يسمع كلمة « دجلة » أو « الفرات » والفرنسي عندما يسمع اسم « السين » وهكذا . وجميع الاعلام مكونة من قماش تختلف الوانه وحجومه ولكن العراقي يقف موقفاً معيناً من العلم العراقي وهكذا .

(١) ويكفي للبرهنة على ذلك ان نقول : هل من الممكن فصل الانسان عن الهواء او الغذاء او الماء مع ضمان استمرار حياته ؟ او هل بالاستطاعة تجريد الانسان عن المجتمع - بما فيه من لغة ودين وتقاليد الخ . . - مع ضمان استمرار حياته كانسان ؟ . . . . .

وجهها الاتم الا اذا درسناها من حيث صلاتها بالجسم (فقد اصطلح المجتمع على تسميتها يداً [1] لانها موضوعة في الجسم بشكل معين لتقوم بوظائف معينة . ولو كانت موضوعة في الجسم بشكل آخر لترتب على ذلك قيامها بوظائف غير وظائفها الحالية ولكان من المحتمل ان يطلق المجتمع عليها اسماً آخر . وكذلك الحال فيما يتصل بالجسم كله من حيث صلاته ببيئته (الطبيعية والاجتماعية) . فالجسم بالنسبة للبيئة مثل اليد بالنسبة للجسم . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول : انه لا يمكن للباحث ان يفهم كيان الانسان وانماط سلوكه وتفكيره فهماً صحيحاً اذا اعتبره كياناً مستقلاً بذاته عن طريق اهماله للعوامل البيئية التي تؤثر فيه ويؤثر فيها على الدوام .

يحاول الانسان (ما دام يقظاً وفى حالة فكرية وجسمية وعاطفية سليمة) ان يجعل صلاته بالبيئة موضوعة بشكل يساعده على ادامة حياته وتقدمها من جوانبها المتعددة . اي انه يسعى لتطمين حاجاته الجسمية (من طعام وشراب وإفراغ ونوم وما شاكلها) وحاجاته الاجتماعية والفكرية والعاطفية . وبما ان تلك الحاجات كثيرة العدد ، تتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح ، فقد اضطر الانسان لكي يوازن بينها ان ينتقي منها ، ما هو ضروري فى اوانه ، الى شيء من التفكير والتأمل في قدرته على انجازه في الظروف المحيطة به . وما العقل الا ذلك النوع من السلوك الذي يبديه الجسم كله في تفاعله مع البيئة تطميناً لتلك الحاجات . فليس العقل ، من وجهة نظر جون ديوي ، شيئاً قائماً بذاته مختلفاً عن الجسم في جوهره

---

(١) بغض النظر عن اختلاف تسميتها (كتابة وتلفظاً) في اللغات المختلفة .

ووظائفه(١) . ولا وهو وظيفة من وظائف الدماغ(٢) . ولكنه وظيفة من

---

(١) يزعم كثير من الفلاسفة (المثاليين) بان العقل موهبة من مواهب الانسان تميزه عن سائر المخلوقات . وعن طريق العقل يستطيع الانسان ان يلج عالم المعنويات . والعقل بنظرهم شيء معنوي يختلف جوهره عن الجسم ، وهو مصدر الارادة والتفكير . وما الجسم الا آلة يسخرها العقل لتنفيذ ما آربه فيستعمل العين لرؤية الاشياء واليد للمسها الخ . . . العقل يدرك الجسم . ولا عكس . يدرك العقل الجسم بوساطة الحواس . وبما ان العقل شيء يختلف عن الجسم فما هي اذن صلته به ؟ لقد ذهب حملة هذا الرأي في تفسير الصلة بينهما مذاهب شتى نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر مايلي : (١) نظريـة الاثر المتقابل Interactionism القائلة بأثر الجسم في العقل وبالعكس . (٢) نظرية انقطاع الصلة بينهما Psycho-Physical Parallelism . (٣) نظرية اثر العقل في الجسم ولا عكس Epiphenominalism .

(٢) وهي نظرية الفلاسفة الواقعيين . وبما ان الدماغ بنظرهم عضو يشترك فيه الانسان والحيوان على السواء مع اختلاف في التركيب والتلافيف اصبح العقل موجوداً عند الانسان والحيوان مع فرق فى الكم لا النوع . اى ان الفرق بين عقل الانسان وعقل الحيوان امر يتصل بحجم الدماغ ووزنه وتعقيد تركيب الجهاز العصبي . فيكبر الحجم ويزداد الوزن ويتعقد التركيب كلما ارتقى الحيوان في سلم التطور البايولوجى الى ان يصل الى الانسان . ويحتاج الحيوان الى فترة من الزمن لاتقل عن مليون سنة لكي يتطور تطوراً ينقله من المرحلة التي هو فيها الى مرحلة الحيوان الارقى منه فى سلم التطور . ونظريتهم هذه مبنية في اسسها على مبدأ النشوء والارتقاء الذي قال به شارلس دارون (١٨٠٩-١٨٨٢) العالم الانكليزي المعروف .

وظائف الجسم كله عند تفاعله مع البيئة (الاجتماعية والطبيعية) اثناء سعي الانسان لتحقيق اهدافه في الحياة عن طريق التغلب على ما يعتور سبيله من مشاكل وصعوبات ·

يحصل الانسان على عقله ، كما يقول ديوي ، بوساطة علاقاته مع بيئته وفهمه لطبيعتها · وتلعب التربية المدرسية بشكل خاص دوراً فعالاً في هذا الصدد · واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول انه يجوز ان يكون لدى الشخص الواحد عقول لا عقل واحد ، ويتوقف عدد تلك العقول على تعدد الظروف (من حيث نوعها ومقدارها) التي يجد الانسان نفسه فيها · ويستدل على وجود العقل عند الانسان عن طريق معرفة مدى استطاعته ان يتغلب على ما يعترض سبيله من صعوبات اثناء قيامه بتصريف شؤونه المعاشية وحل مشكلاته · وقد يصبح الانسان بلا عقل متى ما اخفق في ايجاد حلول ملائمة للمشكلات التي تعترض سبيله غير ان العقل ، من الجهة الثانية ، وان كانت محتوياته مكتسبة صادرة عن البيئة (الطبيعية والاجتماعية) يحصل الانسان عليها نتيجة لوجوده في الطبيعة واتصاله بافراد المجتمع فان اسس العقل الفسلجية والبايولوجية امور موروثة تتحدر الى الانسان عن اسلافه جيلاً بعد جيل · وتكون تلك الاسس متساوية تقريباً من حيث الكم ومتماثلة من حيث النوع عند جميع الافراد داخل حدود الامة الواحدة وبين الامم كذلك · واذا كان الامر كذلك اصبح بمقدور الباحث ان يعزو الفروق التي يشاهدها بين الافراد (في المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة) من حيث قواهم العقلية وانتاجهم الفكري الى اختلاف بيئاتهم وبخاصة الاجتماعية منها وفي مقدمتها التعليم المدرسي · غير ان البيئة الاجتماعية عامة والتعليم المدرسي بصورة خاصة يجهزان الانسان بالمعرفة النظرية (وهي محتويات العقل) · ولكن

المعرفة النظرية مع هذا وان كانت شرطاً اساساً لتكوين العقل الا ان العقل لا يتكون بمجرد استيعابه لها . اي ان العقل لا يتكون الا اذا استوعب الانسان مقداراً معيناً من المعرفة المتصلة بموضوع من الموضوعات بحيث يستطيع الاستعانة به لحل ما يجابهه من المشاكل ذات العلاقة به . فلا يكون لدى الطبيب عقل فى الطب مثلاً الا اذا استوعب اسساً عامة فى موضوع اختصاصه واستطاع ان يستعين بها في الاستدلال من الاعراض المرضية على ما يعتري صحة مرضاه من اسقام وآلام تمهيداً لقيام بمعالجتهم معالجة ناجحة . والمتضلع باللغة لا يتكون لديه عقل لغوي الا اذا كانت لديه كمية خاصة من المعرفة النظرية في موضوع اختصاصه وتمكن ان يتخذها وسيلة لتفهم اساليب التعبير وتذوق افانين اللغة واستعان بذلك لتحسين اساليبه (واساليب غيره) في الكتابة والتخاطب وفي حل المعضلات اللغوية التي تعترض سبيله . ويصدق الشيء نفسه على الصيدلي والكيمياوي والفيزيائي والمربي وعالم النفس والنجار والفلاح والسائق وغيرهم من المختصين في فروع المعرفة والمهن المختلفة .

واذا كان العقل ظاهرة اجتماعية فانها تتضح فى سلوك الفرد بقدر ما تتضح في سلوك الجنس البشري . ولمستوى ثقافة الفرد نفسه ومستوى الثقافة فى عصره ومجتمعه اثر كبير في تكوينه العقلي . وكلما ارتفع المستوى العام لثقافة المجتمع الذي ينتمي الفرد اليه في موضوع اختصاصه بشكل خاص اصبح محتملاً ان يرتفع مستوى التفكير عند ذلك الشخص . فالتفكير الفيزيائي المنتشر الآن بين طلبة الجامعات واساتذتها اوسع مدى واكثر عمقاً مما كان منتشراً اثناء الفترة الزمنية التي عاش فيها كل من غاليلو ونيوتن ، مثلا ، على الرغم مما قدمه هذان العالمان من افكار جريئة فى وقتها بالنسبة لعلم الفيزياء . وليس مرد ذلك الى ان الفيزيائيين

الحديثين ارقى (من حيث قواهم العقلية الموروثة) من غاليلو ونيوتن ، بل هو ناتج عن التقدم الذي حدث فى حقل الفيزياء فى السنين التي تلت عهد غاليلو ونيوتن . وطالب المدرسة الثانوية فى الوقت الحاضر لديه من المعرفة النظرية والتفكير المبني على اسسها ما لا يقاس بما كان لدى الاسكندر الكبير او هرون الرشيد . وليس السبب فى ذلك راجعاً الى انه « ارقى » منهما فى قواه العقلية الموروثة بل لانه يعيش في عصر تميز بانتشار نوع من المعرفة النظرية كان العصر الذي عاش فيه كل من الاسكندر والرشيد مفتقراً اليها . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان آينشتاين العالم الفيزيائي الذائع الصيت كان قد وجد صعوبة كبرى (من الناحية الفكرية) فى فهم الموضوع لذي درسه اياه استاذه كروسمان - ذلك الموضوع الذي يدعى في ازياضيات بـ Tensor Calculus وذلك لحداثة الموضوع فى مفتتح القرن الحاضر ، على حين ان هذا الموضوع يدرس بشكل موسع في الوقت الحاضر لطلبة الصفوف الاولى والثانية من الجامعات الحديثة ويفهمونه بسهولة ويسر . ومما يؤيد ذلك ان الكثيرين من علماء الحياة المعاصرين يزعمون بانه لم يحصل على دماغ الانسان وجهازه العصبي تغيير كبير منذ حوالي ٢٠٫٠٠٠ سنة .

ويتجلى اثر البيئة الاجتماعية في تكوين العقل اذا تذكرنا ان العقل البشري لم ينتج شيئاً يستحق الذكر من الناحية العلمية في فترة الـ (١٥٠٠) سنة الواقعة بين عامي ١٠٠ ق.م و ١٤٠٠ ق م . على حين ان الفكر الانساني وبخاصة الاوربي منه توصل في فترة لا يتجاوز طولها نصف قرن (١٧٨٠ـ١٨٣٠ م) الى ايجاد قوانين علمية وتحسينات صناعية كبيرة (وما رافق ذلك من تغييرات اجتماعية) لازال كثير من آثارها باقياً الى اليوم . اما التقدم العلمي الحديث فى الوقت الحاضر فآثاره بادية للعيان سواء اكان ذلك فى حقل المعرفة النظرية في فروع الطب والفيزياء

والكيمياء وسائر العلوم ام في مجال الصناعة والمواصلات والزراعة والتعدين والبناء واضرابها . ولا يعود السبب في ذلك الى تغير في تركيب دماغ الانسان او تبدل في تركيبه من الناحية الفسلجية ، وانما هو نتاج تقدم المجتمع من الناحية الثقافية . اذ ان التقدم الثقافي وان كان ناتجاً في اسسه عن التقدم الفكري فانه بدوره يكون عاملاً من عوامل التقدم الفكري . وهكذا دواليك .

واذا كان العقل ظاهرة اجتماعية فان اثر اللغة في تكوينه كبير ذلك لأن اللغة عنصر مهم من عناصر الثقافة الفردية والاجتماعية ، وهي الواسطة الوحيدة لتشير الافكار بين الناس والتأثير في سلوكهم وتفكيرهم ، ونقل التراث الاجتماعي في جوانبه المتعددة من جيل الى جيل ومن قطر الى آخر . واللغة عند ديوي تشتمل على جميع الاشارات والرموز المقصودة (الموضوعة اصطلاحاً) التي يستعملها الانســـان للتعبير عن آرائه وعواطفه وللتأثير في سلوك الآخرين . هذه الرموز اما ان تكون مكتوبة او غير مكتوبة ، وتلك الاشـــارات اما ان تكون مرسومة او ان يقوم بها الشخص بشكل عملي كأن يحرك يديه حركات معينة الخ . . واللغة محصورة عند الانسان فقط ولا تشاركه الحيوانات فيها الا بالمقدار الذي تتعلمه منها بوساطته[1] . والشيء المهم في اللغة بالاضافة الى

---

(١) لقد اختلف الباحثون في نشأة اللغة وفي وظيفتها ، على ان الشيء المتفق عليه هو ان الوظيفة الاساس للغة هي محاولة التأثير من جانب المتكلم في سلوك السامعين لغرض تغييره على الشكل الذي يريده . وتلي هذه الوظيفة وظائف ثلاث هي (١) تعبير المتكلم أو الكاتب عن آرائه وعواطفه (٢) نقل التراث الاجتماعي (شفوياً او بطريقة مكتوبة) من شخص الى شخص ومن جيل الى جيل ومن مجتمع الى آخر (٣) وصف المتكلم او الكاتب للحوادث والوقائع للسامعين أو القارئين .

الرموز (اصواتها عند التكلم واشكالها عند الكتابة) والاشارات التي مر ذكرها[١] . من حيث وجودها المادي ، هو المعاني التي تدل تلك الرموز عليها . اي ان العبرة في الرموز اللغوية ليست موجودة في الالفاظ او الاشارات من حيث كيانها المادي بل في معانيها او دلالتها . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان كل شيء له دلالة او معنى (بالنسبة لشخص معين او مجموعة من الناس) بالاضافة الى وجوده المادي يدخل ضمن اللغة . فاللغة اذن مجموعة من الرموز والاشارات المصطلح عليها من قبل جماعة من الناس للتفاهم والمشاركة في العيش .

ذلك ما يتصل بتعريف اللغة وتحديد مجالها . اما عن الصلة بين اللغة والعقل فيمكننا ان نقول ان هناك ، عدا رأي ديوي ، رأيين آخرين . يتلخص الاول منهما في القول بان الفكر او العقل ضرب من ضروب اللغة ـ اي انه لغة صامته يتكلمها المرء لنفسه . ويتلخص الرأي الثاني في القول : ان الصلة بين العقل واللغة معدومة . واللغة ، على هذا الاساس ، وسيلة لنقل الافكار (محتويات العقل او الفكر) من شخص الى شخص لا اكثر ولا اقل . اي ان اللغة وعاء الافكار ، ووظيفتها الاحتفاظ بتلك الافكار او نقلها من شخص الى شخص (بغض النظر

---

(١) فيد شرطي المرور مثلاً تتكلم لغة خاصة عندما تتحرك حركات معينة اثناء تأديته لواجباته . ويفهم تلك اللغة في العادة سواق السيارات والعجلات . ويكون الغرض منها محاولة تغيير اتجاهاتهم وحركاتهم وفقاً لها محافظة للامن والنظام والارواح والممتلكات من التعرض للخطر . واذا فشل احدهم في تفسير دلالتها تعرض هو أو غيره (أو كلاهما) للخطر من ناحية الاصطدام المادي وما يتبعه من اضرار جسمية ومادية وعقوبات حكومية .

عن الزمان والمكان) . فهي كالقدح ومحتوياتها كالماء . ومثل اللغة في هذا الباب كمثل السيارة او القطار او الباخرة التي تنقل الركاب (الافكار) من مكان الى مكان دون ان تغير كياناتهم المادية والفكرية والعاطفية . اما نظرية ديوي فتقول على الرغم من اختلاف اللغة عن العقل فانها شرط اساس لتكوينه . فاللغة وان كانت شيئاً غير العقل الا ان العقل لا يتكون بدونها . فكما ان المعدة شيء يختلف عن عملية الهضم فان عملية الهضم ذاتها لا تتم دون ان توجد المعدة وتكون سليمة كذلك .

يسير العقل أو الفكر اثناء قيامه بواجبه حينما يتعرض الانسان الى مشكلة يتحتم عليه حلها أو التغلب عليها ، وفق خطة واضحة المعالم متصلة الاجزاء لها بداية ونهاية ، يتأثر كل جزء منها بالجزء الذي يأتي قبله في التسلسل ويؤدي بدوره الى الجزء الذي يأتي من بعده . ويطلق ديوي على هذه العملية اسم التفكير Thinking ، ويسمي اجزاءها خطوات التفكير او مراتبه او عناصره[١] . وقبل ان نستعرض سير التفكير عند الانسان يجدل بنا ان نمهد لذلك بالالماع الى عدة ملاحظات هامة تساعد معرفتها على جعل رأي جون ديوي في التفكير واضحاً . تلك الملاحظات هي :

---

(١) وضع ديوي ذلك بشكل واضح للمرة الاولى في كتابه الموسوم « كيف نفكر ؟ » الذي تم طبعه عام ١٩٠٨ ، واعاد النظر في الاسس العامة للتفكير ووضعها بشكل يختلف بعض الاختلاف عن الشكل الاول في كتابه المعروف « الديمقراطية والتربية » الذي تم طبعه عام ١٩١٥ . غير انه اعاد النظر مرة ثانية في تلك الاسس ووضعها بشكل جديد عام ١٩٣٢ عندما صدرت الطبعة المنقحة لكتابه « كيف نفكر ؟ » . وقد اجرى بعض التغييرات على ذلك في عام ١٩٣٨ عندما تم طبع كتابه المسمى « المنطق » .

(١) يعتبر ذوي الانسان كائناً حياً نشطاً مادام يقظاً وما دام في حالة جسمية وفكرية ومزاجية تسمح له بالتعبير عن نشاطه ، بغض النظر عن مقداره أو اتجاهه . اذ ان نشاط الانسان يأخذ اشكالا مختلفة الاتجاهات والدرجات . ولا يخرج هذا النشاط (الجسمي أو الفكري أو العاطفي) من ان يكون سلسلة من الاستجابات التي يقوم بها الانسان وتستلزمها علاقاته بالبيئة (الاجتماعية والطبيعية) . وتكون غاية الانسان من كل ذلك هي ادامة الحياة بتذليل مايعترض سبيله من مشكلات وصعوبات . والحالة التي ينشدها الانسان لنفسه هي الحالة التي ينتفي فيها وجود المزعجات بمختلف صنوفها ، من النواحي الفكرية والعاطفية والجسمية . اي ان الانسان ، كما سلف ان ذكرنا ، يرغب دائماً في تطمين حاجاته الجسمية والفكرية والعاطفية . والتفكير أحد الوسائل التي يستعين بها الانسان في مغالبة الطبيعة والمجتمع تحقيقاً لاغراضه وامانيه[1] وعملية التفكير نفسها على درجات ومراتب تختلف سعة وعمقاً . ويتوقف عمق التفكير ومداه ، في حالة استعانة الانسان به لحل مشكلاته ، على نوع تلك المشكلات ودرجة تعقـــدها بالنسبة للشخص الذي يواجهها .

(٢) ليس التفكير شيئاً كامناً في دماغ الانسان أو في أي جزء من اجزاء

---

(١) هناك ، عدا التفكير ، وسائل اخرى يلجأ الانسان الى الاستعانة بها عندما تعترض سبيله مشكلة من المشكلات ، منها : الاندفاع والانهزام ومنها لا لتجاء الى مايعرف عادة في علم النفس بـ « احلام اليقظة » أو «التبرير» واضرابها . وجميع هذه الوسائل حاشا التفكير « تتغلب » على المشكلة بوساطة الهروب منها وعدم مواجهتها اطلاقاً .

جسمه وتستثيره المشكلات التي يتعرض لها الانسان . بل التفكير شيء يحدث نتيجة للعلاقة بين الانسان والمشكلة التي يواجهها . ولا يمكن ان يحدث التفكير الا اذا توافر هذان العاملان : الانسان من جهة ، ومشكلة لابد من مواجهتها ومحاولة التغلب عليها (عن طريق التفكير) من جهة اخرى . ولا يحدث التفكير بمجرد وجود الانسان وحده (دون مشكلة) ، ولا يحدث كذلك عند وجود المشكلة وحدها ، بل هو لا يحدث عند وجود الانسان ومشكلة لا يهمه حلها أو التغلب عليها . انما يحدث التفكير كما ذكرنا عند وجود الانسان ومشكلة لابد له من مواجهتها لغرض التغلب عليها .

(٣) هناك انواع كثيرة من التفكير بعضها افضل من بعض ، وبما ان الغاية القصوى للتفكير هي التغلب على المشكلات والصعوبات التي تعترض سبيل الانسان ، فان وجه المفاضلة بين انواع التفكير ينحصر في مدى قيام كل منها بتلك الوظيفة على وجهها الاتم . وافضل انواع التفكير على هذا الاساس هو التفكير الذي يكون احتمال مساعدته على حل مايعترض سبيل الانسان من مشكلات اكثر من غيره . وهذا النوع من انواع التفكير هو الذي يتبناه ديوي ويدعو الى ضرورة تنميته عند الناس ويسميه Reflective Thinking ، وهو بنظره وحدة فكرية مترابطة الاجزاء ، ذات بداية ونهاية معينتين ، يسير الفكر الانساني اثناءها بخطوات متلاحقة يستند كل منها الى ماقبله ويؤدي الى مابعده ، يبدأ بمواجهة المعضلة وتحديدها واقتراح الحلول الملائمة لها ويختبر تلك الحلول ويوازنها ببعضها لمعرفة مدى صلتها بالمشكلة ومقدار افادته منها في التغلب عليها ، وينتهي فعلا بالتغلب على المشكلة . ولا يشترط حتماً ان يكون عدد تلك الخطوات متساوياً في جميع الحالات التفكيرية . غير ان عدد تلك الخطوات ، في الاعم الاغلب ،

لايتجاوز الخمسة ، وربما يكون اقل من ذلك احيانا . ولا يشترط كذلك ان تتعاقب تلك الخطوات بالترتيب نفسه في جميع حالات التفكير ، فكثيراً مايختلف ترتيبها (بغض النظر عن مقدارها) باختلاف طبيعة المشكلة التي يواجهها الانسان. غير انها تسير في العادة وفق التسلسل الذي سيأتي شرحه . ولايشترط ايضاً ان تكون تلك الخطوات متساوية في الاهمية في العملية التفكيرية الواحدة فبعضها اهم من بعض آخر . وتقاس تلك الاهمية بمقدار ماتقدمه كل منها للتفكير من معونة عند محاولة التغلب على المشكلة التي تعترض سبيله . وبما ان عملية التفكير تستغرق زمناً يتوقف طوله على صعوبة المشكلة بالنسبة للشخص الذي يواجهها فان ذلك الزمن يتوزع على خطوات التفكير نفسها (بغض النظر عن عددها) توزيعاً لايشترط فيه ان يكون متساويا فيها جميعاً . فقد لاتحتاج احدى خطوات التفكير مثلا في عملية تفكيرية معينة الاالى بضع لحظات على حين ان بعضاً آخر في العملية الفكرية ذاتها يحتاج الي زمن اطول من ذلك او اقصر . ولا يشترط كذلك ان تستغرق الخطوة نفسها — في حالة وجودها — في عمليات تفكيرية مختلفة مقداراً واحداً من الزمن . فقد تستغرق خطوة معينة من خطوات التفكير مقداراً معيناً من الزمن في عملية تفكيرية معينة بينما تستغرق الخطوة نفسها ، في عملية تفكيرية اخرى زمناً يختلف عن ذلك الزمن من حيث الطول أو القصر . يتوقف ذلك كله بالطبع على صعوبة المشكلة بالنسبة للشخص .

اما الخطوات التي تتألف منها عملية التفكير الكاملة فهي :

(١) الاحتمالات المتعددة التي ترد الى الذهن في العادة (عند وجود الانسان والمشكلة التي لابد له من التغلب عليها) والتي يستطيع الذهن ان يستعين باحدها للتغلب على المشكلة التي تواجهه ، وتكون تلك الاحتمالات كثيرة العدد احيانا

وقابلياته احياناً اخرى . ويتوقف عدد تلك الاحتمالات من حيث الكثرة والقلة على مدى صعوبة المشكلة بالنسبة للشخص ، وعلى ثقافته العامة وخبرته السابقة وعلى كون تلك المشكلة جديدة كلها او بعضها عليه او انه سبق له ان تعرض لامثالها . وتتوارد تلك الاحتمالات الى الذهن لاول وهلة في الغالب اوتوماتيكياً لمجرد مواجهة الانسان للمشكلة .

(٢) يمعن الذهن النظر فى تلك الاحتمالات الوقتية التي ترد للذهن بالشكل الذي وصفناه ومن ثم يوازن بين بعضها متلمساً صلة ذلك كله بالمشكلة التي بين يديه ومدى افادته من كل منها في التغلب على تلك المشكلة . وبهذه الطريقة يستطيع الذهن ان يسقط من حسابه جميع الاحتمالات التي لا تعينه على الحل الصحيح لتلك المشكلة . ويختلف عدد الاحتمالات غير ذات الصلة بالمشكلة باختلاف العمليات التفكيرية المتعلقة بصعوبة المشكلة بالنسبة للشخص .

(٣) يرشح احد الاحتمالات (التي استبقاها الذهن لصلتها بالمشكلة التي يجابهها) نفسه لغرض النظر في امكانية اعتباره الاحتمال الوحيد الذي يساعد الذهن على التغلب على المشكلة . ويتوقف حل المشكلة حلاً سليماً على التريث فى التسليم بذلك تسليماً مطلقاً . وظاهرة التريث هذه فى واقعها عملية رجوع الذهن مرة اخرى الى المشكلة للنظر فيها من جوانبها المتعددة ومعرفة مدى الافادة من تبني الاحتمال الذي رشح نفسه للاستعانة به في التغلب عليها .

(٤) وهنا اما ان يقوى يقين الذهن فى الاحتمال المرشح باعتباره الاحتمال الوحيد الذي يساعد على حل المشكلة ، وبذا تتلاشى امكانية قبول جميع الاحتمالات الاخرى . واما ان يتسرب الشك الى الذهن فى قبول ذلك الاحتمال فيتراجع مؤقتاً من مكانه الحالي الى المكان الذي انتقل منه في الخطوة السابقة فاحصاً ،

باحثاً وممعناً النظر من جديد في الشكلة واحتمالات حلها . وقد يقلع الذهن عن قبول ذلك الاحتمال ويتبنى - بدله - احتمالاً سبق له ان عزف عنه ، وقد يهتدي ، اثناء بحثه ، الى ايجاد احتمال جديد . وهنا يعود الذهن مرة ثانية الى عملية الموازنة بين الاحتمالات المختلفة من حيث صلة كل منها بالمشكلة التي بين يديه . وبهذه الطريقة يتراجع الذهن ، كما سلف ان ذكرنا ، الى الخطوة السابقة ، مؤقتاً لغرض جعل تقدمه اللاحق اكثر تركيزاً ودقة مما هو عليه . ولعل هذه الصفة بالذات من صفات التفكير هي التي جعلت ديوي ينعته بالتفكير « الراجع » Reflective Thinking .

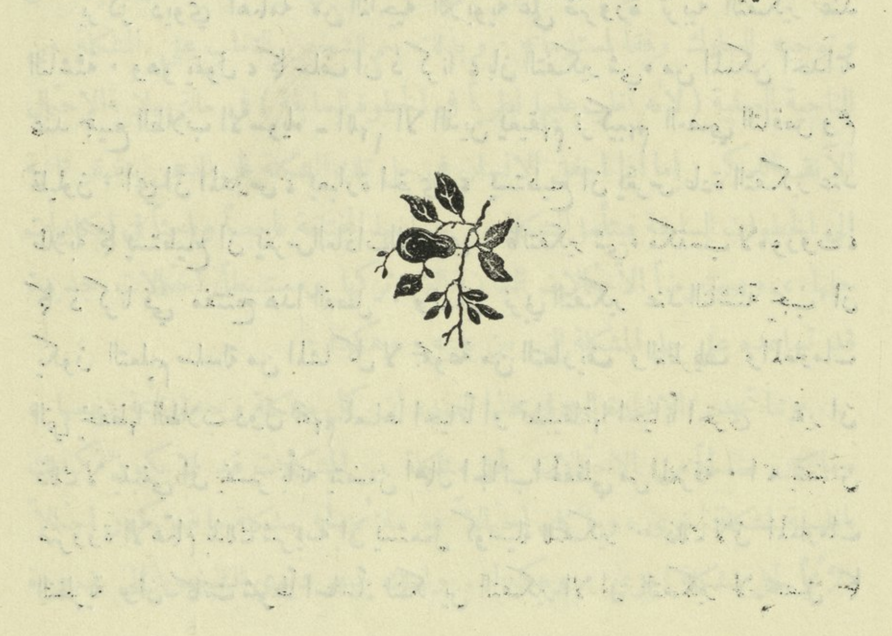
(٥) اخراج الاحتمال الوحيد (الذي اهتدى الذهن اليه فى الخطوة السابقة باعتباره الاحتمال الوحيد فى التغلب على المشكلة) من حيز التفكير الى حيز العمل وتوجيه السلوك وفقاً لمستلزماته . وبذلك يتم للشخص التغلب على المشكلة من الناحية العملية (لانه تغلب عليها نظرياً في الخطوة السابقة) فى حالة سلامة الاحتمال الآنف الذكر . اما اذا اخفق الانسان في حل تلك المشكلة فان الذهن يتقهقر ثانية الى الخطوات السابقة فيتأمل المشكلة من جوانبها المختلفة فاحصاً وباحثاً في امكانيات حلها ، ومستعرضاً الاحتمالات السابقة التي تركها ومستنبطاً احتمالات جديدة قد تساعده على حل المشكلة التي بين يديه . وهكذا .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان كل مشكلة وحدة قائمة بنفسها ، وماكان صالحاً من الاحتمالات لحل مشكلة من المشكلات قد لا يكون كذلك بالنسبة لمشكلة اخرى ، وما كان احتمالاً غير ملائم لحل مشكلة ما قد يكون احتمالاً ملائماً لحل مشكلة اخرى . وهكذا . ولذلك يدعو ديوي الشخص الى ضرورة

التفكير في كل مشكلة يتعرض لها وان بدا لاول وهلة بان مشكلات مماثلة لها قد مرت على ذلك الشخص وان حلها معروف سلفاً لديه ولا حاجة به الى التفكير في حلها . غير ان ديوي من الجهة الثانية يدعو الى ضرورة الانتفاع بالخبرة السابقة والاستعانة بالحلول للمشكلات الماضية في تلمس حلول سليمة للمشكلة الجديدة ، وبهذه الطريقة يكون ديوي قد اضاف خطوة سادسة للتفكير او وجهاً آخر من وجوهه . ويتعلق هذا الوجه كما سلف ان ذكرنا في مدى الافادة من نتائج عملية فكرية معينة في حل مشكلات لاحقة تواجه الانسان في المستقبل شريطة ان ينظر الانسان بعين الدقة والروية الى الظروف المحيطة بكل مشكلة من المشكلات ، ويستعين على القدر المستطاع بما يمكن ان يستعين به من اوجه خبرته السابقة لغرض التغلب على ما يعترض سبيله من مشكلات وصعوبات .

يركز ديوي اهتمامه من الناحية التربوية على ضرورة تربية التفكير عند الناشئة . وهو يقول ، كما سلف ان ذكرنا ، بان التفكير شيء من الممكن احداثه عند جميع الطلاب الاسوياء - اللهم الا الذين يعيقهم تركيبهم العصبي الناقص وهم قليلون . اي ان المدرس ، بعبارة اخرى ، يستطيع ان يغرس عادة التفكير عند طلابه كما يستطيع ان يغرس العادات الاخرى . فالتفكير شيء مكتسب لا موروث ، كما ذكرنا في مفتتح هذا الفصل . ولكي نربي التفكير عند الناشئة يجب ان يكون التعليم سلسلة من المشاكل لا مجموعة من التعاريف والنظريات والمعلومات التي يحفظها الطلاب دون تفهم لمعناها احياناً او تطبيقاتها احياناً اخرى غير ان ذلك لا ينبغي ان يفسر بأنه يتضمن اهمال الجانب الحفظي من المعرفة . انه يتضمن ضرورة الاهتمام بذلك شريطة ان يستعمل كوسيلة للتفكير . ذلك لان المعلومات النظرية وان كانت شرطاً اساسياً لتكوين التفكير الا ان التفكير لا يحصل كما

ذكرنا بمجرد استيعاب الذهن لها . يضاف الى ذلك ان كثرة المعلومات احياناً قد تكون عائقاً من عوائق التفكير بدلاً من ان تكون عاملاً من عوامل حدوثه .
ولكي ينجح التعليم في تربية التفكير ينبغي ان تكون المشكلات التعليمية التي يتعرض لها الطالب صعبة وسهلة في آن واحد من وجهة نظره ـ اي انها يجب ان تكون على درجة من الصعوبة بحيث تتحدى التفكير ، وعلى درجة من السهولة بحيث يستطيع الطالب تلمس الاجابة الصحيحة في ضوء خبرته السابقة ودراسته الماضية . اما اذا كانت « المشكلة » من السهولة بحيث لم تثر التفكير عند الطالب فانها لا تكون مشكلة بالمعنى الصحيح ، واذا كانت المشكلة من الصعوبة بحيث لم يستطع الطالب الانتفاع بخبرته ودراسة الباحثين في التوصل الى حلها فانها تذوي التفكير وتثبط عزيمة الطالب وتخيفه فيهرب من امامها .



الفصل الثامن

العقاب : تطوره من الناحية التاريخية

لا بد لمن يتصدى للبحث في تطور العقاب ، من الناحية التاريخية ، بشتى صوره ومختلف مجالاته وانواعه ، ان يبدأ على ما أرى ، بتعريفه ليتوصل إلى الكشف عن الاسس التي يستند اليها من الناحيتين النفسية والاجتماعية . غير ان الباحث ، من الناحية الثانية ، لا يجد ام تعريف العقاب ، تعريفاً جامعاً مانعاً ، من الأمور اليسيرة . ولكننا مع هذا نستطيع ان نقول ، إذا ما اغفلنا الدقة العلمية فى البحث وقتياً ، ان العقاب يتضمن كل إجراء (بغض النظر عن نوعه) تقوم به الهيئة ذات السلطة (بغض النظر عن نوع تلك السلطة وكيفية حصولها عليها) او احد اعضائها تأنيباً لشخص من الاشخاص لقيامه بعمل كان الافضل ، من وجهة نظر الهيئة ذات السلطة ، ان لا يقوم به إطلاقاً بذلك الشكل وفي الزمان الذي تم ذلك العمل اثناءه والمكان الذي حصل فيه . ويدعى العمل الذي اشرنا اليه جرماً من وجهة نظر الهيئة المارة الذكر .

يأخذ العقاب اشكالا عدة تختلف شدة وضعفاً باختلاف نوع الجرم الذي يرتكبه الانسان والعوامل المحيطة به اثناء عملية الاجرام وقبلها كما تقدرها الهيئات المسئولة . وقد مر العقاب ، كما يحدثنا مؤرخوه ، من حيث الغاية من استعماله ، بمرحلتين : مرحلة الانتقام ومرحلة الاصلاح . ينصب اهتمام المعاقب (بكسر

القاف) والمشرع ، في المرحلة الاولى عند انزال العقوبة بالمعاقب ، في الاعم الاغلب ، على الماضي فيعاقب الشخص على هذا الاساس لأنه قام بعمل ما كان ينبغي له ان يقوم به . ولم تمط نتائج عمل المعاقب (بفتح القاف) في الحاضر او المستقبل نصيباً من العناية والبحث عند المشرع والمعاقب إلا بمقدار تعلقها بالماضي . كما لم تمط نتائج العقاب نفسه في سلوك الذين يتعرضون لتأثيره نصيباً كبيراً من العناية والبحث . ولا يخلو هذا النوع من العقاب ، كما هو المتوقع ، من قسوة وعنف كثيراً ما يكونان على درجة كبيرة من الصرامة لا تنسجم هي ونوع العمل الذي استحق المعاقب من اجله العقاب . اما النوع الثاني من العقاب وهو احدث من زميله من الناحية التاريخية فيأخذ بنظر الاعتبار بالدرجة الاولى كلا من الحاضر والمستقبل ولا ينظر إلى الماضي إلا بمقدار تعلقه بالحاضر والمستقبل . فهو على هذا الاساس اقرب من زميله إلى الرأفة بالمعاقب منه إلى الانتقام منه .

بدأت المرحلة الاولى على ما يظن منذ ان بدأ التشريع الانساني وما زال بعض معالمها قائماً إلى اليوم في كثير من الاقطار . اما المرحلة الثانية فقد ظهرت بشكلها الواضح في اوربا قبل بضعة قرون . ومن يتتبع تاريخ الاجرام بصورة عامة وصلته بالعقاب ونظرة المشرعين إلى الاجرام ، والمجرمين يجد الصلة وشيجة بين موقف المجتمع من الخارجين على أنظمته وتقاليده من جهة وموقف السلطة الحاكمة من الثائرين على تقاليدها وأنظمتها من جهة أخرى .

كان الهدف الرئيس من إنزال العقاب على بعض الأشخاص في الماضي هو التعبير عن امتعاض الشخص (الذي يتولى أمر عقابهم) من بعض أعمال قاموا بها

فاستحقوا أن ينزل العقاب بهم . وشرائع حمورابي ، وهي من أهم الشرائع واقدمها ، من أوضح الامثلة على ذلك حيث كان العقاب من جنس العمل في غالب الأحيان . وتعود أسس ذلك ، من الناحية النفسية على ما أرى ، إلى أن المجرم كان يعتبر شريراً بطبيعته ، مثله في هذا الشأن كمثل المجنون الذي حل في جسمه ، من وجهة نظر الأقدمين ، نفر من الجن ، ولعل ذلك يفسر لنا الفلسفة التي استند اليها العقاب والعوامل التي جعلت العقاب قاسياً في مجموعة . لأن القصد من إنزاله كان لأجل تخويف الأرواح الشريرة وجعلها تترك الجسم الذي حلت فيه ليعود إلى وضعه السوي .

لقد حصل منذ بضعة قرون خلت انتقاض من جانب كثير من المشرعين على المبادىء التي اتخذت أساساً لتفسير الاجرام ومعاقبة المجرمين . وقد نتج عن ذلك تغيير عميق الغور وواسع المدى في فلسفتي الاجرام والعقوبة وفي تقدير آثارها النفسية والاجتماعية . ويعود ذلك في أسسه العامة إلى انتشار الافكار الحرة والمناداة بضرورة الاهتمام بالفرد واعتبار الانظمة والقوانين وسائل لحماية الانسان من نفسه من جهة ومن الآخرين من جهة ثانية . فنتج عن ذلك انتشار الدعوة (التي نادى بها كثير من المفكرين المعاصرين وفي مقدمتهم جون ديوي) إلى المناداة بوجوب الاعتناء بتنظيم علاقات الافراد الاقتصادية والسياسية والفكرية والاعتراف بأن للفرد على المجتمع والدولة حق الحياة والعمل والعيش . وقد اعتبر الاجرام وتردي سلوك بعض الافراد واعتلال تفكيرهم في أسسه العامة (اللهم إلا في حالات مرضية وشاذة) بأنه ناتج عن سوء تربيتهم ورداءة أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . واعتبر الانسان من الناحية النفسية عند ولادته

محايداً فيما يتصل بالاجرام . أي ان الاجرام قد فسر بأنه ظاهرة اجتماعية لاظاهرة فسلجية أو بايولوجية . وإذا كان الأمر كذلك أصبح لزاماً على المجتمع ، كما يقول المشرعون المعاصرون ، إذا ما أراد القضاء على الاجرام ، أن يبحث عن أسبابه ومكوناته القريبة والبعيدة . إذ أن ذلك البحث ، إذا ما كان علمياً مبنياً على الأمعان والدقة ، على حد تعبير جون ديوي ، فانه يتحتم أن يتبعه عثور على حالات لا صلة بين الاجرام فيها وبين الاجراءات السائدة التي تتخذ كوسائل لعلاجه .

يتضح من كل ذلك ان الاتجاه العام فى الوقت الحاضر ينصب على دراسة ظاهرة الاجرام لا المجرمين ، من جهة ، ويعتبر الاجرام ، بشتى صوره ، مرضاً اجتماعياً قد لا يزيله العقاب ، من جهة أخرى . ذلك لأن الشخص الذي يتعرض للعقاب نتيجة لقيامه ببعض أعمال لا ترتضيها الهيئة الاجتماعية التي يشاطرها العيش لا يحاول أن يقلع عن تلك الاعمال واضرابها لمجرد محاولته ان يتجنب العقاب ذاته . بل يحاول — تجنباً للعقاب — ان يتخذ جميع الوسائل الممكنة لاخفاء اجرامه عن أعين الناس وبخاصة عن الهيئة ذات السلطة . وكثيراً ما يبرع المجرم في إيجاد منافذ مستورة تعينه على الاستمرار فى الاجرام . وعندي إذا كان لي عند كما يقول الجاحظ ، ان سبب ذلك من الناحية النفسية ، هو ان المجرم لا يتكون في نفسه الخوف من الاجرام ذاته بل يتكون عنده الحذر الذي يجعله يتفادى العقاب . وعلى هذا الاساس فهو لا يسعى إلى تعديل سلوكه بقدر سعيه إلى تجنب العقاب حتى وان اضطره بحثه عن وسائل يتجنب بواسطتها العقاب إلى أن يجعل سلوكه اكثر اعوجاجاً مما هو عليه . وإذا صح ما ذهبنا إليه جاز لنا ان نقول ان العقاب

قد يكون عاملا من عوامل الاجرام . يتضح ذلك كثيراً إذا ما تذكرنا ما يرافق العقاب في العادة وينتج عنه من آثار عاطفية وفكرية وجسمية (بالاضافة الى الآثار المادية الاخرى المتعلقة بالمال والممتلكات) كثيراً ما تكون بدورها او يصبح قسم منها على كل حال ، اساساً لأنواع جديدة من الاجرام . ويتجلى سخف الفكرة القائلة بأن العقاب هو دواء الاجرام إذا ما قيل لنا على سبيل المثال ، ان طبيباً يستعمل العقاب ضد من يعرض عليه من المرضى بدلا من ان يقوم بالمراسيم الطبية المعتادة في مثل هذه الحالات . فالاجرام وهو مرض اجتماعي ، كالمرض الجسمي ، فرصة ينبغي للمختصين ان ينتهزوا بها للبحث عن جذوره ومكوناته تمهيداً للقيام بعلاج جذري من شأنه العمل على إزالته .

يرتبط العقاب من الناحيتين الاجتماعية والنفسية بالاجرام ارتباطاً وثيقاً . ويختلف العقاب ، شدة وضعفاً ، باختلاف نظرة المشرعين إلى نوع الجريمة وظروفها وملابساتها . ونظرة المشرعين الى الجريمة منتزعة في اسسها العامة من طبيعة المجتمع الذي يعيشون فيه ومن نظمه في الدين والسياسة والاخلاق . ويظهر اختلاف العقاب شدة وضعفاً بوضوح عند المجتمعات المختلفة التي تعيش في فترة واحدة من الزمن بقدر ما يتضح في المجتمع نفسه في فترات مختلفة من تاريخه . وبما ان الصلة بين العقاب والاجرام وشيجة اصبح لزاماً على من يتصدى للبحث في العقاب وتطوره من الناحية التاريخية ان لا يغفل البحث في الاجرام وموقف المجتمع والمشرعين منه . ولا بد لمن يتطرق إلى موضوع الاجرام من أن يلمع إلى معنى الاجرام ، من وجهة نظره على الأقل .

وعندي ان الاجرام نوع من أنواع السلوك الذي يبديه بعض الافراد في

بعض الاحيان بشكل لا ينسجم والتقاليد المألوفة والانظمة الشائعة في المجتمع الذي ينتمون إليه • أي ان الاجرام نوع من أنواع الشذوذ عما يقتضيه العرف العام وتتطلبه المستويات الأخلاقية فى مجتمع من المجتمعات • وإذا سلمنا بتعريف الاجرام على هذا الشكل أصبح بمقدورنا القول بأن الاجرام قديم قدم المجتمع وانه ربما استمر ما دامت الحياة مستمرة بشكلها الاجتماعي • هذا من جهة ومن جهة ثانية فان باستطاعة الباحث أن يقول انه كلما تعقدت الحياة من الناحية الاجتماعية وكثرت علاقات الناس وتشابكت مصالحهم وتعددت صلاتهم أصبح محتملا ان يكثر شذوذ الكثيرين من الناس عن المعايير السلوكية التي يضعها المجتمع لأفراده لغرض السير وفقاً لمستلزماتها • وقد يرافق ذلك التعقد فى الحياة الاجتماعية أن يصبح الاجرام مهنة تقوم بها مجموعات من لافراد ، تبرع كل مجموعة منها على انفراد بنوع معين من الاجرام • وكثيراً ما يعين نوع المجتمع الذي يعيش الناس فيه نوع الجرائم الشائعة فيه ودرجة براعة القائمين بها • فانواع الجرائم ووسائل اقترافها وأساليب اخفائها تختلف في الاعم الاغلب ، فى المجتمعات الصناعية عنها في المجتمعات الزراعية • ويصدق الشيء نفسه على سكان المدن والارياف في القطر نفسه •

لقد حاول كثير من المشرعين والمصلحين الاجتماعيين في الماضي والحاضر تفسير ظاهرة الاجرام وتلمس أسباب حدوثها . وقد جاءت تفاسيرهم مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف . غير ان تلك التفاسير مع هذا يمكن ان تصنف ، من حيث اسسها العامة إلى مجموعتين : المجموعة التى تعزو ظاهرة الاجرام إلى عوامل موروثة متصلة بتركيب الانسان من الناحية الفسلجية أو العاطفية أو النفسية . ويكون

الاجرام عند بعض الناس فى هذه الحالة حتمياً لامفر من حدوثه ولا سبيل إلى علاجه علاجاً شافياً . اما المجموعة الثانية من الباحثين فتعزو الاجرام إلى عوامل بيئية (جغرافية أو ثقافية أو اقتصادية) .

يدعي حملة الرأي الاول بأن الاجرام ألصق بالفرد منه بالمجتمع . وما المجتمع بنظرهم إلا الوسط الذي يعبر المجرم بواسطته عن إجرامه . وعلى هذا الاساس تقع مسئولية الاجرام على الفرد بالدرجة الاولى ، وإذا كان لابد من إشراك المجتمع في ذلك فأن مسئوليته ثانوية الأهمية . اما حملة الرأي الثاني وفى مقدمتهم جون ديوي فتنحو منحى معاكساً إذ هي تدعي بأن الاجرام ظاهرة اجتماعية لانفسية . وما المجرم بنظرهم إلا شخص اضطرته ظروف لاسيطرة له عليها أن يقوم بعمل يستهجنه قسم من أفراد المجتمع الذي يعيش فيه ، اصطلح بعض الناس على تسمية ذلك العمل بالاجرام . وعلى هذا الاساس تقع مسئولية حدوث الاجرام على المجتمع نفسه بالدرجة الاولى وعلى المجرم ذاته بالدرجة الثانية .

ولعل من المفيد أن نشرح بشيء من الايجاز الاسس التى تستند اليها كل مجموعة من المجموعتين الآنفتي الذكر وأن نشير إشارة عابرة إلى أشهر اقسام كل منهما .

١ — مجموعة النظريات القائلة بأن الدوافع للاجرام عند الشخص موروثة أي ان هذه النظريات تعتبر ان الدوافع الاجرام تتوافر فى قسم من الاشخاص دون غيرهم . وعلى هذا الاساس يصبح الاجرام بنظر أصحاب هذا الرأي ، أمراً حتمياً عند بعض الناس إذا توافرت فيهم صفات معينة سوف يأتي ذكرها . وإذا سلمنا بذلك بنظر هؤلاء ، جاز لنا أن ندعي استحالة القضاء على الاجرام إلا إذا قضي

على من يتصفون به من الناحية الوراثية عن طريق الابادة أو التعقيم الذي يؤدي إلى الحرمان من النسل .

غير ان حملة هذا الرأي بصورة عامة ، وإن اتفقوا على القول بأن الدوافع للاجرام موروثة تتحدر للمجرم من أسلافه القريبين والبعيدين كما تتحدر له صفاته الجسمية (مثل الطول والقصر ولون الشعر والعينين وما شاكلها) إلا أنهم يختلفون كثيراً فيما بينهم حين يتعرضون البحث في ماهية تلك الدوافع فيقول بعضهم إنها متصلة بتركيب الجمجمة وملامح الوجه وعظام الاطراف ويدعي بعض آخر بأنها متعلقة بالناحية الجنسية التي تتعلق بالرجال والنساء ، على حين ان فريقاً ثالثاً يزعم بأنها ناتجة عن التغييرات الكيميائية التي تعتري الدم نتيجة لافراز الغدد الصم .

يتزعم الفريق الاول الطبيب الايطالي المعروف لمبروزو الذي عاش بين عامي (١٨٣٦—١٩٠٩) والذي تحدر من عائلة إيطالية يهودية ودرس الطب والتحق بالقسم الطبي التابع للجيش الايطالي . لقد لفتت نظره ظاهرة الاجرام عند بعض الجنود وأخذ يبحث عن منشئها فتوصل ، نتيجة لدراسته لأحوال المجرمين الذين عثر عليهم في الجيش الايطالي ، إلى القول بأن هناك علاقة وثقى بين تركيب الجمجمة وعظام الوجه والاطراف من جهة وبين الاجرام من جهة اخرى . وادعى بأنه إذا كانت ملامح الوجه وعظامه وعظام الاطراف موضوعة بشكل معين (لا نرى ضرورة للدخول في شرح تفاصيله) تحتم أن يكون الشخص مجرماً ، وسبب ذلك من وجهة نظره ، ان لتلك الملامح آثاراً نفسية خاصة من شأنها أن تدفع صاحبها إلى الاجرام عن طريق جعله أقل قدرة (من الاشخاص غير المجرمين) على التكيف لمقتضيات البيئة ومستلزمات الحياة . وقد ازداد إيمان لمبروزو بصحة نظريته

عندما أيدت بحوثه ، التي أجراها على المجرمين غير الجنود ، دراساته التي اجراها على المجرمين في الجيش . ومن أشهر حملة هذا الرأي ، بالاضافة إلى لمبروزو ، آرتر بوديه في فرنسا ، وموريس بندكت في النمسا والاستاذ آرنست هوتون أستاذ علم الاجرام في جامعة هارفرد في الولايات المتحدة .

يذهب بعض آخر ، ممن يشارك لمبروزو واعوانه القول بأن عوامل الاجرام موروثه ، إلى الادعاء بأن تلك العوامل ، وإن كانت متحدرة للانسان من أسلافه البعيدين أو القريبين ، إلا انها لا تتصل إطلاقاً بتركيب الجمجمة وعظام الوجه أو اليدين ، بل هي ناتجة بنظرهم عن التحولات الكيميائية التي يتعرض الدم لها بتأثير افراز الغدد الصم . والغدد الصم ، كما هو معروف ، مجموعة من الغدد التي تنصب افرازاتها بالدم مباشرة . وتختلف الكميات التي تفرزها كل غدة من تلك الغدد باختلاف نوع الغدة نفسها في الفرد نفسه من جهة ، وباختلاف الغدة نفسها في الافراد المختلفين من جهة ثانية وباختلاف الحالات النفسية التي يمر بها الفرد ذاته في فترات مختلفة من تاريخه من جهة ثالثة . وما المجرمون ـ بنظر حملة هذا الرأي ـ إلا مجموعة من الناس تكون كميات افراز الغدد الصم عندهم بشكل لا يجعلهم يفكرون تفكيراً عميقاً في عواقب اعمالهم وتصرفاتهم وإنما يحبذ لهم الاندفاع للقيام بتلك الأعمال وبخاصة الاجرامية منها . وقد بدأ التسليم بصحة هذا الرأي ، في تعليل الاجرام في امريكا اللاتينية حديثاً نتيجة لدراسة الاستاذ ماريانو رويز فيونز . ومن اشهر انصار هذا الرأي المعاصرين في الولايات الاستاذ ادورد سمث .

اما القسم الثالث من اصحاب نظرية وراثة العوامل الاجرامية فيقول : ان

دوافع الاجرام عند الاشخاص متصلة اشد الاتصال بالغريزة الجنسية[١] وحدها (فتش عن المرأة) ولا علاقة لها إطلاقاً بتركيب عظام الوجه والجمجمة واليدين كما يقول لمبروزو ، أو بافراز الغدد الصم كما يدعي ادورد سمث . ومن اشهر القائلين بهذا الرأي شاركو وجانيت وفرويد واتباعهم من اصحاب مذهب التحليل النفسي .

---

(١) الواقع ان المجتمع يعدل كثيراً من الميول الفطرية (الغرائز في حالة وجودها الذي نشك فيه) عند الانسان . فالميل الجنسي (أو الغريزة الجنسية كما يسميها فرويد) لا تنتهي كما هو المشاهد عند تطمين الرغبة الجنسية عند الانسان ، بل تتعدى ذلك الى تكوين البيت وتربية الاطفال وتحديد العلاقات بين الزوجين والاطفال (وهي امور اجتماعية تخضع للعرف والقانون) . ولو كان الميل الجنسي هو العامل الحاسم في تحديد علاقات الافراد ، كما يزعم فرويد ، وهو عامل موروث بنسب متكافئة في جميع الافراد والامم ، لما رأينا هذا التنوع الكبير بين الشعوب في ثقافاتها واديانها ومبادئها السياسية والاخلاقيه . هذا الى ان موضوع الوراثة الغريزية بشكل عام (سواء اكان ذلك من وجهة نظر فرويد ام من وجهة نظر مكدوكل) قد اصبح بنظر كثير من علماء النفس المعاصرين وبخاصة في الولايات المتحدة من الموضوعات غير العلمية سواء اكان البحث يدور على موضوع «الغرائز» عند الانسان ام عند الحيوانات والطيور . ومن اطرف ما عثرنا عليه فى موضوع الغرائز عند الطيور ان بعض المختصين بعلم الطيور يعزون تصرفاتها (الغريزية بنظر وليم مكدوكل) الى عوامل بيئية صرفة . وقد اثبت الاستاذ ريفان فى كتابه « لغز هجرة الطيور » بان عملية بناء العشوش والهجرة واضرابهما امور تتعلق بالبيئة الطبيعيه (كالحر والرياح والنور وما شاكلها) ولا صلة له اطلاقاً بالغرائز - ان صح وجود مثل تلك الغرائز فى طبيعة الطير - .

ويتصل بالناحية الجنسية عند فرويد (بشكل ضعيف) وعند يونك (بشكل واضح) اثر اللاشعور في توجيه السلوك نحو الاجرام عند بعض الناس . يضاف إلى ذلك بنظر بعض المنشقين على فرويد من اتباعه اثر الجهاز العصبي بشكل عام واقسامه العليا بشكل خاص في حدوث الاجرام وبخاصة عند المصابين بالامراض العصبية التي يعرفها المختصون .

ولعل من المناسب ان نشير في هذا الصدد إلى ان هذه المجموعة من النظريات التي تعلل ظاهرة الاجرام تعليلا مبنياً على العوامل الموروثة عند الانسان ، سواء اكانت تلك العوامل تشريحية كما هي الحال عند لمبروزو أم تركيبية وظفية كما يزعم ادورد سمث أو نفسية غريزية كما يدعي فرويد واتباعه – اقول ان هذه النظرية بفروعها المتعددة قد بدأت تتعثر بأذيالها من الناحية العلمية في السنوات القليلة الماضية . وقد ضؤل نتيجة لذلك إيمان الكثيرين من علماء الاجرام في التسليم بصحتها يضاف إلى ذلك ان رأي فرويد وإن كان وجيهاً بشكله المعتدل إلا انه كما يظن ، غير كاف بحد ذاته لتعليل جميع الحالات الاجرامية تعليلا علمياً جامعاً مانعاً في آن واحد .

يتضح مما ذكرنا أن الآراء التي عرضناها وإن اختلفت في بعض أوجهها إلا أنها جميعاً تتفق على القول بأن الاجرام ظاهرة وراثية عند الانسان ولا أثر للبيئة في ذلك إلا بالمقدار الذي تساعد تلك البيئة فيه العوامل الوراثية في التعبير عن نفسها . وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن بعض الجرائم ترثها بعض العناصر البشرية دون غيرها ، غير ان الدراسات العلمية الحديثة قد فندت ذلك الادعاء .

.. ذلك ما يتصل بأثر الوراثة في الاجرام . أما جملة الرأي الثاني القائل بأن البيئة

هي العامل الحاسم في تـكوين الاجرام فتعتبر الوراثة عاملا ثانوي الاهمية في ذلك ، والانسان في نظر حملة هذا الرأي ، بطبيعته محايد فيما يتعلق بالخير والشر والاجرام وما شاكلها ، وان عوامل الاجرام في مجموعها منبثقة من البيئة التي يتعرض الانسان لتأثيرها من النواحي المادية والفكرية والعاطفية . وان تلك العوامل دون شك تستثير استجابات خاصة عند الانسان تتصل بجسمه وعواطفه وفكره ومثلها في هذا الصدد كمثل الطعام الذي يستثير في الجائع استجابات معينة تتصل بافراز الفم والمعدة وتصبح استجابة الانسان على هذا الأساس متأخرة في الزمن والأهمية عن العوامل البيئية التي أثارتها . فهي نتيجة لها لا سبب لحدوثها ، ويصبح الاجرام بدوره نتيجة لتلك النتيجة . اي ان الاجرام حسب وجهة النظر هذه نوع من أنواع السلوك الذي يبديه بعض الناس في بعض الاحيان نتيجة لتوافر عوامل بيئية معينة كثيراً ما تكون على درجة من التعقيد والعنف بحيث يصعب كثيراً على الانسان أن يتحكم في توجيهها والسيطرة عليها ٠ هذا إلى ان هذا السلوك ، من وجهة نظر القائمين به من جهة ثانية ، يعتبر نوعاً من أنواع الاحتجاج على بعض مظاهر بيئتهم بقدر ما هو من وجهة نظر تقاليد تلك البيئات وقوانينها ، جموح في أعمال القائمين به وتصرفاتهم ٠

ان مجموعة هذه النظريات وإن اتفق دعاتها على التسليم بأن الاجرام ظاهرة اجتماعية بيئية إلا أنها تختلف فيما بينها اختلافات كبيرة حينما تتعرض إلى تحليل تلك البيئة إلى اوجه متعددة بعضها أشد أثراً من بعض فيما يتصل بحدوث ظاهرة الاجرام ٠ وفي مقدمة تلك النظريات نظرية كارل ماركس القائلة بأن عوامل الاجرام اقتصادية بحتة ٠ ونظرية مونتسكيو الفرنسي الذي يعزو الاجرام إلى عوامل

جغرافية ومناخية . والنظرية الثالثة التي قالت بها جمهرة من الباحثين المحدثين ومفادها ان الاجرام ناتج عن ضعف الوازع الديني والخلقي عند بعض الناس . والنظرية الرابعة (التي يؤمن بها ديوي) القائلة بأن الاجرام ظاهرة سلوكية تحدث كلما توافرت عوامل بيئية معينة اقتصادية او جغرافية او خلقية من شأنها ان تجعل الانسجام مفقوداً بين الانسان وبيئته .

يزعم دعاة النظرية الاولى بأن العامل الاقتصادي هو العامل الاساس الوحيد الذي يؤثر في صلات الامم والافراد ويغير مجرى التاريخ . ويقصدون بالعامل الاقتصادي نوع وسائل الانتاج وملكيتها من جهة والقوانين التي تخضع لها توزيع الثروات والارباح بين المنتجين والمالكين والمستهلكين من جهة أخرى . هذا العامل الاقتصادي بنظرهم هو الذي يغير تركيب المجتمع ونظام عيشه وفلسفته فى الحياة . وما اختلاف الافراد والمجتمعات فى قوانينها الخلقية وفلسفاتها الاجتماعية إلا مظهر من مظاهر اختلافها في نوع الحياة الاقتصادية السائدة . وما الاجرام إلا مظهر واحد من مظاهر سلوك الفرد يحصل نتيجة حتمية لظروفه الاقتصادية .

أما النظرية الثالثة (التي تعزى إلى فئة من الكتاب القدامى والمحدثين وفي مقدمتهم أرسطو وابن خلدون ومونتسكيو وهكل وهنتنغكن) وفحواها ان سلوك الامم والافراد ينتج دائماً عن الآثار التي تتركها العوامل الجغرافية والمناخية في تكوينهم وفي مقدمتها الرياح والامطار والحرارة ونوع الغذاء والتربة والمعادن والمهن وما شاكلها . والاجرام وهو نوع من أنواع التصرف يمكن إرجاعه بعد التحليل الدقيق ، الى تلك العوامل مجتمعة أو منفردة . يقول مونتسكيو في

كتابه (روح القوانين) « ان الاجرام فى المناطق الحارة أكثر حدوثاً منه فى المناطق الباردة » وعلى هذا الاساس حسب رأي مونتسكيو كلما قرب المكان من خط الاستواء كثر حدوث الاجرام فيه[١] . ويقول الدوق كوليت ، أحد أنصار هذا المبدأ « ان جرائم الاعتداء على الاشخاص تكثر فى الاقطار الحارة بالنسبة للأقطار غير الحارة من جهة وفي المواسم الحارة في الأقطار نفسها من جهة أخرى » وقد أيد كثير من الدراسات الاحصائية الحديثة التي جرت في المانيا وفرنسا وايطاليا وجهة النظر تلك وقد تركزت هذه النظرية كثيراً في الولايات المتحدة نتيجة لبحوث الاستاذ أدون بكستر .

ويقول دعاة النظرية الثالثة ان الاجرام يحصل حينما يسمح بعض الناس لانفسهم بالخروج على ما تعارف غيرهم على احترامه وإطاعته من أنظمة وتقاليد وقوانين

---

(١) ومن الطريف ان نشير في هذا الصدد الى ان مونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥) قد ذهب ابعد من ذلك فى تفسير اثر البيئة الجغرافية وبخاصة الطقس في الحضارة والمجتمع والانسان . فزعم ان اختلاف الامم في نظمها السياسية والاخلاقية راجع بعد التحليل الدقيق الى اختلاف طقوسها الجغرافيه . وان « الفساد » الخلقي يكثر كلما قرب المرء من خط الاستواء حيث المناخ الحار ، وان الاخلاق لاتنمو ، على حد زعمه « حيث ينمو البرتقال » - اي في حوض البحر المتوسط . ويلوح ان مونتسكيو قد اعتبر القوانين الاخلاقية الشائعة فى المجتمع الفرنسى في عهده اساساً للحكم على اخلاق الامم الاخرى ، واعتبر الابتعاد عن تلك القوانين ابتعاداً عن الاخلاق نفسها وقد فاته ان يلاحظ ان مايعتبره مجتمع من المجتمعات خروجاً على الاخلاق قد لايكون كذلك بنظر مجتمع آخر وهكذا . ثم ان مونتسكيو لم يذكر لنا السبب الذي يجعل المناخ الحار نفسه مؤدياً للاجرام والى الشذوذ في السلوك .

اجتماعية . وبما ان تلك الامور مبنية في أسسها على بعض المسلمات الاخلاقية ، التي لا يجوز من الناحيتين النظرية والعملية لأي فرد أن يخرج عليها ، فان مجرد خروج المجرمين عليها دليل على انعدام اثر تلك المسلمات الخلقية في سلوكهم وتصرفاتهم . ويدعو هؤلاء المشرعون إلى ضرورة تربية الوازع الديني عند الناس جميعاً لاسيما المجرمين منهم لأن ذلك بنظرهم ، أجدى للمجتمع في التخلص من ظاهرة الاجرام من الاجراءات الاخرى الشائعة ، غير ان بعض الباحثين الاوربيين الآخرين يرد على ادعاء هؤلاء بقوله : ان الاجرام في اوربا بشكل خاص حسب الاحصاءات العلمية الاخيرة يكثر في المناطق التي يكثر فيها المسيحيون من أتباع الكنيسة الكاثوليكية (وهم بنظرهم من اكثر المسيحيين تقيداً بأصول الدين) غير ان اصحاب نظرية الوازع الديني يفندون ادعاء هؤلاء بأن في البيئات الكاثوليكية في العادة تنتشر الفاقة فيضعف الوازع الديني عند الكثيرين من الناس فيندفعون نحو الاجرام .

اما اصحاب الرأي الرابع وفي مقدمتهم جون ديوي فيقولون ان الانسان يحاول أن يعيش مطمئناً من جميع النواحي الحياتية . وبما ان البيئة بأوجهها المختلفة قد تقف في بعض الاحيان حائلا بين بعض الناس فلا تسمح لهم بتطمين بعض حاجاتهم فان ذلك الوقوف بحد ذاته ، نوع من أنواع التحدي يتحتم ان يرد عليه بعض الناس في بعض الاحيان بنوع من الخروج على ما تواطأ الناس على تسميته بالعرف أو القانون . فينعت هذا النوع من السلوك من قبل أغلبية الهيئة الاجتماعية بأنه إجرام .

لقد تغيرت فلسفة العقاب منذ مفتتح القرن الحاضر وفقاً لتغير وجهة نظر

المشرعين وعلماء الاجرام فيما يتصل بالعوامل المؤدية إليه . وقد اخذ فى الايام الاخيرة كثير من المشرعين وعلماء الاجرام والفلاسفة وبخاصة جون ديوي ينظرون بشيء من الجدية والتأمل إلى ماينتجه العقاب من آثار فى نفوس الاشخاص الذين يتعرضون لتأثيره من النواحي الجسمية والفكرية والعاطفية . وعلى هذا الاساس فهم يحاولون ، جهد الامكان ان لا يوصوا بانزال العقاب إلا فى الحالات التي لايجدون بداً من إنزاله فيها وهي حالات نادرة جداً آخذة بالتقلص من حيث عددها ، ويعود السبب الرئيس فى ذلك كما سلف ان ذكرنا ، إلى ان البحوث الحديثة فى علم الاجرام وعلم النفس وعلم المجتمعات البشرية اخذت تميل إلى التأكيد على اثر البيئة في سلوك الانسان ، وبدأت تعتبر الانسان ، من جوانبه الاجتماعية على كل حال ، نتاج بيئته بنوعيها الطبيعي والاجتماعي . غير ان تغير فلسفة العقاب في الوقت الحاضر مع هذا لم يستأصل ماورثه المجتمع عن الاجيال السالفة من نفور عام عمن نسميهم بالمجرمين واستمر على الدعوة إلى ضرورة إنزال العقاب بهم بشكل يتناسب ونوع إجرامهم .

لقد كان عقاب المجرم فى الاجيال السالفة يتم على أيدي الاشخاص الذين يتعرضون لنتائج إجرامه ، هذا إذا كانت الجريمة ليست بذات اثر كبير على كيان المجتمع آنذاك . ومن هذه الجرائم جرائم القتل والسرقة وما شاكلها . أما الجرائم التي يتعدى أثرها حدود من وقعت عليهم مباشرة فان أمر العقاب يصبح حقاً من حقوق المجتمع ويترك أمر إنزاله إلى المتنفذين فى المجتمع . وقد سارت البشرية في هذا الاتجاه ردحاً من الزمن إلى أن أصبح أمر العقاب منوطاً بالهيئة الحاكمة وحدها . وقد نتج عن ذلك مع الزمن أن اختلفت أنواع العقوبات باختلاف أنواع

الجرائم ، وأشهر العقوبات فى التاريخ (١) عقوبة الاعدام (٢) عقوبة النفي (٣) عقوبة السجن . ولعل من المفيد إكمالا للبحث أن نشير بشيء من الايجاز غير المخل لكل منها .

(١) عقوبة الاعدام : يظهر ان هذه العقوبة قديمة قدم المجتمعات البشرية ، غير ان أنواع الجرائم التي يستحق أصحابها عقوبة الاعـــدام تختلف باختلاف المجتمعات من جهة وباختلاف الفترات التاريخية التي يمر بها المجتمع نفسه من جهة أخرى . ويختلف أسلوب الاعدام نفسه باختلاف الزمان والمكان كذلك . فقد كانت عقوبة الاعدام تنفذ في المجرم فى إنكلترا بين عامي ٩٩٤ـ١٠٣٥ عن طريق سلخ جلد المجرم (وهو حي) ثم وضع ذلك الجسم (بعد سلخه) فى صندوق خشبي مثبل وتركه في العراء معرضاً للهوام والبرد والحر . وكانت تلك العقوبة تنفذ في الشرق الاقصى قديماً عن طريق وضع المجرم مع حية سامة كبيرة فى كيس ورميهما فى العراء ، وهناك أساليب أخرى نذكر منها على سبيل المثال الاوضاع الآتية : تنفيذ حكم الاعدام عن طريق قذف المجرم إلى حيوان مفترس . أو عن طريق إغراقه فى اليم أو النهر ـ والتحدث عن عقوبة الاغراق في نهر اللوار أثناء الثورة الفرنسية من أكثر الاحاديث إيلاماً للنفس فقد أغرق الآلاف من الناس آنذاك وبخاصة في عام ١٧٩٣ . أو عن طريق الصلب كما حدث للمسيح من وجهة نظر المسيحية ، أو الرمي من محل شاهق إلى الارض . أو السم كما حدث لسقراط . أو الحرق كما حـــدث لبرونو الفيلسوف الايطالي . أو قطع الرأس ـ وحديث المقصلة الفرنسية ابان الثورة لا يحتاج إلى إعادة ، أو الشنق ، أو الجلوس على كرسي مكهرب ... الخ . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان هناك ضجة عنيفة

بدأت منذ اوائل القرن الماضي داعية الى اعادة النظر في عقوبة الاعدام وتقليل الحالات التي تستعمل فيها في أول الامر، ثم قويت تلك الدعوة فأصبحت تنادي بالغاء تلك العقوبة اطلاقاً . وقد استجاب عدد من الدول الى ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الثانية : بلجيكا التي الغت تلك العقوبة في عام ١٨٦٣، والبرتغال في ١٨٦٧، وهولندا في عام ١٨٧٠، وسويسرا (في خمسة عشر مقاطعة) في عام ١٨٧٤، والنرويج في عام ١٩٠٥، والسويد في عام ١٩٢١، ولتوانيا في عام ١٩٢٢، واسبانيا في عام ١٩٣٢، والدانمارك في عام ١٩٣٣ . وهناك ثلاثة اقطار اوربية كانت قد الغت تلك العقوبة ثم اعادتها، وهي : ايطاليا التي الغتها في عام ١٨٨٩ واعادتها في عام ١٩٢٨، والنمسا التي الغتها في ١٩١٩ واعادتها اثناء خضوعها للحكم النازي قبل الحرب العالمية الثانية، ورومانيا التي ألغتها في عام ١٨٦٥ واعادتها في عام ١٩٣٩ . اما اقطار امريكا اللاتينية فأكثرها قد الغت تلك العقوبة : البرازيل عام ١٨٩١ ولكنها أعادتها عام ١٩٣٨ في حالات قليلة جداً، والاكوادور عام ١٨٩٥، وكولومبيا عام ١٩٠٠، والارجنتين عام ١٩٢٢، وكوستاريكا وبيرو وارغواي وفنزويلا عام ١٩٢٦، والمكسيك عام ١٩٢٩ وشيلي عام ١٩٣٠، وآخر دولة على ما نظن ألغتها هي نيوزيلاندا عام ١٩٤١.

(٢) النفي والابعاد : وقد بدأ تاريخياً في فرنسا وانكلترا وروسيا، وكان المنفيون يكبلون بالاغلال ويرسلون الى اماكن نائية . وكان الكثيرون منهم يموتون في الطريق نتيجة لصعوبة السفر أو قلة الغذاء أو قساوة المعاملة اوالتعرض الامراض المختلفة - وفي كتاب السير توماس مور المسمى (الطوبائية) وصف ممتع لهذا النوع من العقاب في انكلترا على عهده . وكان معظم المنفيين من انكلترا يرسلون الى امريكا (القسم الذي يعرف الآن بالولايات المتحدة). وقد

ارسلت اولى وجبات المجرمين الى مقاطعتي ماري لاند وفرجينيا في عام ١٥٩٧ واستمرت الحال كذلك حتى قيام الثورة الامريكية في اواخر القرن الثامن عشر وتحرير البلاد من الاستعمار الانكليزي وكان بعض المجرمين البريطانيين يرسلون الى عدن والصين والهند ونيوزيلندا واستراليا . اما فرنسا فكانت ترسل المنفيين الى جزيرة مدغشقر والى الجزائر وسائر مستعمراتها الاخرى في افريقيا والشرق الاقصى . اما روسيا فكانت تنفي المجرمين الى سيبريا - وقد بلغ عدد المنفيين الروس الى سيبريا بين عامي ١٨٢٣-١٨٧٧ (اي في مدة اربعة واربعين سنة ٧٧٢٩٧٩ منفياً كما يحدثنا الاستاذ كرفيتس في كتابه (اسرار السجون) . وفي قصص تولستوي وكتاب دستوفسكي (موطن الاموات) كثير من القصص المؤلمة في هذا الشأن .

(٣) السجن : وهو من اقدم المؤسسات الاجتماعية التي تستعمل لانزال العقاب في بعض المجرمين . اما السجن بمعناه الحديث فلا يتجاوز عمره ١٨٥ عاماً . لقد كان السجن في اوربا حتى عام ١٧٧٥ يحتضن المجرمين السياسيين والمجرمين الخارجين على التعاليم الدينية دون سائر المجرمين . وكانت حالة السجن من النواحي الصحية والاجتماعية على جانب كبير من التأخر والقساوة . وكان يظن ان ذلك عامل من عوامل ردع المجرم عن الاجرام لكيلا يعود الى السجن مرة اخرى بعد خروجه - وهو عامل الانتقام الذي المعنا اليه - . اما في الوقت الحاضر (نظراً لتغير فلسفة الاجرام والعقوبة) فقد كثر الاعتناء بالسجون من حيث آثارها المادية والفكرية على المساجين كما تعددت انواعها فهناك سجون للمجرمين الاحداث ومدارس اصلاحية . الخ . كما انتشرت الدعوة الى ضرورة الاقلاع عن تعذيب المساجين : وقد تشعبت كذلك وظائف السجون بأنواعها المختلفة فأصبحت (بالاضافة الى كونها وسيلة من وسائل تقييد حرية المجرم) تؤدي بعض الوظائف التربوية فيما يتصل بتعديل السلوك وتعليم بعض الحرف .

الفصل التاسع

العلم[1] : منطقه واثره في الحياة

يختلف الباحثون كثيراً فيما بينهم ، في الوقت الحاضر على كل حال ، حينما يتصدون للبحث في موضوع العلم وتحديد مدلوله ومجاله . غيران المرء ، مع هذا ، يستطيع ، اذا ما اخذ بنظر الاعتبار الاسس العامة التي تستند اليها بحوثهم ، ان يقول بانهم ينقسمون ، فيما يتصل بتعريف العلم ، الى ثلاثة اقسام . يعرف القسم الاول العلم بانه « مجموعة من الحقائق الثابتة » . اي ان هذا الفريق من الباحثين

---

(١) لم تحدد كلمة علم Science قبل اواسط القرن التاسع عشر ويظن بعض الباحثين ان اول تحديد لتلك الكلمة ورد في قاموس موريس الذي طبع في عام ١٨٦٧ . ويذهب الاستاذ ميرزي في المجلد الاول من كتابه « تاريخ الفكر الاوربي في القرن التاسع عشر » الذي تم طبعه في عام ١٨٩٦ الى القول بان كلمة « علم » قد تحدد معناها منذ عام ١٨٣١ عندما تشكلت «الجمعية العلمية البريطانية» . ومن الطريف ان نذكر هنا ان كثيراً من العلماء قبل النصف الثاني من القرن الماضي كانوا يطلقون على بحوثهم العلمية اسم « فلسفة » فدالتن مثلا اطلق على كتابه المؤلف عام ١٨٠٨ والذي يبحث في موضوع الكيمياء اسم New System of Chemical Philosophy ولامارك سمى كتابه الذي وضعه في عام ١٨٠٩ والذي يبحث في موضوع الزولوجي Philosaphie Zoologigue .

يحصر مجال العلم فى الموضوعات التي تحتوي على « حقائق ثابتة » بغض النظر عن اختلاف الزمان والمكان . وهو يضع ، فى مقدمة تلك الموضوعات ، الرياضيات والفيزياء والكيمياء واضرابها من العلوم ذات « الحقائق الثابتة » من وجهة نظره . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هؤلاء الباحثين يركزون اهتمامهم على « الثابت » من تلك « الحقائق » . ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان المتطرفين من حملة هذا الرأي يذهبون الى اعتبار الرياضيات وحدها علماً دون سائر فروع المعرفة المختلفة (بما فيها الفيزياء والكيمياء) وذلك « لثبوت حقائقها » ، كما يدعي هؤلاء ، على مر الزمان ومختلف المكان (فى الوقت الحاضر وفى القرون الوسطى ، فى العراق وفى روسيا السوفيتية) . فالمعادلة ٢ + ٢ مثلاً تساوي ٤ في كل زمان ومكان . وتنحصر الفروق الاساس ، فى هذا الصدد ، بين المجتمعات المختلفة والازمان المختلفة في الشكل الكتابي لتلك الرموز (وهو امر كما يدعى هؤلاء يتصل بموضوع اللغة لا بموضوع الرياضيات) ، وفي طريقة النطق بتلك الرموز (وهو امر لغوي كذلك ولا علاقة له بموضوع الرياضيات) ، ولا صلة له اطلاقاً في معاني تلك الرموز او مدلولاتها (وهو امر رياضي صرف) . ويرافق هذا التعريف للعلم وينتج عنه ان يصبح العلماء بنظر حملة هذا الرأي اناساً يعملون باستمرار على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق الثابتة . اي ان العلم من حيث كمية حقائقه يزداد باستمرار وهو ، فى الوقت الحاضر ، اوسع منه في القرن الماضي وسيصبح حتماً في القرن القابل اوسع منه الآن . يضاف الى ذلك ان العلم من وجهة النظر هذه يبحث في جوهر الاشياء او طبيعتها لا في سلوكها ومظهرها الخارجي . يتضح من كل ذلك ان هذا الفريق من الباحثين يحصر اهتمامه فيما

يتصل بالعلم بالحقائق العلمية والقوانين العلمية دون اهتمام كبير بالاسلوب الذي بوساطته توصل العلماء الى اكتشاف تلك الحقائق والقوانين .

اما الفريق الثاني من الباحثين فينحو منحى معاكساً لمنحى الفريق الذي مر بنا ذكره ، ويعرف العلم بانه الطريقة العلمية او الاسلوب العلمي المختبري - وهو الاسلوب الذي يتبعه في العادة المشتغلون في مختبرات الفيزياء والكيمياء حينما يلاحظون الظواهر الطبيعية (والكيميائية) ملاحظة دقيقة وموضوعية (مستعينين بالادوات المختبرية لتفادي عدم دقة حواسهم [1] في تسجيل تلك الظواهر تسجيلاً دقيقاً) بعيدين عن التحزب والعاطفة الشخصية ، وجامعين ما يستطيعون ان يجمعوه من تلك الظواهر لصلته بموضوع بحثهم ، ثم يقارنون ما جمعوه ببعضه وبغيره

---

(١) من ذلك مثلا ان تقدير الانسان لدرجة حرارة مكان معين يتأثر ، اذا اعتمد على حواسه وحدها ، بدرجة حرارة المكان الذي جاء من عنده . فيتراءى له ان المكان الجديد اكثر حرارة مما هو عليه اذا كان الشخص قادماً من مكان درجة حرارته اوطأ من درجة حرارة المكان الجديد . والعكس صحيح كذلك . والناظر الى شيء يستصغر حجمه اذا كان ذلك الشيء موجوداً بالقرب من شيء اكبر منه حجماً وبالعكس . ومن يقترب من النار يشعر بارتفاع في درجة حرارتها . وبالعكس . والعصا المغمور جزؤ منها في الماء تبدو للعين كأنها مكسورة والواقع ان درجة حرارة المكان في المثال الاول قيست بالنسبة لغيره من جهة وبشكل غير علمي من جهة اخرى . وكذا حجم الشيء في المثال الثاني . اما في المثال الثالث فان الانسان لا يتأثر بحرارة النار مباشرة بل بحرارة الهواء الملامس لها . اما في المثال الرابع فان الضوء هو المنكسر لا العصا وفقاً لقاعدة فيزيائية معروفة .

(مستعينين بما هو مسلم به من قوانين ونظريات علمية) لغرض استقراء قاعدة علمية او وضع نظرية علمية او قانون علمي ينتفع به في المستقبل . اي ان الطريقة العلمية في العادة تبدأ من الجزئيات لتنتهي بالكليات ، فتستقرأ القاعدة او القانون مما تشاهده . اي انها تتبع مايعرف عادة بالطريقة الاستقرائية In luctvie Method .
غير ان هذا لا ينبغي ان يفسر بانه يتضمن عدم انتفاع الاسلوب العلمي بالطريقة الاستنتاجية Deductive Method ـ طريقة النزول من الكليات والنظريات والقوانين العامة الى الجزئيات . ولكنه يتضمن حتماً التسليم بان السير من الكليات الى الجزئيات في مجال العلم ، من الناحية التاريخية ، ينبغي ان يعتبر بانه مرحلة كان وجودها نتيجة للسير من الجزئيات الى الكليات . اي ان القانون العلمي الذي نستعين به في الوقت الحاضر مثلاً لتفسير بعض الحقائق الجزئية كان وجوده نتيجة لعملية استقرائية سابقة . هذا من جهة . ومن جهة ثانية فان القانون العلمي نفسه اذا ما تعذر انطباقه على حقائق يفترض فيه ان ينطبق عليها في الوقت الحاضر (وربما في المستقبل) فان ذلك بحد ذاته عامل من عوامل اعادة النظر في صحة القانون نفسه عن طريق جمع ما يمكن جمعه من الحقائق المتصلة بالحالة التي تتعلق به ، لمعرفة اسباب عدم انطباقه عليها او عدم خضوعها له[١] . ويتوقف

---

(١) يجمل بنا هنا ان ننبه القاريء الى ان الظواهر الطبيعية والحقائق العلمية لا تخضع للقاعدة العلمية او القانون العلمي كما يخضع العبد الى سيده او المحكوم الى حاكمه . ذلك لان القوانين العلمية اوصاف لعلاقات معينة بين تلك الظواهر . واذا نظرنا للموضوع من الناحية التاريخية امكننا ان نقول بان اعتبار الظاهرة الفلانية خاضعة للقانون الفلاني ـ يعني ان ذلك القانون مسيطر عليها ـ قد =

مصير ذلك القانون على مدى تأييد تلك الحقائق له . فاذا تمردت تلك الحقائق ، او بعضها ، عليه فان ذلك يتضمن ضرورة البحث في قضية تعديله او استبداله بغيره او تحديد مجال عمله . وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا ان نقول ان هذا الفريق من الباحثين يركز اهتمامه على الاسلوب[1] العلمي نفسه اكثر منه على النتائج

= تحدر الينا من المجتمع اليوناني (المنقسم الى طبقتين : احرار وعبيد كما سلف ان ذكرنا) حيث كان الخضوع يفسر تفسيراً اجتماعياً وعلمياً . الواقع ، كما يحدثنا ديوي ، ان خضوع الظواهر الطبيعية للقوانين العلمية شيء يشبه خضوع لاعب كرة القدم لقوانين تلك اللعبة التي تنظم علاقاته بالكرة والساحة والحكم واللاعبين الآخرين من الناحيتين الزمانية والمكانية .

(١) ولعل من المناسب ان نذكر هنا ان مجال العلم عند حملة هذا الرأي أوسع منه عند حملة الرأي الاول ذلك لان كل موضوع يمكن اخضاعه للاسلوب العلمي يدخل ضمن حضيرة العلم . فالفيزياء علم ، والكيمياء علم والبايولوجي علم والطب علم وعلم النفس علم وعلم الاجتماع علم والجغرافية علم الخ . . ، غير ان هناك فروقاً بين هذه العلوم من حيث سعة انطباق الاسلوب العلمي عليها وعمقه . وكلما خضع الموضوع (سعة وعمقاً) للاسلوب العلمي اصبح اكثر علمية من غيره . وعلى هذا الاساس تصبح الفيزياء والكيمياء في مقدمة العلوم وتليها الموضوعات الاخرى . ومن الطريف ان ننبه القاريء الى ان حملة الرأي الثاني لا يعتبرون الرياضيات علماً مضبوطاً (عكس المتطرفين من حملة الرأي الاول) ذلك لان الرياضيات على حد زعمهم تستند الى مسلمات لم تثبت صحتها من الناحية العلمية =

(الحقائق والقوانين والنظريات) التي نتوصل اليها بوساطة ذلك الاسلوب . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان هذا الفريق من الباحثين لا يستبعد الحقائق والقوانين عن حضيرة العلم وانما هو يعتبرها ثانوية الاهمية والوجود لانه يعطى القدح المعلى للاسلوب العلمي الذي بوساطته توصل العلماء الى تلك الحقائق والقوانين .

اما الفريق الثالث من الباحثين ، وعلى رأسهم جون ديوي ، فيرى ان رأبي الفريقين الآنفي الذكر متكاملان لا متعارضان . وحجته في ذلك ان التلازم بين الاسلوب العلمي والطريقة العلمية يكاد يكون تاماً . وما الحقائق العلمية الا تلك الحقائق التي توصل اليها العلماء بالطريقة العلمية . والطريقة العلمية بدورها اسلوب يوصلنا الى اكتشاف الحقائق العلمية . وهكذا دواليك . غير ان الطريقة العلمية ، من وجهة النظر هذه ، تتصف من حيث نتائجها بان الحقائق والقوانين التي يتوصل العلماء بوساطتها الى معرفتها لا تكون ثابتة ثبوتاً مطلقاً (بغض النظر عن الزمان والمكان) بل يكون ثبوتها نسبياً[١] . وان جميع القوانين العلمية المعروفة (حتى

= المختبرية . وهم يستشهدون بجملة طريفة ذكرها الرياضي الانكليزي المعروف برتراند رسل عام ١٩٠١ جاء فيها :

„ Mathematics may be defined as the subject in which we never know what we are talking about, nor what we are saying is true.„

(١) ان هذا لا ينبغي ان يفسر بانه يتضمن ثبوت الطريقة العلمية نفسها او جمودها ذلك لان الطريقة العلمية نفسها في تطور مستمر نحو الدقة والوضوح . غير ان التغيرات التي تطرأ على الاسلوب العلمي لا تغير من كيانه الا بمقدار يجعله =

الرياضية منها) قوانين نسبية تعمل في مجالات معينة لا تتعداها ، وكثيراً ماتختلف باختلاف الزمان والمكان . وبقدر ما يتعلق الموضوع بالرياضيات (وهي اكثر العلوم ثبوتاً من حيث حقائقها وقوانينها) يمكننا ان نقول ان حاصل جمع ٢ + ٢ يكون احياناً ٤ ، واحياناً اخرى اقل من اربعة . ويكون حاصل الجمع احياناً ٢ فقط شريطة ان نترك الرموز ذاتها ونأخذ بنظر الاعتبار محتوياتها او مدلولاتها . فاذا جمعنا دينارين عراقيين مثلاً مع دينارين عراقيين آخرين في الوقت الحاضر كان المجموع اربعة دنانير عراقية . غير ان مجموع حجمين من الكحول مع حجمين من الماء لا يساوي اربعة حجوم غير ممزوجة ، بل اقل من ذلك . وسبب ذلك يعود الى ان المساحة التي تشغلها جزيئات سائلين ممزوجين يتوقف مقدارها على شدة تماسك جزيئات كل منهما . فاذا مزجنا سائلين شدة تماسك جزيئات احدهما اضعف منها في الآخر (كما هي الحال في الكحول والماء) نفذت بعض جزيئات السائل الاكثر تماسكاً من بين الفراغات النسبية الموجودة بين جزيئات السائل الآخر . وتكون النتيجة مشابهة لخلط مقدار من البرتقال مع مقدار من الرقي حيث ينفذ الاول بين فراغات الثاني . ويكون حاصل جمع ٢ + ٢ مساوياً ٢ اذا علمنا باننا اذا خلطنا غازين درجة حرارة كل منهما ٢° فان درجة الحرارة الجديدة لا تكون ٤° بل ٢°.

= اكثر علمية من ذي قبل بنظر القائمين بذلك التغيير . على حين ان التغيير في القوانين العلمية كثيراً ما يتناول كياناتها العامة . والتغيير في الطريقة العلمية يحصل عن طريق الآلات المختبرية وعن طريق المعادلات الرياضية في آن واحد بحيث تصبح اكثر دقة مما كانت عليه . يضاف الى ذلك ان التغيير في الاسلوب العلمي يكون نسبياً ابطأ منه في القوانين العلمية .

وتتجلى نسبية القوانين الرياضية فى الهندسة بوضوح ، فقد ذكر اقليدس العالم اليوناني المعروف في كتابه « مبادىء الهندسة » الذي وضعه عام ٣٠٠ ق.م على ما يظن جملة من القضايا الهندسية منها ، على سبيل التمثيل لا الحصر ، ان الخط المستقيم اقصر بعد بين نقطتين ، وان الخطين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا ، وان مجموع زوايا المثلث يساوي ١٨٠° او مجموع زاويتين قائمتين الخ . . . غير ان جمهرة من علماء الهندسة الذين جاؤا بعد اقليدس (وفي مقدمتهم كوس الالماني ١٧٧٧_١٨٥٥ ، ولابوكوفزكي الروسي ١٧٩٣_١٨٥٦ ، وبويلي الهنغاري ١٨٠٢_١٨٦٠ ،وريمان الالماني ١٨٢٧_١٨٦٦) قد ذكروا لاول مرة في تاريخ الفكر الانساني بان هندسة اقليدس التي مرت الاشارة اليها لا يمكن التسليم بان صحتها مطلقة في كل زمان ومكان . اي ان هناك مجالات محدودة نسبياً لتطبيقاتها ، وهناك مجالات اخرى لا تنطبق عليها تلك المبادىء الهندسية وانما يجب ان تبنى هندستها على اسس جديدة تختلف (وبعضها يغاير) الاسس الاقليدسية . وعلى هذا الاساس لا يمكن ان يقال ، كما ادعى اقليدس واتباعه ، بان الخطين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا الخ . . . وجرياً مع هذا المنطق الهندسي الجديد يمكننا ان نقول ان الخطين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا احياناً ويلتقيان في نقطة ما احياناً اخرى . وان مجموع زوايا المثلث يساوي احياناً ١٨٠° واقل من ذلك احياناً اخرى . وان الخط المستقيم اقصر بعد بين نقطتين احياناً والخط المنحني اقصر بعد بين نقطتين احياناً اخرى . كل ذلك يتوقف على المجال الذي تنطبق تلك الاسس الهندسية عليه . فالخطان المستقيمان اللذان نرسمهما على الورق او السبورة لا يلتقيان مهما امتدا ، ومجموع زوايا المثلث المرسوم على الورق او السبورة يساوي ١٨٠° ،

والمستقيم المرسوم على الورق او السبورة اقصر بعد بين نقطتين . على حين ان «المستقيمين» اللذين يرسمها المساح من اية نقطتين على سطح الارض يلتقيان في نقطة ما على سطحها حتماً ، وزوايا مثلث مرسوم على الارض بحيث يقع احد رؤوسه فى القطب (الشمالي او الجنوبي) ويقع رأساه الآخران في نهايتي خط الاستواء يميناً وشمالاً يساوي اكثر من ١٨٠° ، واقصر مسافة في الجو او على البحر او سطح الارض هي الخطوط الجيوديسيكية Geodesic Lines — وهي خطوط منحنية . فلو تتبعنا سير الطائرات بين نيويورك ولندن مثلاً لوجدناه مبنياً على تلك الاسس نفسها . فليست اقصر مسافة بينهما خطاً مستقيماً عبر فضاء المحيط الاطلسي بل هي خط منحن — An arc of a great circle — يتجه من نيويورك شمالاً عبر نوفاسكوشيا ماراً بنيوفوندلاند فايسلند . كما ان اقصر مسافة على سطح البحر بين سان فرانسسكو ويوكوهاما مثلاً ليست خطاً مستقيماً عبر المحيط الهادي‌ء وانما هي خط منحن كزميله السابق . ويعود السبب في ذلك الى ان هندسة الكون هندسة منحنية لا مستوية كما ظن اقليدس — وذلك لان الارض كروية لا مسطحة ، متحركة لا ثابتة حسب معلوماتنا الحاضرة[1] .

---

(١) ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد هو انه على الرغم من التسليم بهذه الحقائق العلمية منذ عهد كوبرنيكس (١٤٧٣-١٥٤٣) فان الكثيرين من الناس وبضمنهم المختصون بعلم الجغرافية يتكلمون عن شروق الشمس وغروبها والجهات الاربع الاصلية الخ . . . فى حين ان الشمس لا تشرق او تغرب بل الارض تدور حولها فيتعين الليل والنهار ، وان الشرق والغرب والشمال والجنوب الخ . . مصطلحات نسبية تختلف باختلاف المكان فتركيه تقع شمالي العراق ولكنها جنوبي روسيا . .

اما القول بان العالم يعمل باستمرار على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق الثابتة فليس صحيحاً على هذا الوجه من وجوه الاطلاق . ذلك لان العالم قد يهدم كثيراً من القوانين العلمية والحقائق التي يخيل لبعض الناس انها ثابتة ومسلم بها قبل بدئه في بحثه الذي قد يؤدي الى وضع قوانين او اكتشاف حقائق علمية جديدة . غير ان الظروف العلمية والاجتماعية لكثير من العلماء تقف حائلاً احياناً بينهم وبين اضافة شيء جديد للمعرفة الانسانية . فتنتهي جهودهم عند مرحلة الهدم فقط تاركين الانشاء العلمي لمن يأتي بعدهم من العلماء . ولكن العلم نفسه مع هذا في تقدم مستمر مع الزمن . ولعل ذلك راجع الى ازدياد عدد المشتغلين به جيلاً بعد جيل . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان العلم نفسه قد اتسع مداه مع الزمن كذلك وتشعبت فروعه . ويمكننا ان نقول ان العالم (اذا كان المقصود بالعالم النوع اي طبقة العلماء لا الفرد المعين) يعمل باستمرار على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق العلمية والقوانين العلمية الثابتة ثبوتاً نسبياً لا مطلقاً .

واذا نظرنا للعلم من زاوية اخرى امكننا ان نقول ان العلم (الحديث) لا يبحث في طبيعة الاشياء او في جوهرها كما اعتقد العلماء في الماضي اذ لم يتقدم العلم تقدماً محسوساً الا بعد ان خلع العلماء عن انفسهم فكرة البحث عن طبائع الاشياء واهتموا عوضاً عن ذلك بالبحث عن علاقاتها . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان العالم يسعى في مختبره الى وضع كثير من المواد والحقائق المعروفة بهيئات واوضاع مختلفة لاحداث علاقات جديدة بينها لغرض الاستدلال على خواص تلك المواد بالنسبة لبعضها . وما تقدم العلم الحديث بشكل عام وعلمي الفيزياء والكيمياء بشكل خاص هذا التقدم الكبير الذي حصل منذ مفتتح القرن

الحاضر الا نتيجة لسيطرة العلماء على كثير من الظواهر الطبيعية والكيميائية واستطاعتهم احداث تغييرات اساس في علاقاتها . فالعلم الحديث اذن لا يحاول حملته ان يبحثوا عن جوهر الاشياء بل هم يسعون الى الكشف عن سلوكها .

لقد استطاع الانسان في الوقت الحاضر بوساطة العلم ان يحل الغاز الكون واحداً بعد الآخر . فقد امتدت معرفة الانسان من الناحية المكانية (نتيجة لتقدم العلم واستعمال الآلات والاجهزة العلمية الحديثة مثل المايكروسكوب والتلسكوب بانواعهما المختلفة وحجومها المتباينة) حتى شملت الكون باسره مبتدئة من اصغر شيء في الطبيعة (وهو الذرة ومكوناتها والقوانين التي تخضع لها سلوكها) ومنتهية بالاجرام السماوية التي تبعد عن الارض ملايين الاميال . كما امتدت تلك المعرفة من الناحية الزمانية فشملت عمر الكون والارض والحياة .

فمن ناحية دراسة الذرة ومعرفة مكوناتها والقوانين التي تخضع لها سلوكها يمكننا ان نقول ان نظرية الكوانتم[1] تدعى ، كما ذكر لنا كل من نيل بوهر واللورد

---

(١) التي اوجدها العالم الالماني ماكس بلانك (١٨٥٨-١٩٤٨) في عام ١٩٠١ وفحواها ان اشعاع الطاقة الضوئية المنبعث من منبع للنور يأتي (من منبعه الى المكان الذي يقع عليه) على شكل وحدات متقطعة سماها بلانك Quanta ومفردها Quantum - وان حركتها تشبه من حيث الاساس حركة الارنب في سيره (فهي ذات قفزات متقطعة ومتلاحقة) وان كانت حركات الاشعاع اسرع بملايين المرات من حركات الارنب .

رذرفورد قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى ، ان الذرة[١] (على الرغم من صغرها واستحالة رؤيتها بالعين المجردة) قابلة للتجزئة والانقسام - فهي ليست عنصراً واحداً بل مكونة من عناصر هي (عند بوهر ورذرفورد) نواة ذات عدد كبير من البروتونات وعدد ضئيل من الالكترونات ، ويحيط بالنواة عدد كبير من الالكترونات . وقد استمر التسليم بذلك الى ان اثبتت بحوث كل من هايزنبرغ وشرودنكر (من الناحيتين النظرية والمختبرية) منذ عام ١٩٢٥ ان الذرة مكونة من نواة ذات بروتونات ونيترونات ، ويحيط بالنواة سبعة عناصر في غاية الدقة[٢] هي : بوزيترونات والكترونات وفوتونات ونيترونات وميسونات

---

(١) لقد حاول الانسان منذ وجوده على وجه البسيطة ان يتعرف على كنه الكون وطبيعة الاشياء والقوانين التي تخضع لها قوى الطبيعة . وكانت محاولاته الاولى غير ناضجة وتعليلاته فجة وسطحية ، من وجهة نظرنا ومقاييسنا الحاضرة . قال طاليس العالم اليوناني الذي عاش في القرن السادس ق.م ان جميع الاشياء في الطبيعة مكونة بعد التحليل الدقيق من الماء . ويزعم آخرون ومنهم ارسطو الذي عاش في القرن الرابع ق.م بان جميع الاشياء في الطبيعة (بعد التحليل الدقيق) مكونة من اربعة عناصر : التراب ، الماء ، النار ، الهواء ولكل خواصه . الهواء يصعد والتراب يهبط بطبيعته ليذهب الى محله «الطبيعي» . وادعى ديماكرتز الذي عاصر ارسطو بان جميع مكونات الطبيعة مؤلفة بعد التحليل الدقيق من الذرات . والذرة عنده اصغر عنصر تتكون منه المادة وهي غير قابلة للانقسام او التحليل . والاختلاف بين الاشياء ناتج عن اختلاف عدد ذراتها وكيفية تنظيم تلك الذرات .

(٢) لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ذلك لان العين مثلا مكونة ، من الناحية الفسلجية ، بحيث تستطيع ان ترى امواجاً ضوئية معينة الاطوال (فاذا —

وبروتونات ونيوترنوات و neutrons و photons و electrons و Positrons)
neutrino) و protons و mesons وان هذه العناصر يمكن ان يتحول بعضها الى
بعض فالفوتونات تتحول في ظروف خاصة الى الكترونات ، والبروتونات الى
نيترونات وبوزيترونات ، والميسونات الى الكترونات ، وقد نتج عن ذلك ان
علماء الذرة كانوا قد توصلوا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية الى الايمان علمياً في
امكانية تحويل بعض العناصر الى بعض آخر وذلك عن طريق تغيير محتويات نواة
ذراتها . فتسنى لهم ، بهذه الطريقة تحويل المادة الى طاقة واحدثوا على هـذا
الاساس القنبلة الذرية على اثر فلق نواة ذرة عنصر الاورانيوم وتحويل المادة الى
طاقة هائلة فتاكة ومدمرة[1] .

= زادت اطوالها على ذلك الحد او نقصت عنه بمقدار يبدو طفيفاً هو $\frac{٢}{١٠٠٠٠٠}$
سم اصبح من المتعذر على العين ان تبصر . فالاشعة فوق البنفسجية وامواج
Gamma في الراديوم والامواج الراديوية والامواج الكونية لا تستطيع العين
المجردة ان تدركها ويتوصل العلماء الى معرفتها باساليب علمية مختلفة كتسجيل
بعضها بوساطة الالواح الفوتوغرافية مثلا .

(١) ذلك لان الاجسام التي تتكون منها الطبيعة تختلف فيما بينها نظراً لاختلاف
عدد العناصر الموجودة في نواة ذرات كل منها . وقد اثبتت التجارب العلمية ان
ذرة غاز الهيدروجين اخف ذرات العناصر الاخرى من حيث الوزن وابسطها من
حيث التركيب لان نواة ذرة الهيدروجين مؤلفة من بروتون واحد . وتلي نواة
ذرة الهيدروجين في الخفة والبساطة نواة ذرة الهليوم وهي مؤلفة من بروتونين
ونيترونين . وهكذا تتدرج نواة ذرات العناصر صعداً حتى تنتهي بنواة ذرة
الاورانيوم المحتوية على (٩٢) بروتون و(١٤٦) نيترون ويصبح وزنه الذري =

يقول هايزنبرغ : انه باستطاعتنا ان نشبه الذرة بالمجموعة الشمسية من الناحية الجغرافية اذ توجد النواة في مركز الذرة كما توجد الشمس في مركز المجموعة

= (٢٣٨)وهو حاصل جمع محتويات عناصر نواة ذرته بالنسبة للهيدروجين الذي يقدر وزنه الذري بواحد لان في نواة ذرته ، كما ذكرنا ، يوجد بروتون واحد فقط .

ومما تجدر الاشاره اليه في هذا الصدد انه ليس من الممكن في الوقت الحاضر تحويل جميع العناصر الى بعضها . فلا يمكن مثلا فلق نواة ذرة الهليوم الى عناصرها الاربعة لكي يتحول الهليوم الى هيدروجين . اما القول من الناحية النظرية الرياضية بامكانية تحويل المادة الى طاقة فيعود الى البرت آينشتين الذي وضع معادلته المشهورة $E = MC^2$ (الطاقة = الكتلة مقدرة بالغرامات × مربع السرعة في الثانية مقدراً بالسنتمترات مع العلم ان الضوء يقطع ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية)وتعتبر معادلة آينشتين التي وضعها في مطلع هذا القرن من اعظم المعادلات العلمية في تاريخ الفكر الانسانى وعن طريقها استطاع العلماء ان يتلمسوا سبب استمرار الراديوم منذ ملايين السنين مع كونه يشع ضوء وحرارة باستمرار لان كميات ضئيله للغاية من كتلته تتحول الى مقادير هائلة من الطاقة الحرارية والضوئية . ويصدق الشيء نفسه على الشمس . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان كتلة الجسم ليست شيئاً ثابتاً كما يقول آينشتين بل هي تتغير بتغير سرعته Velocity ، فاذا اصبحت سرعة الجسم في حركته كسرعة الضوء (١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية) اصبحت كتلته ذات حجم هائل غير متناه ينتظم الكون باسره . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الفرق في كتل الاجسام المختلفة ناتج عن فرق في سرعة حركتها ، وكلما زادت سرعة حركة الجسم زادت كتلته . وبالعكس .

الشمسية . وتدور حول النواة عناصر سبعة كما تدور حول الشمس الكواكب السيارة المعروفة كالارض والمريخ وزحل الخ . . شريطة ان نتذكر كما يقول هايزنبرغ ان هناك فرقين رئيسين بين الذرة والمجموعة الشمسية هي (١) ان العناصر السبعة التي تحيط بنواة الذرة قابل بعضها للتحول الى بعض آخر[1] . (٢) ان العناصر المحيطة بنواة الذرة والتي تدور حول تلك النواة تغير مداراتها باستمرار فتسلك مسالك شتى اثناء حركتها حول النواة . فهي اذن تختلف عن السيارات التي تدور حول الشمس بمدارات ومحاور تكاد تكون ثابتة ومعروفة من حيث اسسها العامة على اقل تقدير . ولا يعرف بالضبط من الناحية العلمية سبب ذلك التغيير غير ان هايزنبرغ يميل الى الاعتقاد بانه ربما يكون ناشئاً من ان العناصر الصغرى المحيطة بنواة الذرة نظراً لصغر حجمها تسهل استجابتها للتأثر بالعوامل المحيطة بها خارج الذرة نفسها فتفقد توازنها نتيجة لذلك وتسير على غير هدى ، بمقاييسنا ، كما يسير الثمل . وان اكثر تلك العوامل اثراً في تغيير مسالك الذرات هي الاشعة[2] الضوئية التي تنطلق من عيني العالم أو من اجهزته اثناء ملاحظته للذرة لدراسة سلوكها وخصائصها .

---

(١) ولا يخرج هذا التحول كما سلف ان ذكرنا عن كونه تغييراً في عدد العناصر الموجودة في نواة الذرة . ولا يتم هذا التحول بسهولة اذ انه يستلزم حتما استنزاف مقدار كبير جداً من الطاقة الحرارية التي يحتاج احداثها الى كميات هائلة من الجهود المادية والفكرية .

(٢) ان مجرد النظر الى محتويات الذرة يجعلها تغير اتجاه سيرها . غير ان النظر لا يستطيع بحد ذاته ان يفعل ذلك ، ولكن الاثر يعود الى الضوء الناتج عن الابصار حيث يضغط (ضغطاً يتناسب مقداره مع شدة الضوء) على سطح الشيء الذي يقع ـ

واذا سلمنا بذلك جاز لنا ان نقول مع هايزنبرغ انه ليس باستطاعتنا ان نعرف معرفة علمية (مسالك العناصر الصغرى في نواة الذرة) تصدق في جميع الحالات. وعلى هذا الاساس تصبح القوانين العلمية التي تفسر سلوك العناصر التي تؤلف نواة الذرة مبنية على اساس قوانين الاحتمال المعروفة في علم الاحصاء . فنصف اتجاهات عامة لمجموعات عامة من الذرات لا حالات فردية خاصة . ومثل تلك القوانين في هذا الشأن كمثل قوانين الوفيات والولادات في عالم الطب . فنقول مثلا ان نسبة الوفيات في بلد ما تساوي ٢٠ ٪ أي ان من بين كل مئة ولادة يحتمل ان يموت عشرون مولوداً . ولكننا مع هذا لانستطيع ان نقول ان الطفل الفلاني سيكون حتماً ضمن العشرين بالمئة ، او ضمن الثمانين بالمئة بل ضمن احدى المجموعتين .. وقوانين التأمين ضد الحريق أو الغرق أو الموت .. وحساب المعدلات في المباحث التجريبية في قياسات الذكاء امثلة من هذا القبيل . واذا سلمنا بذلك كما يقول هايزنبرغ اصبح بمقدورنا القول بان قوانين الاحتمال ينبغي ان تمتد فتشمل تفسير قوانين الكون باسره لا ان يقتصر مفعولها على تفسير سلوك الذرة ومكوناتها .

= الابصار عليه . والضغط الضوئي مهما كان عالياً بالنسبة للسطح الذي يقع عليه لا يمكن في الوقت الحاضر قياسه نظراً لقلة مقداره بالنسبة للآلات التي بين ايدينا . ولكن محتويات الذرة مع هذا تستجيب له مهما كان ضعيفاً بمقاييسنا . وبما ان الضوء حسب نظرية الكوانتم يتألف من مجرى ذي مكونات صغري هي الكوانتا وان كل واحدة منها تحتوي على مقدار من الطاقة تختلف كميته باختلاف لون الضوء فان مقدار الضغط الذي تتركه حزمة من الضوء على سطح معين ماهو الا مجموع ضغوط جميع الكوانتا الموجودة في حزمة الضوء تلك .

ويعرف المبدأ (١) (الذي يدعو اليه هايزنبرغ كما سلف ان ذكرنا) علمياً بـ Indeterminacy or Uncertainty Principle .

ذلك ما يتصل بامتداد معرفة الانسان في الوقت الحاضر من الناحية العلمية الى اصغر مكونات الوجود . اما امتداد معرفته من الناحية المكانية فقد شمل معرفة الكثير من اجزاء الكون التي تبعد عن الارض ملايين السنين . كما توصل الانسان كذلك الى معرفة عمر الكون والمجموعة الشمسية ومكوناتها وعمر الارض والحياة وكيفية ظهورها على وجه البسيطة وامكانية حدوثها في اجرام سماوية اخرى (٢) .

---

(١) ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان آينشتاين يختلف وهايزنبرغ على هذه النقطة بالذات اختلافاً كبيراً ويقول بما ان الكون خاضع لقوانين ثابتة من حيث اسسها ، وان كان ثبوتها نسبياً لا مطلقاً ، فان مفعول تلك القوانين يجب ان يشمل سلوك العناصر الصغرى الموجودة داخل نواة الذره .

ولم تكتب الغلبة بشكل حاسم لحد الآن لاحد الرأيين السالفي الذكر . غير ان آينشتاين قد استطاع في العام الماضي ، كما سيأتي شرحه ، ان يوجد معادلة رياضيه معقدة تفسر حسب رأيه سلوك الاجرام السماوية والعناصر الدقيقة في نواة الذرة على السواء ، كان يشتغل على ايجادها كما يقول منذ حوالي ثلاثين عاماً وهي مبنية على اساس نظريته الحديثة المسماة بنظرية المجال الموحد Unified Field Theory .

(٢) فقد ثبتت علمياً في الوقت الحاضر ان الشمس جرم واحد من بين آلاف الملايين من الاجرام . وان تلك الاجرام توجد في العادة على شكل كتل ومجموعات يبلغ قطر بعضها حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية (الضوء يقطع في الثانية =

اما القوانين التي يخضع لها الكون وتفسر حسب مقتضاها حركة الاجرام السماوية ومظاهر سلوكها فهي فى الوقت الحاضر القوانين التي وضعها آينشتاين في

= ١٨٦٠٠٠ ميل اي انه يقطع في السنة ١٨٦٠٠٠ × ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥ ميلا) فيصبح طول القطر مقدراً بالاميال : ١٠٠٫٠٠٠ × ٦٠ × ٦٠ × ٢٤ × ٣٦٥ ميلا . وتسمى تلك المجاميع من الناحية الفلكية Galaxies or Nebulae ويبلغ عددها حوالي ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مجموعة . وهي في حركة مستمرة هائمة في هذا الفضاء الفسيح مبتعدة عن بعضها وعن الكون الذي نعيش فيه ، وتوجد بينها مسافات بعيدة للغاية . ومعظم تلك المجاميع مكون من الهيدروجين . وتقدر ابعادها عنا بوساطة مقارنة لون الضوء المنبعث عنها بلون ذلك الضوء عندما يصل الى الارض .

اما المجموعة الشمسية (الشمس وتوابعها) فاصبحت معرفة الانسان عنها في الوقت الحاضر واسعة وعميقة . فالشمس مثلا مكونة من مجموعة من النجوم يبلغ عددها حوالي (٣٠٠٠) مليون نجم . تدور حول المجرة مستغرقه (٢٢٥) مليون سنة فى الدورة الواحدة ، يبلغ وزن كتلتها حوالي ٢ × ١٠^٢٧ طناً ، تبعد عن الارض بحوالي ٩٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل ، يبلغ طول محورها حوالي مليون ميل ، وتبلغ درجة حرارة سطحها ما يقارب ١٠٫٠٠٠° فهرنهايت ، الهيدروجين اكثر الغازات توافراً فيها ، تشع فى الثانية الواحدة من الطاقة الحرارية والضوئية ما تقدر كميته باربعة ملايين طن . والسيارات التي تدور حولها تنقسم الى ثلاثة اقسام من حيث حجمها بالنسبة للارض فنبتون واورانوس وسترن وجيوبتر اكبر حجماً من الارض واجواؤها كثيفة ورطبة والحياة فيها غير ممكنة . والسيارات التي هي اصغر من الارض حجماً كعطارد مثلا ليس لها اجواء بالمرة والحياة فيها غير =

نظريته « النسبية » المشهورة(١) . لقد مرت نظرية آينشتاين بمراحل تطورية ثلاث بدأت اولاها عام ١٩٠٥ ، وانبثقت الثانية اثناء الحرب العالمية الاولى ووضعت اسس الثالثة قبل زهاء عامين .

= ممكنة . اما السيارات التي تقرب حجومها من حجم الارض كالمريخ والزهرة فيجوز حدوث الحياة فيها ان لم تكن قد حدثت فعلا بابسط اشكالها . ذلك لان الحياة لا توجد ما لم تتوافر شروط معينة اهمها توافر الاوكسجين ووجود جو معتدل الحرارة لا تزيد درجة حرارته عن ١٥٠° فهرنهايت ،

(١) لعل من المناسب ان نشير هنا الى ان تفسير الكون قد مر من حيث اسسه العامة قبل ظهور آينشتاين ، بمرحلتين هما مرحلة التفسير القديم (اليوناني) وبخاصة تفسير ارسطو ، ومرحلة التفسير الذي شاع في اوربا فى القرنين الماضيين وبخاصة تفسير نيوتن . ويسمى التفسير الاول فى العادة بـ Qrganismic Conception والثاني بـ Mechanistic Conception والثالث الحديث (تفسير آينشتاين) بـ Mathematical Description وفحوى الاول : ان كل ما هو موجود في الطبيعة (من كائنات حية او جامدة) خاضع لقوانين طبيعية واحدة . وان لكل شيء من مكونات الطبيعة مكانه الخاص به ، فالهواء يرتفع « بطبيعته » الى طبقات الجو ، والحجر يهبط « بطبيعته » الى القعر ، والحيوانات الكبيرة « بطبيعتها » تبني بيوتها على الارض ، والطيور على الاشجار . وهكذا . واذا تحرك الشيء فان « غايته » من تلك الحركة هي الوصول الى مكانه « الطبيعي » ، واذا اضطر على ترك محله فانه يقوم بسلسلة من التمرد والمقاومة لغرض الرجوع الى محله « الطبيعي » . فكما ان القطة التي يطاردها الكلب تضطر على تركها محلها مؤقتاً وتعود له بعد زوال الخطر . فكذلك الحال في الحجر الذي يرمى فى طبقات =

تعرف الاولى بالنسبية المكانية Spacial Relativity

وتدعى الثانية بالنسبية العامة General Relativiry

وتسمى الثالثة بنظرية المجال الموحد Unified Field Theory

والنظرية النسبية بمراحلها الثلاثة وحدة ذات أوجه ثلاثة يكمل بعضها بعضاً.

ولكي نوضح الاسس العامة للنسبية باوجهها الثلاثة يجمل بنا أن نتصدى لتوضيح

= الجو. اما التفسير الثاني للكون فمبني على قوانين نيوتن الثلاثة المعروفه. هي: (١) قانون الـ Inertia وفحواه ان الاجسام الساكنة تبقى كذلك الى ان تتعرض لتأثير قوة كبرى تضطرها على الحركة فتسير بحركة متجانسة وباتجاه مستقيم الا اذا اضطرت على تغيير تلك الحركة او ذلك الاتجاه نتيجة لقوة خارجية كبيرة اخرى. (٢) قانون الـ Force وفحواه ان سرعة الجسم المتحرك واتجاهه تتناسبان مع مقدار القوة المحركة (بكسر الراء) واتجاهها. (٣) القانون القائل بان لكل فعل رد فعل يتساوى معه بالقوة ويغايره بالاتجاه. والجاذبية عند نيوتن «قوة» كامنة في طبيعة الاشياء ويتوقف مقدارها على كل من الكتلة والمسافة. وفيزياء نيوتن بشكل عام تقول ان الطبيعة مؤلفة من اجسام Particles قابلة للحركة في مختلف الاتجاهات، يحتل كل منها حيزاً من الفراغ، ولكل منها كيانه الخاص به، وهو مؤلف من ذرات غير قابلة للتجزئة تتماسك مع بعضها بوساطة قوة الجذب، وان الجسم المتحرك او الساكن يبقى كذلك الا اذا تعرض لتأثير قوة خارجية ليس في مقدوره ان يقاومها، وان جميع الذرات التي تتكون الاجسام منها والاجسام التي تتكون منها الطبيعة تخضع لقوانين الجذب، وان لكل جسم في الكون كتلة ثابتة، وان الزمان منفصل عن المكان، والمكان فراغ تسبح الاجسام فيه والزمان فراغ تنتشر الحوادث فيه.

النقاط التالية ، من وجهة نظر آينشتين ، (١) المجال والمادة والطاقة (٢) المغناطيسية والكهربائية والجاذبية (٣) الزمان والمكان[1] .

(١) المجال والمادة والطاقة : يحدثنا آينشتين أحاديث شتى عن المجال field من الناحية الفيزيائية من حيث طبيعة تكوينه ومن حيث علاقته بالمادة واثره فيها وتأثره بها . والمجال بنظره وحده متصلة الاجزاء ، معقدة التركيب . واذا حدث تغيير ما في أية جهة من جهات المجال رافقه حتما تغيير في المجال كله من حيث محتوياته ومن حيث سلوكه . وهذا يعني ان جميع مكونات الطبيعة من اجرام سماوية وأشجار وأحجار وأبنية وآثاث وغازات وجبال وأنهار الخ.. موجودة دائماً في مجالاتها (لا مستقلة بكياناتها كما خيل لنيوتن) وان تغير علاقاتها الزمانية والمكانية معناه بلغة آينشتاين تغير مجالاتها . اذ ان الجسم من الممكن أن ينقل أو ينتقل من مجال الى آخر ، وانه دائماً موجود في مجال معين ، وان محتوياته وسلوكه يتأثران بالمجال الذي يوجدان فيه . ويختلف ذلك السلوك وتلك المحتويات باختلاف نوع المجال الذي يضمها . وما خصائص الاجسام التي تبدو كأنها ملازمة لها في الواقع كما يدعي آينشتاين الا أمور منتزعة انتزاعاً نظرياً تجريدياً مما يبدو على سلوكها في العادة من أمور متشابهة أثناء وجودها

---

(١) لقد نفى آينشتين وجود الاثير الذي قال نيوتن بان جميع الاجسام موجودة فيه وان الفراغ بين جسم وآخر مملوء (بنظره) بالاثير . وقد عادت فكرة وجود الاثير مرة اخرى قبل بضعة اعوام نتيجة لبحوث الاستاذ الفيزيائي المعروف Dirac .

في مجالات مختلفة ١) . أما المادة بنظر آينشتاين فنوع من انواع الطاقة ٢) التى يستحيل التوصل الى معرفة كنهها في الوقت الحاضر على كل حال . وان الفرق بين تركيب الكرسى (وهو مادة) وتركيب الانفجار (وهو حادثة) فرق نوعي لا كمي اذ ان كلاً منها في جوهره طاقة وينحصر الفرق بينهما فى كمية الطاقة المستوعبة فى كل منها ودرجة تكاثفها بالنسبة للمكان الذي تشغله .

(٢) المغناطيسية والكهربائية والجاذبية : كان يظن من الناحية العلمية حتى اواسط القرن الماضي ان كلا من المغناطيس والكهرباء والجاذبية « قوة » خاصة كامنة فى طبيعة الجسم الذي يحملها من جهة وانها مختلفة فيما بينها من جهة أخرى . غير ان تجارب Faraday بعد منتصف القرن الماضي قد أثبتت ان الاثر المغناطيسي أو الكهربائى يحصل نتيجة لظروف فيزيائية خاصة يحدثها المغناطيس (والكهرباء) فى المكان المجاور له سماها فردي بالمجال المغناطيسي والكهربائي على التوالي . وقد أدى ذلك بدوره الى اكتشاف حقيقة أخرى حول المغناطيس والكهرباء فحواها ان التيار الكهربائي محاط دائماً بمجال مغناطيسي . وبالعكس . اي ان فى حالات معينة يستطيع المجال المغناطيسي ان يحدث تياراً كهربائياً . فالكهرباء والمغناطيس ، على هذا الاساس ، شيء واحد من حيث الاساس ، وان اختلفا

---

(١) كمجال الجذب والمجال المغناطيسى - الكهربائى وغيرهما . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان آينشتين قد اعتبر فى نظرية المجال الموحد التي سيأتى شرحها ان المغناطيس والكهرباء والجذب مجال واحد .

(٢) ان اول من استعمل لفظة طاقة Energy في الفيزياء الحديثة هو العالم الانكليزي وليم تومسن (لورد كلفن) ١٨٢٤-١٩٠٧ ، وكان ذلك في عام ١٨٥٤ .

من حيث المظهر . فهما نوعان من أنواع الطاقة . أما الجاذبيـــة حسب رأي آينشتاين فهي حادثة تنتج عن التقعر الزماني - المكاني الحاصل نتيجة لوجـــود المادة أو هي تعديل في هندسة المكان . اي ان الجذب بعبارة أخرى ميل مستمر من قبل الكون لتعديل شكله المنحني وتقريبه من الاستقامة (١) .

(٣) المكان والزمان : لا يمكن فصل الزمان عن المكان من وجهة نظـــر آينشتاين . اي ان الزمان بعبارة أخرى هو البعد الرابع للاجسام (وابعادها الثلاثة الاخرى هو الطـــول والعرض والسمك) . ولهذا يقول آينشتاين : World is Space-time Continuum ثم ان القياسات الزمانيـــة (الثواني والدقائق والايام الخ) قياسات مكانية بالنسبة للارض من حيث موقعها بالقياس الى الشمس . فالساعة مثلا مقياس مكاني (قوس قدره ١٥° في حركة الارض بالنسبة للشمس . وما نسميه سنة يدل على دورة كاملة (من حيث المكان) للارض حول الشمس . وان ذلك كله شيء نسبي . فالسنة مثلا ، بالنسبة للارض ، ومن الزمن الذي تستغرقه الارض لاكمال دورتها حول الشمس ويقدر ذلك بـ (٣٦٥) يوماً كما هو معلوم . على حين ان السنة في عطارد تساوي (٨٨) يوماً من أيامنا ذلك لانه يكمل دورته حول الشمس بمقدار (٨٨) يوماً من أيامنا . واليوم مثلا هو الزمن الذي تستغرقه الارض لاكمال دورتها حول محورها (ويساوي ٢٤ ساعة)

---

(١) Gravity is due to a change in the curviture of space-time, produced by the presence of matter; it is a modification of the geometry of space. Gravitation represents a continual tendency of the universe to straighten itself out, action at a distance is banished.

اما في عطارد فان « اليوم » يساوي (٨٨) يوماً من أيامنا ذلك لانه يكمل دورته حول محوره فى تلك المدة . فاليوم والسنة فى عطارد شيء واحد من جهة ويختلف كل منهما عما هو حادث في الارض من جهة اخرى[1].

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان آينشتاين كان قد توصل قبل زهاء عام واحد الى نظرية جديدة سماها نظرية المجال الموحد اعتبر بموجبها الضوء والمغناطيس والجاذبية والكهرباء شيئاً واحداً ـ طاقة تظهر باشكال مختلفة . وقد توصل الى ذلك على ما يقول من الناحية النظرية (الرياضية) الصرفة لا من الناحية المختبرية التجريبية ، وبعد جهد علمي متواصل بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الاولى . وقد زعم آينشتاين ان جميع قوى الطبيعة تخضع لقانون واحد (وهو معادلة رياضية على جانب كبير من التعقيد[2]).

. . . .

---

(١) ومن الطريف ان نذكر هنا ان آينشتين فند فكرة الزمان المطلق والمكان المطلق عند نيوتن ، كما نفى فكرة فصل الزمان عن المكان . فاعتبر موقع كل منهما امراً نسبياً اي بالنسبة لموقع الشخص على الارض أو في الفضاء . ثم انه فند فكرة امكانية حدوث حادثتين في « آن واحد » فقال اننا لانرى الاجرام السماوية مباشرة بل عن طريق النور الذي يصل الينا منها . وان النور يسير بسرعة قدرها (١٨٦٠٠٠) ميل في الثانية . واننا لاندرى مايجري « الآن » في النجم المسمى Arcturus الذي يبعد عن الارض بمقدار ٣٨ سنة ضوئية . فاذا اردنا ان نرسل اليه رسالة بالامواج الراديوية فانها لاتصل اليه قبل عام ١٩٩٢ . في «الان» بالنسبة للارض تعني عام ١٩٩٢ بالنسبة للنجم الآنف الذكر..

(٢) هذا مايتصل بالتفسير الحديث للكون في ضوء العلم الحديث.. اما تفسير =

لقد تأثرت الحياة الحديثة بالعلم من حيث مادته ومخترعاته ومن حيث اسلوبه في البحث . فادى تطبيق العلم على بعض مظاهر الحياة الى تغييرات عميقة الغور وواسعة المدى في حياة الناس وفي علاقاتهم ببعضهم . وعن طريق المخترعات العلمية الحديثة اصبح الانسان في الوقت الحاضر يتمتع بكثير من الامور التي لم يتمتع بها القادة والملوك الذين عاشوا قبل فترة تطبيق العلم على الحياة . كما ان العلم ، من حيث اسلوبه في البحث ، قد وضع بيد الانسان سلاحاً نفاذاً لحل اسرار الكون واحداً بعد الآخر من جهة وساعده على القضاء على كثير من الخرافات والاوهام المتصله بتفسير الطبيعة او بصلة الانسان بها من جهة اخرى .

ويكفي لمعرفة اثر العلم ، من حيث مادته ومخترعاته ، في الحياة الحديثة ان نشير الى تقدم هندسة البناء والى تحسين وسائل المواصلات وزيادة سعتها بحراً وبراً وجواً ، والى تقدم في الاذاعة والطباعة ، والى اثر الكهرباء في الحياة بصورة عامة وبخاصة في التبريد صيفاً والتدفئة في الشتاء ، والى اثر علم الكيمياء في التغذية والاسمدة والعقاقير الطبية والصناعات الخفيفة والثقيلة والروائح العطرية والاصباغ والملابس والمخدرات وما شاكلها ، والى اثر علم الطب في تحسين الحياة وتخفيف الآلام والويلات عن المرضى وفي القضاء على كثير من الامراض والطواعين ، وفي معرفة طبيعة الامراض ومصدرها وعلاجها ، والى التحسينات الكثيرة التي دخلت الزراعة والري وما شاكلها ، والى فلق الذرة وتكوين القنبلة الذرية ،

= طبيعة الانسان والمجتمع فلا نرى حاجة الى الدخول في تفاصيلها . وبامكان من اراد الاطلاع على ذلك ان يرجع الى اي كتاب حديث في علم الحياة والتشريح وفروع الطب المختلفة وعلم النفس والاجتماع واضرابها .

والى انتاج القنبلة الهيدروجينية وآلاف المخترعات والآثار الاخرى ، والى النتائج التي تركها علم النفس وعلم الاجتماع والفسلجة وعلم الحياة والجيولوجي والجغرافية وعلم الاقتصاد واضرابها في حياة الانسان في الوقت الحاضر . ولعل من المناسب ان نشير هنا ان بعض العلماء فى روسيا والولايات المتحدة استطاعوا ان يحدثوا تغييرات كبيرة في الغمام ويجعلوا الغيث ينزل في الاماكن التي هي بحاجة اليه بوساطة رش المادة الكيمياوية Solid carbon dioxide powder .

ذلك ما يتصل بالآثار التطبيقية المادية للعلم الحديث اما الآثار الفكرية فلا تقل عمقاً وسعة عما ذكرنا . فقد ارتفع المستوى العام لتفكير الجنس البشري فى الوقت الحاضر بالنسبة له في القرون الوسطى . وقد اقلع الناس بصورة عامة وفى مقدمتهم العلماء وطلاب المعرفة العلمية عن كثير من الخرافات والاوهام المتصلة بتفسير كثير من الظواهر الطبيعية (كالخسوف والكسوف والمد والجزر واضرابها) وفي طبيعة الامراض ، كما ذكرنا ، ومصدرها وعلاجها .

واذا نظرنا الى العلم من زاوية اخرى امكننا ان نخلع عليه الصفات التالية :

(١) انه جهد انساني مبني على التعاون ، سواء أكان ذلك متصلاً ببحوثه النظرية (قوانينه ونظرياته) ام متعلقاً بجوانبه التطبيقية فى جميع مجالات الحياة . فمن الجانب التطبيقي يشترك الروسي والانكليزي والالماني مثلاً (من حيث اختراع الآلات والادوات ومن حيث التوصل الى معرفة اساليب استعمالها ومجالات ذلك الاستعمال) فى تلك العملية فينتفع بذلك كله المجتمع الروسي والانكليزي والالماني بقدر ما تنتفع به المجتمعات الاخرى . ومن ناحية نظريات العلم وقوانينه فانه يشترك في التوصل الى وضعها وتعديلها وتغييرها علماء كثيرون

بغض النظر عن فلسفاتهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية والوان بشراتهم ومواقعهم الجغرافية . فالعلم اذن ظاهرة ديمقراطيـة (اشتراكية) لا تخضع للاحتكار او الحصر .

(٢) العلم ظاهرة ديمقراطية (اشتراكية) كذلك وبخاصة من حيث اسلوبه في البحث . فهو يشجع ظاهرة الاختلاف فى الرأي وفقاً للمصلحة العلمية العامة . ولا يتفق مزاج البحث العلمي هو ومحاولة اتخاذ اسلوب العنف (بما فيه التهديد او الاسكات القسري او النفي او السجن او القتل واضرابها من العقوبات الشائعة فى الميدان السياسي) وسيلة لاستئصال اثر الذين يتوصلون الى وضع قوانين ونظريات علمية جديدة تختلف هي والسائد من القوانين والنظريات شريطة ان يتم التوصل الى تلك القوانين والنظريات بوساطة الاستعانة بمنطق العلم نفسـه في التجريب والمحاكمة المنطقية . وهذا يعنى بعبارة اخرى ان العلم لا يحاول التخلص من المعارضة بل هو يشجعها لانها قوام حياته وتقدمه شريطة ان تتبع المعارضة نفسها منطق العلم ذاته فى البحث ، من الناحيتين النظرية والتجريبية . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان القوانين العلمية والنظريات العلمية لا تكتسب صفتها القطعية (من الناحية النسبية بالطبع) في زمان ومكان معينين ما دامت هناك بحوث علمية تستند الى الاسلوب العلمي نفسه تظهر الشك فى صحتها . وفى هذه الحال اما ان يحدد مجال القانون العلمي غير المتفق عليه او يعدل او يبدل . غير ان الباحث يلاحظ ، من الجهة الثانية ، مع مزيد الاسف ، ان بعض « العلماء » المعاصرين (فى الولايات المتحدة وانكلترا وروسيا والمانيا) قـد خرجوا على هذا المبدأ العلمي فطغت مبادؤهم السياسية (وعقائدهم الدينية والاجتماعية) على تفكيرهم

العلمي وجملته يتأثر بها ويخضع لها في كثير من الاحيان . ويرجع السبب الرئيس في ذلك كله ان اولئك « العلماء » يخضعون ولو بطريقة غير مباشرة لتوجيهات بعض الساسة وقسم من رجال الدين ومعتقداتهم السياسية والاجتماعية والدينية التي لا تكون متفقة دائماً هي والمنطق العلمي . غير ان اولئك « العلماء » بدلاً من ان يخضعوا تلك التوجيهات والمعتقدات (غير العلمية) الى منطقهم العلمي (وهو امر على جانب كبير من الصعوبة من الناحيتين النفسية والاجتماعية) نراهم يفعلون العكس من ذلك تماماً . فيقومون باجراء تجارب مختبرية او يضعون نظريات يسمونها علمية « للبرهنة » على سلامة تلك العقائد والتوجيهات . يضاف الى ذلك انهم لا يحاولون البحث علمياً فى نظريات علماء لا يشاركونهم آراءهم السياسية بل يكتفون بمجرد وصمها بانها « برجوازية » او « رجعية » او « يهودية » او « ملحدة » او « شيوعية » وما شاكل ذلك من النعوت التي لا تمت الى العلم بصلة .

(٣) لقد سار العلم الحديث وبخاصة اسلوبه في البحث من الناحيتين النظرية والتجريبية ، منذ نشوئه قبل زهاء ثلاثة قرون الى الوقت الحاضر ، بخطوات متلاحقة منتقلاً بالتدريج من ظفر الى ظفر آخر اكثر منه عمقاً واوسع مدى . ولم يتراجع العلم في اتجاهه العام منذ نشأته حتى كتابة هذه السطور . وقد رافق ذلك كله ونتج عنه ان تصبح القوانين العلمية والمخترعات الصناعية فى كل مرحلة من مراحل تطور العلم اكثر تركيزاً منها فى المرحلة التي سبقتها . غير ان هذا لا ينبغي ان يفسر بانه يتضمن التسليم بان العلم لا يتراجع احياناً ، وفي حالات فردية ، عن مكانه الذي هو فيه الى مكان سبق ان مر به فى مرحلة سالفة . غير ان مثل هذا التراجع يعتبر وسيلة لاحراز تقدم جديد . اي ان العلم يتراجع احياناً

لكي يتقدم ، يتراجع في حالات فردية معينة وفي بعض الاحيان ليواصل سيره العام في احراز ظفر جديد يضاف الى نصر كان العلم قد حققه في السابق . وهكذا .

(٤) يشاهد من يدرس الاخلاق العلمية للمشتغلين بالعلم من الناحيتين النظرية والمختبرية انهم يتصفون بقدر ما يتعلق الامر ببحوثهم العلمية الصرفة ، بالامانة والنزاهة ، والاستسلام لنتائج البحث العلمي وان جاءت على خلاف ما كانوا يتوقعون (بعد ان يتثبتوا من سلامتها من الناحية العلمية بالطبع) . وهذا النوع من انواع التصرف والخلق لا نجده متوافراً ، مع مزيد الاسف ، في كثير من مجالات الحياة . فالعالم ، من حيث بحثه العلمي النظري او المختبري لا يميل الى الغش او التضليل او الكذب . ولكنه لا يتردد عن الهبوط عن مستويات الاخلاق العلمية عندما يتصدى للبحث في عقائده الدينية او فلسفته السياسية او مصالحه الخاصة . وسبب ذلك راجع الى انه في البحوث غير العلمية يتبع اسلوباً آخر في البحث يختلف عن الاسلوب الذي اعتاد ان يستعين به في بحوثه العلمية .

(٥) ومن ابرز صفات البحث العلمي وجود الحرية الفردية والتنظيم الاجتماعي جنباً الى جنب يسند كل منهما الآخر ويستند اليه . فالعالم ، كما سلف ان ذكرنا ، وان بدا انه قد يجوز له في بحثه ان يخرج على بعض قواعد العلم فان ذلك يصدر عن طريق الاسلوب العلمي من جهة وفي حالات تصبح فيها تلك القواعد مزعزعة من الناحية العلمية من جهة ثانية ووفقاً لقاعدة علمية حديثة التكوين او في طريقها الى ذلك من جهة ثالثة . اي ان حرية العالم مقيدة باستمرار بقواعد العلم في البحث من الناحية النظرية والمختبرية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان خضوع العالم لقواعد العلم

لا يحد ابداً من حريته الفردية فى مجال بحثه ضمن نطاق البحث العلمي المسلم به (تسليماً نسبياً) في زمانه ومكانه . والقوانين العلمية بدورها ، كما ذكرنا ، لا تكتسب صفتها القطعية (من الناحية النسبية الخاضعة للزمان والمكان) ما دام هناك علماء يعارضونها من الناحية العلمية . والمعارضة العلمية ، كما المعنا الى ذلك في فقرة سالفة ، مشجعة علمياً ومحببة كذلك . والعلماء يحترم بعضهم بعضاً وان اختلفت وجهات نظرهم العلمية . ولا تتسرب العداوة والبغضاء الى نفوسهم الا بالمقدار الذي تكون فيه غير ذات صلة بالبحث العلمي حيث تستند مثلاً الى عواطفهم او فلسفاتهم الاجتماعية او معتقداتهم الدينية .

(٦) ان القوانين العلمية والحقائق العلمية ، كما ذكرنا ، معرضة دائماً للتغيير او التحوير او التعديل او الالغاء . غير ان ذلك التغيير او التعديل او الالغاء لا يعتبر (من الناحيتين النظرية والتجريبية او من احدى الناحيتين فى اول الامر على اقل تقدير) وجيهاً ومسلماً به علمياً الا اذا خضع لمنطق العلم في البحث .

(٧) لا بد في البحث العلمي من وجود علاقة وثقى بين النظريات العلمية المجردة والتجارب المختبرية . تسبق النظريات العلمية التجارب المختبرية احياناً ويحصل العكس احياناً اخرى . فقد توصل آينشتاين مثلاً في مطلع هذا القرن ، بوساطة معادلات رياضية مجردة ، الي حساب درجة انحناء الاشعة الآتية من الشمس . وقد ايدت حسابه هذا الكشوف المختبرية التي قام بها بعض العلماء فى افريقية الغربية والبرازيل عندما كسفت الشمس عام ١٩١٩ . كما ان هايديكي يوكاوا ، العالم الياباني توصل فى عام ١٩٤٩ بوساطة معادلات رياضية الي اكتشاف عنصر جديد من عناصر الذرة (هو الميسون الذي مرت الاشارة اليه) . ولم يستعمل هذا العالم

(كما يحدثنا المحكمون الذين خلعوا عليه جائزة نوبل في الفيزياء قبل بضعة اعوام) اية تجربة مختبرية بل استعان بالقلم والورق وبعض المعادلات الرياضية ٠

غير ان تلك القوانين والنظريات لا تكتسب صفتها العلمية الثابتة (نسبياً) الا اذا ايدتها التجارب المختبرية ٠ ولا تستطيع التجارب المختبرية ، في الوقت نفسه ، ان تسير سيراً علمياً الا اذا استندت الى فرضية علمية او خضعت لنظرية علمية ٠ فاذا جاءت النتائج المختبرية مؤيدة لمنطق تلك النظرية من الناحية العلمية اصبحت تلك النظرية اكثر تركيزاً من قبل ٠ والعكس صحيح كذلك ٠ غير ان تركيز النظرية العلمية لا يتضمن ان تجارب اخرى في المستقبل القريب او البعيد لا تعرض تلك النظرية الي التزعزع فيطرأ عليها تغيير او تبديل ٠ اي ان التجارب المختبرية كثيراً ما تساعد على اجراء تعديلات كبيرة او صغيرة في بعض النظريات ٠ وتعمل هذه النظريات بدورها على توجيه سلوك التجارب المختبرية اللاحقة لدعم نفسها او تعديلها وهكذا دواليك ٠ وكلما كثر عدد التجارب المختبرية وتعددت حالاتها وتنوعت ظروفها كان ذلك من العوامل التي تساعد على فحص صحة النظريات العلمية ٠

(٨) من الممكن ان يكون سبب حدوث حادثة معينة راجعاً الى عامل واحد احياناً او الى اكثر من عامل واحد احياناً اخرى ٠ ومن المستطاع كذلك اعتبار بعض ما يبدو (كأنه نتائج) اسباباً ، وانه ليس من السهل تجريد الاسباب عن نتائجها من الناحية العلمية [1] ٠

---

(١) غير ان تحليل الظواهر الطبيعية (لغرض معرفة اسباب حدوثها ونتائجها) ليس من الامور اليسيرة ٠ ويكفي لتبيان ذلك ان نشير الى ما بذله العلماء المعاصرون من جهود فكرية ومادية في سبيل التوصل الى معرفة «سبب» =

(٩) ان خضوع الظواهر الطبيعية للقوانين العلمية شيء يختلف تمام الاختلاف عن خضوع العبد الى سيده كما ذكرنا . ذلك لان القوانين العلمية ليست اموراً قائمة بذاتها لكل منها كيانه الخاص به ، وانما هي اوصاف لعلاقات معينة بين تلك الظواهر .

= حدوث الملاريا مثلا . وتتجلى في اساليب بحثهم كذلك الصلة بين النظريات والتجارب المختبرية التي اشرنا اليها في فقرات سالفة .

كان المشتغلون في موضوع مرض الملاريا قد توصلوا في مطلع القرن الحاضر (بالاستناد الى بحوث من سبقهم من الناحيتين النظرية والتجريبية من جهة وبالاستعانة بمحاولاتهم الخاصة من جهة اخرى) الى القول بان مرض الملاريا يقع ضمن مجموعة الامراض التى تنقلها الحشرات . فاصبح هذا الفرض بدوره عاملا من عوامل تحديد بحوثهم التجريبيه وتوجيه انظارهم عملياً في ذلك المجال دون سواه . وقد توصل بعضهم بعد درس وتمحيص ليسا بالقليلين الى صحة ذلك الفرض . فقويت الفكرة القائلة بان مرض الملاريا هو من ضمن الامراض التى تنقلها الحشرات ، وقد عمل ذلك بدوره على البحث في نوع الحشرات التي تحمل ذلك المرض ، فتركزت البحوث العلمية في هذا المجال دون سواه وتوصل اصحابها الى القول بان البعوض هو الذي ينقل هذا المرض . ثم تحدد البحث بعد ذلك كثيراً حيث وجد ان نوعا معيناً من البعوض دون سواه ينقل هذا المرض وهو بعوض ألـ Anopheles . ولم يقف البحث عندهذا الحد بل تعداه الى ضرورة معرفة الحالات التي ينقل البعوض المار ذكره مرض الملاريا حيث وجد ان ذلك البعوض بالذات لا ينقل دائما مكروب مرض الملاريا بل هو يفعل ذلك فى حالات خاصة . فتركز البحث على دراسة تلك الحالات الخاصة حيث ظهر ان ذلك النوع من =

يقول ديوي :

Electricity, heat, light, etc., are names for ways in which definite observable concrete phenomena behave in relation to one another. Reference to electricity or heat, etc., is but a shorthand reference to relations between events which have been established by investigation of actual occurences.

= البعوض لايحمل مكروب المرض الا اذا لسع شخصا مصاباً بذلك المرض . وبهذه الطريقة استبعد العلماء جميع الفرضيات الاخري لعدم تأييدها من ناحية البحث التجريبي . وقالوا ان مكروب الملاريا لا ينقله الا نوع معين من البعوض في حالات معينة فقط شريطة ان تلسع البعوض شخصا مصابا بالمرض ومن ثم تلسع شخصاً آخر سليما . وقد ايد ذلك ما احدثه ردم المستنقعات من آثار في تقليل المرض عن طريق قتل البعوض ومنه من التفريخ . وفي ضوء ماذكرنا يمكننا ان نقول ان البحث العلمي المركز يسير (نظريا وتجريبياً) على المبدأ الآتى : If-and-only-if,then ومجال البحث العلمي في هذا الموضوع لازال مفتوحا وسيبقى كذلك . وسيستمر التسليم بصحة ما توصل اليه العلماء الى ان يحدث مالايتفق معه نظريا وتجريبياً . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ان علماء الاجتماع المعاصرين (وبخاصة فى الولايات المتحدة) يقومون بدراسات علمية احصائية لكثير من المشكلات الاجتماعيه (كالطلاق والزواج اوالتعصب او البطالة الخ . . .) لمعرفة اسبابها ونتائجها ولا يعدم المتتبع لبحوثهم من ان يلاحظ صعوبة فصل الاسباب الاجتماعيه عن نتائجها من جهة وصعوبة عزل بعض العوامل المؤثرة عن بعض آخر من جهة ثانيه وصعوبة التسليم بان هناك سببا واحد لحدوث المشكلات الاجتماعية في جميع الحالات وفى مختلف البيئات والازمان من جهة =

والقول بان الظاهرة الفلانية خاضعة للقانون الفلاني — يعني ان ذلك القانون مسيطر عليها قد تحدر الينا من اليونان حيث كان الخضوع يفسر تفسيراً اجتماعياً يتضمن خضوع العبد لسيده . الواقع ، كما يحدثنا ديوي ، ان خضوع الظواهر الطبيعية للقوانين العلمية شيء يشبه خضوع سائق السيارة لقوانين السير حيث تكون تلك القوانين وسيلة لتنظيم علاقات ذلك السائق بالسيارة والشارع وشرطي المرور والمارة والسواق الآخرين من الناحيتين الزمانية والمكانية .

. . . .

لقد أدى تقدم العلم (من جوانبه النظرية وزيادة أثره من النواحي التطبيقية في الحياة التي يحياها الناس) ببعض مفكرى القرن الماضى وبخاصة فى فرنسا وانكلترا الى ان يفرضوا بان ذلك التقدم العلمي سوف يقضي على الفقر والجهل والمرض من جهة وسيزيد من التفاهم والتعاون بين الاجناس البشرية المختلفة من جهة اخرى . فمن ناحية التقدم العلمي النظري اعتقد اولئك المفكرون بان كثيراً من العقائد البالية (بالنسبة للعلم الحديث) والتقاليد والخرافات (بالنسبة للعلم كذلك) المنتشرة بين الناس في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة سوف تنهار امام العلم وان العلم نفسه سوف يكون المرشد العام لسلوك الافراد والجماعات . ومن الناحية

= ثالثة وعمليات التحقيق التي تقوم بها المحاكم والشرطة في الوقت الحاضر لمعرفة اسباب ارتكاب الجرائم من اوضح الامثلة على صعوبة التسليم بوجود عامل واحد (بغض النظر عن نوعه) في حدوث تلك الجرائم . وكلما كان التحقيق نزيها ودقيقا وعلميا ظهر تعقد المشكلات وتشابكها من ناحية تعدد اسباب الحدوث وصلة تلك الاسباب بالنتائج ،

التطبيقية ظن اولئك المفكرون بان العلم سوف يستعمل فى مجالات كثيرة من شأنها خدمة البشرية ورفع مستواها الفكري والعاطفي والمادي . غير ان الحروب العديدة (داخل حدود الامة وبين الامم) التي شهدها العالم منذ انتهاء الثورة الفرنسية ـ بما فيها حربان عالميتان استعملت فيها مختلف وسائل التدمير التى اوجدها العلم الحديث ـ قد حدت بكثير من مفكري القرن العشرين الى ان يصموا العلم بانه اداة هدامة ومخربة . هذا من جهة تطبيقات العلم على الحياة . اما من الناحية النظرية فيدعي هؤلاء المفكرون بان العلم قد ادى الى زعزعة عقائد الناس إذ نشر بينهم الفوضى الفكرية والالحاد وعدم التقيد بكثير من المثل العليا التي سبق للمجتمع البشري أن خضع لهـا واستوحى منها توجيهات معينة تتصل بخلقه وسلوكه .

الحق كما يقول ديوي أن فى كلا الرأيين تطرفاً ومبالغة من جهة وشيئاً من الصواب في الحكم فى جهة اخرى ووجه الصواب عند حملة الرأى الاول مستمد (بقدر ما يتعلق الامر بالجوانب النظرية للعلم) من استخدام العلم نفسه وسيلة للتثقيف والقضاء على كثير من الخرفات الفكرية والاجتماعية المختلفة ومساهمته الفعالة في مكافحة الطواعين الفتاكة والامراض المعدية . اما فى النواحي التطبيقية فتظهر وجاهة رأيهم في الاستعانة بالمخترعات العلمية المختلفة فيما يتعلق بتحسين الجوانب المادية للحياة وبخاصة مايتصل منها بشؤون البيت والمواصلات اما وجه الصواب في رأي الفريق الثاني فمستمد (فيما يتعلق بالجوانب التطبيقية للعلم) من الاستعانة بالعلم الحديث فى التخريب والتدمير أثناء الحروب كاستعمال المايكروبات والقنابل الذرية والهيدروجينية وشاكل ذلك .

أما من النواحي النظرية فتتجلى وجاهة رأيهم في عزوف كثير من الاشخاص عن كثير من العقائد والتقاليد ـ ذلك العزوف المبني على فهم سطحي للعلم . ولكن في الرأيين الانفى الذكر مع هذا خطأ مشتركا هو اسنادهما حسنات العلم وسيئاته الى العلم ذاته في حين ان تلك الحسنات والسيئات من الناحيتين النظرية والتطبيقية ناتجة عن طريقة استعمال العلم لاعن العلم نفسه . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان العلم ليس مسؤلا عنها بل الانسان الذي يسخر العلم لمآربه : فالطائرة مثلا لاتلقي من نفسها القنابل على المدن المكشوفة في الحرب ! كلا . ولا هي من نفسها تنقل المسافرين عبر المحيطات او تسعف المرضى والمنكوبين بالادوية والطعام . بل هي آلة تفعل هذا وذاك (تنشىء وتهدم) تحت أمرة من يوجهها من الناس . والمركبات الطبية والكيمائية تستعمل لقتل الذات البشرية او لمعالجة المرضي به وهي لا تفعل ذلك من نفسها ابداً وانما تتوقف آثارها تلك على النسب التي تخلط بها اجزاؤها ـ وهذا بدوره امر يقوم به الانسان نفسه . وهكذا هذا من ناحية الجانب التطبيقي للعلم . اما من حيث القوانين العلمية فيمكننا ان نقول كذلك بانها لاتزعزع من نفسها التقاليد والعقائد بل الانسان الذي يوجدها ويفسرها هو المسؤل عن ذلك .

فالعلم اذن سلاح ذو حدين (مثل الماء والنار) قد يكون سيداً جباراً أو خادماً مطيعاً للجنس البشري . كل ذلك يتوقف بالطبع على كيفية استعماله . يعتقد كثير من العلماء وفي مقدمتهم جون ديوي بان سوء استعمال العلم في الوقت الحاضر راجع الى ان القوانين الاخلاقية والعقائد الدينية والسياسية (للجنس البشري) على اختلاف أنواعها قد نشأت قبل نشوء العلم : أي انها بعبارة أخرى

من وجهة نظره ، تعود الى تأخر البشرية فى مقاييسها الخلقية والاجتماعية بالقياس الى تقدم المعرفة العلمية . فلا غرو ان رأيناه يعزو جميع المفاسد الاجتماعية السائدة الى تلك الفجوة الواسعة والعميقة التي تفصل العلم (الآخذ بالتقدم السريع) من حيث مادته وأسلوبه عن القوانين الخلقية والمبادىء الاجتماعية (التي نشأت قبل نشوء العلم وجمدت على ما كانت عليه) . وبما ان القوانين الخلقية (غير العلمية) التي يعتنقها الناس في العادة ويخضعون سلوكهم وفقاً لمستلزماتها هي المتغلبة (فى زمن من الازمان) على الجوانب العلمية المنتشرة فى ذلك الزمن نفسه خضع العلم لها ونتج عن ذلك سوء استعماله . والصراع بين العلم وتقاليد المجتمع صراع قديم وعنيف ، وهو صراع موجود فى كل زمان ومكان من حيث الاساس وان اختلف من حيث المظهر أو الشكل ومن حيث السعة والعمق باختلاف الزمان والمكان . واذا تتبعنا تاريخ نشوء العلم وارتقائه ظهر لنا ان البحث العلمي المنظم بدأ أول ما بدأ فى أمور أبعد ما تكون عن الانسان من ناحية المكان والزمان والاثر فى الحياة حيث بدأ كل من كاليلو وكيلر وكوبرنيكس قبل حوالي ثلاثة قرون ابحاثه التجريبية فى علم الفلك وفى قوانين سقوط الاجسام وفى مركز الارض بالنسبة للشمس والكسوف الخ . . . وكان غرضهم من ذلك هو البرهنة التجريبية على صحة (او خطل) التفكير الذي كان شائعاً على عهدهم (وقد تحدر من فلسفة أرسطو) حيث كانت الارض تعتبر ثابتة ومسطحة الشكل وتقع في مركز الكون . فاستطاع هؤلاء العلماء وأنصارهم أن يبرهنوا على فساد تلك الآراء من الناحية التجريبية . غير ان آراءهم تلك كانت تتعارض في بعض أوجهها مع السائد من العقائد والتقاليد

فيما يتصل بمركز الأرض في الكون الخ ... الامر الذي أثار المجتمع وبخاصة رجال الدين ومن ورائهم الفئة الحاكمة فناصبوهم (وآراءهم) العداء . ومن علم الفلك تقدمت الطريقة العلمية ظافرة لتحقيق ظفر آخر مماثل في حقل الفيزياء والكيمياء . وقد أدى ذلك بدوره (بقدر ما يتعلق الأمر بصلته بالسائد من العقائد والتقاليد) الى حدوث نزاع شديد بين حملة العلم من جهة و بين المدافعين عن التقاليد (لاعتقادهم بصحتها أو لانها تحمي مصالحهم المركزة) من جهة أخرى . و بعد ان سجلت الطريقة العلمية ظفراً لامعاً في هذين الحقلين أخذت تستعمل لدراسة تركيب الانسان والكائنات الحية الأخرى عن طريقة علم الحياة والتشريح والعلوم المماثلة . فاصطدمت كذلك بالشائع من التقاليد والعقائد . وكان الظفر الأخير في جميع تلك المعارك بجانب الطريقة العلمية بعد أن عرض ذلك حملتها الى شتى صنوف العقاب . وطريقة التجريب والتفكير الموضوعي (الطريقة العلمية) متجهة في الوقت الحاضر نحو دراسة الظواهر الاجتماعية والتاريخية المتعلقة بالافراد والجماعات . غير ان هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيلها سنبحثها في الفصل القابل .



الفصل العاشر

منطق العلم والحوادث التاريخية

يجمل بنا قبل التصدي لدراسة الصلة بين العلم والتاريخ ان نبحث في تعريف كل منهما تعريفاً جامعاً مانعاً(١) على القدر المستطاع . وبما اننا سبق ان بحثنا تعريف العلم في الفصل السابق فاننا سوف نبحث تعريف التاريخ فى هذا الفصل ليتسنى لنا بحث العلاقة بينهما .

تقابل كلمة « تاريخ » في اللغة كلمتي Date و History في اللغة

---

(١) اعتاد كثير من الباحثين البدء بتعريف ما يبحثون فيه . والغرض من ذلك على ما اظن هو ان يتصل الباحث بالقاريء او السامع اتصالا فكرياً عن طريق تحديد معانى الالفاظ والعبارات التى يشتمل عليها بحثه . وباتصاله هذا يستثير في القاريء او السامع وعياً يهيؤه لادراك المعنى الذي يقصده . اما اذا اغفل الباحث تحديد معانى الالفاظ والعبارات التى يستعملها في بحثه فان هناك احتمالا لتسرب الغموض او الابهام اليها . غير ان التعريف من الجهة الثانية ليس من الامور اليسيرة . ويلاحظ المتتبع لفن التعريف انه حقل معرض للالتباس حتى ليخيل للمرء بان الحاجة قد اصبحت ماسة الى ما يصح ان يدعى بتعريف التعريف .

الانكليزية (١) . وبقدر ما يتعلق الامر بمعنى علم التاريخ History يمكننا أن نقول ان بعض الباحثين يستعمل تلك الكلمة لتدل على جميع ما حدث من الوقائع الطبيعية والاجتماعية فى هذا الكون الفسيح منذ نشوئه الى قراءة هذه السطور . ويتضمن هذا المعنى لكلمة « تاريخ » ان معرفة الانسان لما وقع من الحوادث (في جميع الازمان والامكنة) لا تستطيع أن تستوعب الحوادث التاريخية كلها . اي ان المعرفة التاريخية عند الانسان هي أقل مما حدث(٢) فعلا

(١) جاء في مختار الصحاح : الجزء الاول ص ١٥ ما يلي . « ارخت الكتاب اذا جعلت له تاريخاً . . . واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبى الى المدينة » ويقول صاحب محيط المحيط الجزء الاول ص ٣ : « ارخ الكتاب يارخه ارخاً وقته . . . والتاريخ تعريف الوقت . . . وعلم التاريخ علم يتضمن ذكر الوقائع ولاسيما ماكان منها متعلقاً بالقبائل والاقاليم مع تعيين اوقاتها وبيان اسبابها ومسبباتها » وبما ان دراستنا تنصب على التاريخ بمعنى History او علم التاريخ كما يسميه صاحب محيط المحيط فسوف نستعرض أهم تعاريفه التي عثرنا عليها .

(٢) وجرياً مع هذا المنطق يصبح لكل شيء تاريخ . فللكون الذي نعيش فيه تاريخ (بدأ كما يحدثنا العالم الفلكي البريطاني السر سبنسر جونز قبل زهاء خمسة آلاف مليون سنة) . وللارض تاريخ بدأ قبل حوالي بليوني (الفي مليون) سنة ، وللحياة تاريخ بدأ قبل حوالى الف وسبعمائة مليون سنة ، ولظهور الانسان على وجه البسيطة تاريخ بدأ قبل حوالى مليون سنة وللحضارة البشرية تاريخ بدأ قبل حوالى ستة آلاف سنة . . . ولنهر دجلة تاريخ الخ . والتاريخ بشكله العام ذو مظاهر ثلاثة مترابطة تختلف من حيث امتدادها في الزمان والمكان هي : تاريخ الكون =

وتستعمل كلمة « تاريخ » أحياناً لتعبر عن الآثار التي يتركها وقوع الحوادث في صفحة الطبيعة وفي ثنايا المجتمع. ولا يشترط حتماً ان يكون الانسان ملماً بجميع تلك الآثار . اي ان التاريخ بهذا المعنى أوسع مدى مما استطاع الانسان ان يعرفه فعلا ، ومما في استطاعته أن يعرفه في اية فترة من فترات حياته . غير ان معرفة الانسان لجميع الوقائع التاريخية مع هذا ليست مستحيلة . أما الآثار التي اندرست أو عفت معالمها فلا تدخل ضمن موضوع التاريخ حسب هذا التعريف (١) .

وفي هذه المنطقة بالذات يتميز هذا التعريف للتاريخ عن التعريف الذي سلفت الاشارة اليه . وتستعمل كلمة « تاريخ » أحياناً لتدل على ما استطاع الانسان أن يعرفه من الحوادث الماضية (طبيعية واجتماعية) . ولا يشترط في هذه

= من الناحية المادية وهو اكثرها امتداداً حيث يتكون من عوالم غير متناهيه ولم يدرك الانسان الا منه مقداراً ضئيلا (ولكنه هائل بمقاييسنا) يقدر طول قطره بحوالي الف مليون سنة ضوئية (السنة الضوئية هي مايقطعه الضوء من المسافه في سنة مع العلم انه يسير بسرعه قدرها ١٨٦٠٠٠ ميل الثانية اما عمر الارض فقد توصل العلماء الى معرفته عن طريق الدراسة الاشعاعية لاعمار الصخور المختلفة وحساب تحول بعض العناصر الى بعض آخر .

(١) انها كانت تاريخاً بالطبع قبل ان تتلاشى تماماً عن الوجود حسب مقاييسنا فوقع اقدام الجيوش العربية في شمالي افريقية مثلا لا يقع ضمن التاريخ لاندثاره تماماً على حين انه كانت تاريخاً في الوقت الذى حدث فيه او بعد ذلك بزمن قصير . والاوامر الشفوية التي اصدرها هرون الرشيد لقواده ووزرائه لاتقع ضمن التاريخ في الوقت الحاضر لاختفائها من الوجود في حين انها كانت تاريخاً في الوقت الذى اصدرها فيه على الاقل ، وهكذا .

المعرفة أن تكون مدونة تدويناً خطياً بل هي تشتمل (بالاضافة الى ما هو مدون على الورق والجلد والجدران من آثار بشتى اللغات ومختلف الرموز) على جميع البقايا التاريخية للمعابد والكهوف والجسور والأبنية على اختلاف انواعها .
وهناك استعمال آخر للتاريخ يقرب من المعنى الذي سلفت الاشارة اليه وضعه على ما يظن المؤرخ اليوناني المعروف هيردوتس ونحواه ان التاريخ يشتمل على التحقيق في الحوادث الماضية . ولا يتم هذا التحقيق من وجهة نظره الا اذا قام به المؤرخ نفسه وسافر الى الاماكن التي يريد دراستها من الناحية التاريخية . وبمرور الزمن أخذت كلمة « تاريخ » تستعمل للدلالة على جميع الحوادث التي وقعت نتيجة لافعال الانسان فى مختلف صورها وتعدد مجالاتها . وهذا التعريف للتاريخ هو المتفق عليه فى الوقت الحاضر واننا في هذه الدراسة سوف نجعله أساساً للبحث .
يدون المؤرخون حوادث التاريخ بعد وقوعها بزمن طويل أو قصير . وكلما بعد الزمن أو المسافة بين وقوع الحادثة التاريخية وبين تدوينها أصبح من الصعب توخي الدقة في تسجيلها . وإذا سلمنا بذلك أصبح بمقدورنا القول بان المؤرخ الذي يستطيع أن يدون الحوادث (القريبة منه في الزمان والمكان) التي يشهد وقوعها بشكل مباشر من المحتمل أن يكون أكثر دقة من المؤرخ الذى يدون حوادث بعيدة عنه فى الزمان والمكان . غيران المؤرخ القريب من الحادثة من الجهة الثانية كثيراً ما يفتقر تسجيله الى الدقة وبخاصة (١) في القضايا التاريخية التي تتعلق بعقائده الدينية أو المذهبية أو السياسية (٢) في الحوادث التاريخية التي لا يستطيع أن يستوعب جميع تفاصيلها وملابساتها (٣) في الامور التي تتصل بالسلطة الحاكمة

في عهده . وكلما كان الضغط الفكري في عهد المؤرخ شديداً صعب كثيراً عليه ان يقوم بواجبه على وجهه الاتم(١) . هذا ما يتصل بتعريف التاريخ وتحديد مجاله . اما ما يتعلق بصلة التاريخ بالعلم فيمكننا أن نبحثها على الشكل الآتي :

يلوح لي أن البحث التاريخي يشتمل على ناحيتين ـ وصف ما وقع من الحوادث واصدار أحكام مختلفة عليه . ويظهر الاختلاف بين المؤرخين في الناحية الثانية أكثر منه في الناحية الأولى . ويمكننا أن نجمل أسباب الاختلاف في المجالات الثلاثة التالية ـ طبيعة العصر الذي يعيش المؤرخ فيه وطبيعة المجتمع الذي ينتمي اليه وعوامل شخصية مزاجية تتصل بكل مؤرخ .

وفي ضوء ما ذكرنا يمكننا أن نقول ان الاختلاف في الرأي قد يحصل بين مؤرخ ومؤرخ يعيشان في الزمان نفسه والمكان ذاته أو في المكان نفسه ولكن في زمنين مختلفين أو في زمن واحد ومكانين مختلفين أو في مكانين مختلفين وزمانين مختلفين . ويصدق الشيء نفسه على الاتفاق في الرأي . ويعود سبب هذا الاتفاق وذلك الاختلاف الى نوع المسلمات الفكرية والعاطفية عند كل منهما . واعني بذلك ما ينطوي عليه الانسان من معتقدات لا تقبل عنده الشك أو الجدل كمبدأ

---

(١) ولعل افتقار المؤرخين الى الدقة هو العامل الرئيس الذي دفع نابليون بونابارت الى ان يصف التاريخ بانه « خرافة متفق عليها » History is a fable agreed upon .

قال الرصافي :

فما كتب التاريخ في كل ما روت	لقرائها الا حديث ملفق
نظرنا لامر الحاضرين فرأبنا	فكيف بامر الغابرين نصدق

التوحيد عند المسلمين مثلا و كمبدأ التثليث عند المسيحيين وما شابه هذا وذلك مما نستطيع أن نسمي منه الكثير . فتتفق أحكامهما اذا استندت الى مسلمات فكرية وعاطفية واحدة وتختلف في حالة اختلاف المسلمات التي تستند اليها . فلا غرابة إن رأينا مؤرخاً معيناً يتفق مع مؤرخ آخر فى بعض القضايا ويختلف عنه فى بعض آخر وان عاصره فى الزمان والمكان أو في أحدهما أو اختلف عنه في كليهما . ومن الطريف أن نذكر هنا ان كل مؤرخ يعتبر ان المسلمات التي يستند اليها في أحكامه هي الاساس لاختبار وجاهة القضايا التاريخية التي يبحثها . فما كان متفقاً معها كان صحيحاً ومعقولا بنظره . وإلا فلا.

وللبحث في عوامل الاختلاف والاتفاق بين المؤرخين يجمل بنا كما يقول ديوي ان نتصدى لبحث تلك المسلمات عند كل منهم . ولكي نوفي البحث حقه من الشرح يجدر بنا أن نبدأ بحثنا في منابع تلك المسلمات . والمنابع هى

(١) طبيعة العصر الذي يعيش المؤرخ فيه :

لكل عصر مزاج علمي واجتماعي أو مسلمات عامة يشترك في التسليم بصحتها معظم الباحثين الاجتماعيين إن لم يكونوا كلهم . واعني بمزاج العصر أو روحه أو طابعه تلك المبادىء العامة العلمية والاجتماعية التي يتميز بها عصر عن عصر آخر غير ان ذلك لا ينبغي أن يفسر بان بعض المسلمات لا تنتظم أكثر من عصر واحد ذلك لان التاريخ عملية مستمرة ذات حلقات متسلسلة ومترابطة يؤدي بعضها الى بعض آخر ويؤثر فيه . وبما ان المؤرخ يدخل ضمن الباحثين الاجتماعيين في العصر الذي يعيش فيه فانه يخضع لروح ذلك العصر أو طابعه أو مزاجه . فالمؤرخ المسلم المعاصر مثلا يختلف هو والمؤرخ المسلم الذي عاش في العهد العباسي عندما يتعرض للبحث في

طبيعة الاقاليم وفي جغرافية الصين وفى عوامل المد والجزر والخسوف والكسوف وفي كثير من المسلمات العلمية الحديثة . هذا من ناحية روح العصر فى الجوانب العلمية . أما اختلافهما في الجوانب الاجتماعية فيبدو في نظرة كل منهما الى اعمال الملوك والقادة ومنزلة الجماهير في تغيير مجرى التاريخ ، ذلك لان طبيعة العصر الحاضر تتصف بما ندعوه بعمايدسنا الحضرة انتشار الافكار الحرة والاهتمام بحياة الشعوب والنظر الى الملوك والقادة نظرة دنيوية زمنية . على حين ان العكس ربما كان هو الشائع في العالم الاسلامي أثناء الحكم العباسي . غير ان هذين المؤرخين مع هذا يشتركان في الايمان ببعض المسلمات الدينية والمذهبية التي انتظمت كلا العصرين . فلا غرو ان تقاربت أحكامهما في القضايا التاريخية ذات الصلة بتلك المسلمات . وفي هذه النقطة نفسها تكمن عوامل الاختلاف بين المؤرخ المسلم العباسي والمؤرخ المسيحي الذي عاصره . ويصدق الشيء نفسه على المؤرخ المسلم الحديث والمؤرخ المسيحي الحديث . وفي التاريخ أمثلة كثيرة تدل على اثر طبيعة عصر المؤرخ في احكامه التاريخية . من ذلك مثلا ان المؤرخ البريطاني المعاصر لا يؤيد افعال الملكة ماري تيودور المتعلقة بما نسميه في الوقت الحاضر بالضغط الديني على رعاياها من المسيحيين البريطانيين غير المنتمين الى المذهب الرسمي للدولة . على حين ان المؤرخين الانكليز الذين عاصروها اعتبروا موقفها سليما . وقد حصل العكس فى موقف المؤرخين الفرنسيين من سياسة مدام دي مدشي المغايرة لسياسة الملكة ماري تيودور . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان ما يعتبره مؤرخ عاش فى عصر من العصور اضطهاداً قد لا يكون كذلك بنظر مؤرخ عاش في عصر آخر .

(٢) طبيعة المجتمع الذي ينتمي المؤرخ اليه .

لكل مجتمع عقائده في الدين والسياسة والعلم وما كل ذلك وقد تنتظم تلك العقائد اكثر من مجتمع واحد وقد تسري الى اكثير من عصر واحد . وكثيراً ماتنتشر عقائد متباينه في المجتمع الواحد . يخضع المؤرخ كما يخضع غيره لتلك العقائد فتتأثر احكامه التاريخية بها ، فاذا تصدى مؤرخان يختلفان في عقائدهما لبحث قضية تاريخية تتصل بتلك العقائد فانهما يختلفان في احكامها الصادرة عليها . يحدث هذا اذا كان المؤرخان يعيشان في عصر واحد ومكان واحد او في عصر واحدومكانين مختلفين اوفى مكان واحد وعصرين مختلفين اوفي عصرين مختلفين ومكانين مختلفين ، ويكفي للدلالة على ذلك ان نوازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسلمون في الماضي والحاضر على الحروب الصليبية من حيث اسبابها ونتائجها وبين الاحكام التي يصدرها المؤرخون المسيحيون القدامى والمحدثون ، او ان توازن بين الاحكام التي يصدرها المؤرخون الالمان المعاصرون على المسؤولين عن اثارة الحرب العالمية الثانية مثلاو بين الاحكام التي يصدرها الروس والانكليز ويتحلى ذلك بوضوح كذلك اذا وازنا بين الاحكام التي يصدرها المؤرخ البريطاني المعاصر على تصرفات حكومته في الدول التابعة لها وبين ما يصدره مؤرخو تلك الدول من احكام ، او بين الاحكام التي يصدرها المؤرخ الروسي فى الوقت الحاضر على سلوك قياصرة روسيا وسياستهم وبين الاحكام التي اصدرها المؤرخون الروس القدامى . واذا نظرنا الامرين من زاوية اخرى امكننا ان نقول ان للسلطة القائمة أثراً فى نوع الاحكام التاريخية الصادرة بحقها وبحق خصومها ، وقديما قيل :

والناس من يلق خيرا قائلون له . . ما يشتهي ولام المخطئ الهبل . . .

(٣) العوامل المزاجية والشخصية :

لقد مر بنا القول بان المؤرخ يستمد عناصر تفكيره من مصادر ثلاثة ـ هي العصر الذي يعيش فيه والمجتمع الذي ينتمي اليه والعوامل الخاصة به ، هذه المصادر يتعرض كل شخص لتاثيرها مع اختلاف في درجة تاثير بعضها بالنسبة لبعض آخر . ويتجلى اثرها في علاقات الافراد اليومية وفي سلوكهم واتماط تفكيرهم بقدر مايظهر ذلك في احكامهم التاريخية وربما تعداها فانتظم نظرياتهم العلمية ، ويمكننا ان نقول ان اختلاف الاشخاص في احكامهم المتصلة بجميع مجالات الحياة راجع الى اختلاف مسلماتهم العاطفية والفكرية . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان ما يطلق عليه زيد صفة الخيانة السياسية او الالحاد مثلا حسب مسلماته قد لايكون كذلك بنظر عمرو الذى تختلف مسلماته عن مسلمات زيد ، وقس على ذلك الاحكام المختلفة في مجالات الحياة جميعها ، يتجلى ذلك بين الافراد فى المجتمع الواحد وبين الفرد نفسه فى فترات مختلفة من تاريخه اذا تغيرت مسلماته وبين المجتمعات المعاصرة وغير المعاصرة وبين المجتمع نفسه في فترات مختلفة من التاريخ . فما اعتبره الاسلام كفرا لم يكن كذلك بنظر العرب في جاهليتهم ، بل العكس كان هو السائد وما سماه اليونان ايمانا كان زندقة بنظر المسيحيين ، ومايطلق عليه المسلمون فى الهند الحاداً ليس هو كذلك بنظر الهندوس ، ومانعتته بعض العراقيين فى الوقت الحاضر بالعنصر المخرب او الهدام ليس هو كذلك بنظر عراقيين آخرين او بنظر الروس ، والطعن بالذات الملكية فى مصر اثناء حكم فاروق كان جرماً وخيانة يستحق فاعله اقسى انواع العقاب في حين انه فى الوقت الحاضر يعتبر عملا وطنيا وربما كان مجلبة للتقدير والمكافاة .

يمكننا ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان المؤرخ يخضع للعوامل التي تتصل بعصره ومجتمعه وشخصه . والعوامل المتعلقة بشخصه دون شك آتية من العصر والمجتمع . ونعني بالعوامل التي تتصل بشخص المؤرخ نوع الثقافة التي حصل عليها ودرجتها وجميع العوامل النفسية التي تميزه عن غيره . فالمؤرخ ذو المزاج الهادىء المتئد تختلف احكامه عن احكام المؤرخ المندفع المتحمس . يحدث ذلك احياناً حتى في الحالات التي تتماثل فيها العوامل الآتية من العصر والمجتمع .

يتضح مما ذكرنا ان التاريخ من ناحية الاحكام التي يصدرها المؤرخون على حوادثه كما يقول ديوي مجموعة من وجهات النظر المختلفة لكل منها ظروفها الخاصة والمسلمات التي تستند اليها . وما دام المؤرخون يختلفون فى نوع مسلماتهم فاختلاف احكامهم التاريخية اذن امر واقع ولا سبيل الى التخلص منه تخلصاً تاماً . ان جل ما نستطيع ان نفعله فى هذا الصدد كما سنرى هو محاولة تخفيف حدته من جهة وتغيير نوعه من جهة اخرى . وجرياً مع هذا المنطق يمكننا ان نقول ان مايدعوه مؤرخ معين بالتحزب لا يكون كذلك الا فى الحالات التاريخية المبنية على مسلمات تختلف هي ومسلماته . ولا يكون ذلك التحزب « تحزباً » بنظر مؤرخ يستند الى مسلمات لا تتفق هي والمسلمات التي يستند اليها الحكم التاريخي الآنف الذكر . فكأن التحزب نعت يطلقه المؤرخون على الاحكام التاريخية التي تختلف هي ومسلماتهم . واذا كان الامر كذلك ألا يحق لنا ان نقول ان جميع المؤرخين متحزبون بالنسبة لبعضهم وانهم يختلفون في مدى ذلك التحزب وفي نوعه ؟ .

واذا علمنا ان التحزب الشائع فى التاريخ كثيراً ما اصبح عاملا من عوامل بث التفرقة والقطيعة بين ابناء الامة الواحدة وبين الامم كذلك وانه فى الاعم

الاغلب لا يتفق هو ومزاج العلم فى البحث والمناقشة امكننا ان نقول ان علاجه امر تحتمه طبيعة البحث العلمي وتقتضيه مصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري شريطة ان نجعل منطق العلم ومصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري مسلماتنا في البحث وان نعتبرها كذلك تسير جنباً الى جنب بقدر ما يتعلق الامر بظاهرة التحزب في التاريخ على اقل تقدير . وبقدر ما يتعلق الامر بفلسفة جون ديوي يمكننا ان نقول ان منطق العلم ومصلحة المجتمع ومصلحة الجنس البشري من الممكن ان تسير فى الوقت الحاضر جنباً الى جنب لا في موضوع التحزب في التاريخ حسب بل في مجالات اخرى كذلك . ويقصد ديوي بمنطق العلم كما سلف ان ذكرنا الأسلوب الذي يستعمله الباحثون فى موضوع الكيمياء او الفيزياء او الرياضيات في التوصل الى حل مشكلاتهم العملية . ويقصد بمصلحة المجتمع ان يعيش ابناؤه متعاونين يتقاسمون خيراته ويتمتعون بالعيش فى مظاهر الحياة المختلفة . ومصلحة الانسانية هي ان يعيش ابناؤها على النمط الآنف الذكر نفسه . ومن الطريف ان نذكر هنا بان ديوي يقول انه من الممكن ان تعتبر دعوتي هذه تحزباً . غير انه تحزب من نوع جديد . تحزب للقضاء على التحزب الشائع .

وقبل ان نتصدى للبحث في علاج التحزب الشائع لتخفيف حدته وتغيير نوعه فى ضوء المسلمات التي ذكرناها يجدر بنا ان نشير الى المظاهر التي يتقمصها اذ ان بعض مظاهر التحزب اكثر «تحزباً» من بعض آخر واقل وضوحاً كذلك .

يظهر التحزب في التاريخ احياناً على شكل تعابير لغوية توحي نوعاً خاصاً من المعاني تتفق هي ووجهة نظر المؤرخ . فقد يطلق مؤرخ على حركة عسكرية اسم عصيان او تمرد على حين ان مؤرخاً آخر ينعتها بارق النعوت والطفها كأن

يصفها بالتحرير او التطهير وما شاكلها . وباستطاعة السامع لغرض الاستدلال على وجاهة ما ذهبنا اليه ان يوازن بين آراء المؤرخين الكاثوليك والبروتستنت مثلا في الحكم على حركة لوثر وفى تسميتها كذلك . فالمؤرخون البروتستنت يدعونها « بالاصلاح الديني » على حين ان المؤرخين الكاثوليك يسمونها « الخروج على مبادىء الدين » . ومن الطريف ان اذكر هنا اني عثرت على كتاب لتدريس التاريخ فى بعض المدارس اللبنانية قبل بضع سنوات يطلق مؤلفه على ما اصطلح جمهرة المؤرخين المسلمين على تسميته « بهجرة الرسول » اسم « هروب من يسمونه بالرسول » . والفرق بين هجرة وهروب من جهة و بين الرسول ومن يسمونه بالرسول من جهة ثانية لا يحتاج الى تعليق .

ويظهر التحزب فى التاريخ احيانا اخرى بتشويه الحقائق او فقدان الدقة والنزاهة فى تسجيلها . ويتجلى كذلك بانتقاء جوانب الاحداث التاريخية التي تتفق هي ووجهة نظر المؤرخ او باخفاء الجوانب الاخرى او بصوغها بهيئة تبين تفاهتها او سخافتها . ويظهر التحزب احيانا اخرى في التعليقات والاحكام التي يصدرها المؤرخ في اعقاب الحوادث التي يدونها او في ثناياها . وعلى هذا الاساس يمكننا نقول ان التحزب في التاريخ يكون مباشراً احيانا وغير مباشر احيانا اخرى . ويتضح التحزب المباشر في حقل الاحكام التاريخية الصريحة . على حين ان انتقاء الكلمات الخاصة وذكر الحقائق المشوهة او اغفال تسجيل بعض جوانب الحادثة وما شاكلها تدخل ضمن التحزب غير المباشر . ومما تجدر الاشارة اليه في هذه المناسبة ان علاج التحزب من اصعب الامور وانه اصعب في التحزب غير المباشر منه في التحزب المباشر .

والتفكير في علاج التحزب الشائع في التاريخ يدفعنا الى البحث في امكانية جعل التاريخ علماً كسائر العلوم الطبيعية[1] حيث يستند الباحثون الى مسلمات

---

(١) ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان امكانية اعتبار الموضوعات الاجتماعية بشكل عام والتاريخ بشكل خاص ضمن حضيرة العلوم ظهرت للمرة الاولى بوضوح في القرن الماضي الذي تميز بالنسبة لما سبقه من العصور بطغيان البحوث النظريه والتجريبية في الظواهر الطبيعية . وكان في مقدمة الداعين الى ذلك كل من رانكي (١٧٩٥ - ١٨٨٦) وبكل (١٨٢١ - ١٨٦٢) وجون ستورت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) وهربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) . فقد ذكر هؤلاء ومن هم على شاكلتهم من الباحثين (وبخاصة اوكست كومت (١٧٠٨ - ١٨٥٧) ان الاسلوب العلمي التجريبي يمكن ان يدخل في بحث الظواهر الاجتماعية والتاريخية . وبما ان تقدم البحث العلمي قد بهرهم آنذاك بقدر ماراعهم تأخر البحوث الاجتماعية والتاريخية فقد عزو تلك الهوة السحيقة بين تقدم العلوم الطبيعية وتأخر الموضوعات الاجتماعية والتاريخية الى انتفاء وجود أسلوب البحث العلمي في مجال البحوث الاجتماعية والتاريخية . وزعموا بان قضية تقدم البحوث الاجتماعية والتاريخيه ورفعها الى مصاف العلوم تتوقف على ضرورة تطبيق الاسلوب العلمي في مجالاتها المختلفة . ولعل من المناسب ان نذكر في هذا الصدد ان دعوة المفكرين الذين ذكرناهم وان لاقت من ايدها من الباحثين الا ان هناك باحثين كثيرين تصدوا لتفنيدها ودحض أسسها . وفي مقدمة من فعل ذلك المؤرخ الالماني والفيلسوف وليم دلثي (١٨٣٣ - ١٩١١) لقد قسم دلثي المعرفة الانسانية الى قسمين : معرفة طبيعية ومعرفة انسانية او اجتماعيه . تتضمن الاولى منهما البحث في علاقة الانسان بقوى الطبيعة من جهة وعلاقة قوى الطبيعة ببعضها =

واحدة كل في موضوع اختصاصه ولا يختلفون الا اذا تسرب الشك الى بعضهم في صحة تلك المسلمات . غير ان الباحث من الجهة الثانية يستطيع ان يقول ان الاختلاف بين التاريخ والعلوم الطبيعية كبير يمكن تلخيصه بشيء من الايجاز

= من جهة اخرى . وتدخل الفيزياء والكيمياء وعلم الفلك والرياضيات ضمن القسم الاول . على حين ان المجموعة الثانية تشمل التاريخ والفلسفة والموضوعات الاجتماعية عامة ومجالها بنظره هو دراسة علاقة الانسان بالانسان داخل حدود الامة الواحدة وبين الامم) . وفي رأي دلثي ان موضوعات المجموعة الاولى تختلف عن موضوعات المجموعة الثانية من حيث موضوعها او مادتها ومن حيث أسلوب البحث فيها . ولا يمكن حسب رأيه استعارة الاسلوب الذي يسير بموجبه البحث في موضوعات المجموعة الاولى لغرض تطبيقه في بحث موضوعات المجموعة الثانية (كما خيل لرانكي وسبنسر ومن لف لفهما) . هذا من جهه ومن جهة ثانيه فان موضوعات المجموعة الثانية بنظره هي التي يمكن ان تدعي علوماً . أما موضوعات المجموعة الاولى فلا يجوز أن نصفها بالعلم اطلاقا (وهو أمر كما يتضح مخالف لآراء الباحثين الاخرين الذين أشرنا اليهم) . والحجة التي استند اليها دلثي لدعم رأيه هذا هو ان الباحث الاجتماعي يستطيع الولوج في جوهر المادة الاجتماعية على حين ان الباحث في الطواهر الطبيعية لا يستطيع الا وصفها من الخارج . فالمؤرخ مثلا يستطيع أن يتقمص شخصية الملك الذي يتكلم لنا عن تاريخ حياته (ويضع نفسه بموضعه على القدر المستطاع ويدعو دلثي هذه الظاهرة بـ Sympathatic insight على حين ان الكيميائي مثلا لا يستطيع ان يتقمص شخصية الاوكسجين عند بحثه فيه . ويجمل بنا ان نشير هنا الى ان دلثي في استبعاده الظواهر الطبيعية من حضيرة العلوم (على الشكل الذي يفهمه) لا يريد كما يخبرنا هو نفسه ان يقلل من أهميتها أو ان يهملها =

غير المخل في ان الباحث في العلوم الطبيعية يتصدى لبحث موضوعات هي أقل صلة بمسلماته منها عند المؤرخ . اي ان الباحث الطبيعي اقل تحزباً من المؤرخ . والمؤرخ بدوره يختلف مدى تحزبه باختلاف الموضوع الذي بين يديه . وكلما كان موضوع البحث شديد الصلة بمسلمات المؤرخ اصبح من المتعذر عليه ان يتوخى الدقة العلمية في بحثه . ويتجلى الاختلاف كذلك بين العلوم الطبيعية وبخاصة المختبرية منها وبين التاريخ في ان الظواهر الطبيعية اقل تعقيداً وتشابكا من الحوادث التاريخية . فينتج عن ذلك ان باستطاعة الباحث في الظواهر الطبيعية ان يسيطر عليها سيطرة مختبرية وان يجري تغييرات كثيرة في علاقاتها وسلوكها لمعرفة اثر بعضها في بعض . على حين ان العكس هو الواقع في التاريخ . يضاف الى ذلك ان المؤرخ ينتقي من الحوادث التاريخية الجوانب المتعلقة بموضوعه . وعملية الانتقاء هذه تتضمن اهمال الجوانب غير المتصلة بالموضوع من وجهة نظره . غير ان الجوانب المنتقاة والمهملة لا تخلو من عوامل عاطفية ومزاجية تختلف باختلاف المؤرخين . على حين ان العلوم الطبيعية في منجاة من ذلك . وهناك فروق اخرى بين الظواهر الطبيعية وبخاصة في علم الكيمياء وبين الحوادث التاريخية اهمها بنظرنا ان الكيمياوي عند بحثه في سلوك الاوكسجين مثلا لا يبحث مطلقاً

= ثانوية الاهمية بالنسبة للموضوعات الاجتماعية . ان كل ما يريد ان يفعله دلثي في هذا الصدد هو البرهنة على ان الموضوعات الاجتماعية تختلف (في أسلوبها ومادتها) عن البحوث الطبيعية . وانه لا يمكن اطلاقا استعارة الاسلوب العلمي (على الشكل الذي يطبق فيه في مجال دراسة الظواهر الطبيعية) لغرض تطبيقه في دراسة الموضوعات الاجتماعية .

في تاريخ الاوكسجين وعلاقاته السابقة ولا ينتقد موقفه غير المتعاون مع بعض العناصر كما لا يحبذ تحالفه مع عناصر اخرى . على حين ان العكس هو المتبع في المباحث التاريخية .

يمكننا أن نقول في ضوء ماذكرنا ان التاريخ ليس بعلم اذا كان العلم يتضمن السيطرة المختبريه على الحوادث . ولكن الا يجوز ان نعتبر التاريخ علماً بالمعني الذي يعتبر فيه الجيولوجي علما ؟ الا يحاول العالم الجيولوجي ان يختبر المخلفات الارضية لغرض الاستدلال منها على اعمارها والتغيرات التي اعترتها ؟ الا يفعل المؤرخ شيئا مشابها لذلك ؟ ولكن الفرق مع هذا بينهما كبير وفحواه ان العالم الجيولوجي في الوقت الحاضر يسير في بحثه وفق قوانين وقواعد عامة يتفق معه على التسليم بصحتها زملاؤه هذا من جهة ومن جهة ثانية فانه يبحث في امور قليلة الصلة بمسلماته . على حين ان العكس هو المتوافر في البحوث التاريخية . فالتاريخ اذن يشبه الجيولوجي في بعض النواحي ويختلف عنه في بعض آخر ، وهو يشبه في بعض النواحي كلا من علمي الطب والهندسة ويختلف عنه في نواح اخرى وينحصر جوهر الاختلاف في جميع الحالات في موضوع البحث نفسه وفي اسلوبه كذلك ، على حين ان وجه الشبه ينحصر في ان اولئك الباحثين جميعا يستدلون على ماوقع من الحوادث بوساطة ماهو موجود امامهم من آثارها او بقاياها .

ان علمية التاريخ من ومن جهة نظرجون ديوي تتصل باسلوب البحث اكثر من اتصالها بموضوعه ، غير ان المؤرخ مع هذا لايستطيع ان يتمتع الا ببعض خصائص الاسلوب العلمي نظرا لطبيعة الموضوع الذي يبحث فيه ، ونتلخص تلك الخصائص في الامور التالية .

(١) توخى الدقة فى التعابير وانتقاء الكلمات المحايدة وغير المشبعة بالجوانب العاطفية على القدر المستطاع .

(٢) التزام جانب النزاهة في تسجيل الحوادث بامعان وبخاصة ما كان منها غير متفق مع مسلمات المؤرخ ، غير ان هذه النقطة من اصعب الامور ذلك لان المؤرخ كثيرا ما يرى بعض الحقائق التاريخية بعواطفه على الرغم من سلامة بصره وتفكيره .

(٣) اخذ اكبر كمية ممكنة من وجهات النظر فى كل قضية تاريخية ومناقشتها مع المسلمات التى تستند اليها شريطة ان يبدأ الباحث بفحص مسلماته نفسها ، واذا تذكرنا ان الاستناد الى المسلمات امر لامفر منه وان الناس يختلفون فى نوع مسلماتهم امكننا ان ندعو الى جعل المسلمات الاجتماعية والعلمية المنبثقة عن روح العصر الحاضر (لاننا نعيش فيه) اساسا للبحث والمفاضلة .

(٤) التريث فى اصدار الاحكام والابتعاد عما كان جارفا منها لا يستند الى الى حقائق كافية تدعمه ثم صوغ تلك الاحكام بشكل يجعلها توحى انها تحتمل الخطأ والصواب ذلك لان فرض الانسان احتمال تسرب الخطأ لآرائه يتضمن امكانية عدم تسرب الخطأ للآراء المخالفة لرأيه ، يضاف الى ذلك ان مزاج العلم كما سلف ان ذكرنا لا يتفق هو والطعن في الآراء المختلفة الا اذا ثبت خطلها من الناحية العلمية ، هذا الى ان العلم يشجع تعدد الآراء واختلافها لانها اساس حياته وتقدمه شريطة ان يتم الوصول اليها بوساطة الاسلوب العلمى نفسه وشريطة ان يقلع الانسان عنها اذا ثبت خطؤها من الناحية العلمية . ومن المشاهد ان البحث العلمى كثيراً ما يسوق صاحبه الى مواجهة حقائق لا تتفق هى ومسلماته غير ان العالم .

بدلا من ان يسد عليها منافذ تفكيره وعواطفه فانه يفتح لها قلبه وعقله ويستمر على التسليم بها الى ان يثبت فسادها من الناحية العلمية ، وهكذا دواليك ، ومن الطريف ان نذكر السامع ان آينشتاين قد سمى نظريته بالنسبية ـ وهي تسمية تتضمن صعوبة التسليم بوجود امور مطلقة في حقل العلم تتحدى الزمان والمكان .

ومن الطريف أن ننبه القارىء هنا الى أن ديوي يقول بان من وجهة نظره التي شرحناها قد تصادف هوى في نفوس بعض القراء وقد لا يتفق عليها بعض آخر وظاهرة الاختلات في الرأي على حد قوله لا يجوز أن تـدعو الى الاستغراب أو الامتعاض ذلك لاننا كما سلف ان ذكرنا نكتسب مقاييسنا في الحكم على قيم الاشخاص والآراء والحوادث من المصادر الثقافية التي نتعرض لتأثيرها . وتصبح تلك المقاييس جزء لا يتجزأ بسهولة عن كياننا ولا نستطيع في كثير من الاحيان أن نناقشها مناقشة علمية . قليلون هم الاشخاص الذين يستطيعون أن يفكروا تفكيراً علمياً حينما يتعرضون للبحث في اعز معتقداتهم واكثرها سيطرة عليهم. ومرور الزمن على العقيدة يخلع عليها وشاحا من القدسية يصعب كثيراً تجريدها عنه وإذا استطاع المرء بعد ارتقائه سلم التطور الثقافي أن يناقش عقائده والعقائد الاخرى المختلفة عنها مناقشة علمية فان هنالك في قرارة نفسه رواسب عاطفية تأبى إلا ان تتحدى التفكير الى حد بعيد.

الفصل الحادي عشر

القلق السياسي : مقدماته ونتائجه

القلق السياسي ظاهرة أجتماعية يتجلى وجودها بوضوح فى المجتمعات التي تفتقر حكوماتها ، من وجهة نظر شعوبها ، الى مقومات الحكم السليم . و« الحكم السليم » كما يرى جون ديوي امر نسبي يختلف باختلاف الزمان والمكان ، و« مقوماته » نسبية كذلك . والقلق السياسي من الناحية التاريخية موجود فى جميع المجتمعات مع اختلاف في الدرجة والشكل . غير انه يبلغ الذروة من حيث السعة والعمق ويظهر على شكل تحديات واضطرابات وثورات ـ كما سنرى ـ في المجتمعات التي تنقسم (من حيث علاقاتها السياسية وما ينتج عن ذلك) الى فئتين : اقلية حاكمة ـ يعتبرها الشعب ظالمة ـ واكثرية تعتبر نفسها مظلومة[1] . والقلق السياسي وسيلة من وسائل تعبير الشعب عن امتعاضه من تصرفات الحكومة . ولا يتسنى للشعب ان يفعل ذلك الا اذا بلغ من الوعي السياسي والادراك الفكري

---

(١) ليس الفرق ، في الوقت الحاضر على كل حال ، بين المجتمعات التي فيها فئة حاكمة وبين المجتمعات التي ينتفي فيها وجود تلك الفئة (حيث يكون الحكم للشعب وتصبح الامة مصدراً للسلطات من الناحيتين النظرية والعملية) محصوراً في انتفاء وجود اقليه من الناس يمارسون الحكم في النوع الثاني من المجتمعات ووجود تلك الاقلية في النوع الاول ذلك لانه توجد فى المجتمعين اقليه من الناس =

درجة معينة . ولكن تلك « الدرجة المعينة » يصعب تحديدها . غير اننا نستدل على وجودها من انتشار القلق السياسي نفسه في مجتمع من المجتمعات .

ويتجلى القلق السياسي باوضح اشكاله في المجتمعات التي تتوافر فيها الخصائص التالية (او بعضها) :

(١) هوة (قد تكون سحيقة) بين الفئة الحاكمة والشعب ، تظهر في الجانب الفكري والمعاشي والاجتماعي . ويرافق ذلك وينتج عنه ميل من جانب الفئة الحاكمة نحو الترف واللهو والاسراف في بذل المال والوقت والجهد ، وقلة اكتراث بمصالح الشعب فينتشر الفساد في جهاز الحكومة .

(٢) محاولة من جانب الفئة الحاكمة للاستيلاء على وسائل الدعاية والنشر والاتصال الفكري بين السكان ، وميل للضغط على حرية التكتلات السياسية[١] والتعليم . ومن مستلزمات الضغط على الافكار كثرة الاعتماد على جهاز الشرطة العاني والسري . ومن ابرز الامثلة التي تتصل بافساد الفئة الحاكمة للتعليم تلك الاجراءات

= تصرف شئون الاكثرية من السكان . وينحصر الفرق بينهما في الواقع في كيفية مجيء الاقلية الحاكمة للحكم من جهة والجهة التي تكون مسئولة تجاهها من جهة ثانية . ففي النوع الاول يكون الشعب مسئولا تجاه الاقلية الحاكمة . وتنعكس الآية في النوع الثاني .

(١) لان الاحزاب في الواقع هي الجانب العملي للحكم الذي يستند الى ارادة الشعب من الناحية النظرية . ويتصل بالاحزاب بطبيعة الحال حرية الصحافة ، ويعود السبب الرئيس في مقت الفئة الحاكمة للاحزاب والصحافة الى ان تعددها واختلاف وجهات نظرها وسيلة من وسائل ضعضعة نفوذ الفئة الحاكمة وتنبية الشعب الى المساهمة في الحكم . ذلك ان الفئة الحاكمة تسير في تصرفاتها كما سلف =

التي اتخذها مترنيخ الوزير النمساوي المعروف في اواسط القرن الماضي تجاه طلاب الجامعات في النمسا فقد منعهم من الدراسة في الخارج واوصى اعوانه من موظفي الهيئات التعليمية ان لا يسمحوا بتدريس الفلسفة والسياسة للناشئة . كما انه منع المؤلفين النمساويين من طبع مؤلفاتهم السياسية والاجتماعية (غير المرغوب فيها من جانبه) في مطابع النمسا .

غير ان الفئة الحاكمة مع هذا ، كما سنرى ، لا تستطيع القضاء على حرية الفكر في المدى البعيد . فقد اكتسح الفكر النمساوي عام ١٨٤٨ مترنيخ واعوانه وقوض اركان حكمه الذي اشتغل في احكام بنائه منذ عام ١٨٠٩ . وقد اخترق السم الذي قذفته الفئة الحاكمة جسم سقراط فأماته قبل اكثر من الفي عام ولكنه لم يخترق افكاره التي نمت وازدهرت منذ ذلك الحين الى اليوم . ولعل الاقدام على قتل سقراط بسبب افكاره « الهدامة » كان عاملاً من عوامل انتشارها وخلودها .

(٣) اعتبار الفئة الحاكمة ان الغاية الاساس من الحكم هي المحافظة على كيانها ومصالحها . ولتحقيق ذلك تتخذ الفئة الحاكمة جميع الوسائل (المشروعة وغير المشروعة) للقضاء على مناوئيها ، واذا كان الهدف الرئيس للفئة الحاكمة هو محافظتها على كيانها ومصالحها فانها لا تميل كما يحدثنا مكيافيلي الكاتب

= ان ذكرنا ضمن اطار معين وفلك خاص تدور فيه للمحافظة على مصالحها . وهي بوقوفها ضد الاحزاب تفسح المجال امام نفسها وانصارها للعمل بحرية تامة للتبشير بمبادئها اما على شكل حزب منظم او على شكل افراد مبعثرين تجمعهم فكرة الدفاع عن الوضع القائم .

الايطالي المعروف الى اعتناق مبدأ سياسي او ديني او فلسفي خاص وتعمل بوحي منه في جميع الظروف والاحوال[1].

(٤) اعتبار الفئة الحاكمة الحكم ملكا لها وجزء لا يتجزأ من كيانها - مثله فى هذا الشأن من وجهة نظرها كمثل اعضاء جسمها او اثاثها البيتية - وقد يبلغ ولعها في الحكم حداً ابعد من ذلك فكثيراً ما تسمح باقتطاع بعض اجزاء جسمها اذا اقتضى الطب ذلك كما انها تتساهل في امر تغيير اثاثها البيتية اذا اقتضت الظروف الاجتماعية ذلك . ولكنها لا تسمح لامثال هذا التبديل ان يحدث فى مجال الحكم .

وقد يبلغ القلق النفسي فى الفئة الحاكمة الى ان تقتل الذين يشاركونها اساليبها فى الحكم اذا ما ترآى لها ولو على غير حق انهم اصبحوا اعداءها . فقد اجتاحت

(١) يقول مكيافيلي في كتابه « الامير » الذي تم تأليفه عام ١٥١٢م فيما يتصل بوصف الحاكم الناجح ، من الناحية العملية كما شاهد ذلك في زمانه بانه « الشخص الذي يكون خلقه مزيجاً من الانسانية والحيوانية فلا هو بالانسان الصرف ولا الحيوان الصرف في تصرفاته تجاه شعبه وحاشيته . على انه فى الجانب الحيوانى يكون كالاسد تارة وكالثعلب تارة اخرى . فالاسد لا يستطيع ، اذا اقتضى الامر ذلك ، أن يتغلب على الخصم او ان يتخلص من شراكه عن طريق الخداع والمراوغة او المداهنة . ولا يستطيع الثعلب ، اذا اقتضى الامر ذلك ، ان يتغلب على الخصم او يتخلص من شراكه بالقوة الجسمية . . . ومن ابرز صفات الحاكم الناجح هو انتفاء وجود ايه عقيدة لديه (اللهم الا عقيدة اللاعقيدة) لان اعتناق عقيدة معينة والسير وفق مستلزماتها لا يتفق دائماً هو ومصلحة الحاكم» .

روسيا السوفيتية في سنة ١٩٣٧ موجة من الاضطهاد في صفوف الحزب الشيوعي نفسه فاغتيل كثير من اعضاء الهيئة العليا من الحزب بتهمة انهم اصبحوا « اعداء الشعب » وقد امتدت تلك الموجة فشملت السفير السوفيتي في لندن آنذاك حيث اعتبر جاسوساً انكليزياً . والفئة الحاكمة تبرر حكمها غير المستند على ارادة الشعب بمبررات كثيرة تختلف من حيث الشكل باختلاف الزمان والمكان . فطوراً تدعي انها تستمد مقومات حكمها من قوى علوية تتحدى حدود الزمان والمكان وتعتبر نفسها مسؤولة امام تلك القوى لا امام الشعب . وتعتبر جميع افعالها (وان بدت شروراً من وجهة نظر الناس) منزهة عن الخطأ والصواب . وعلى هذا الاساس يصبح كل خروج من جانب الشعب على تلك الافعال او بعضها (من وجهة نظر الفئة الحاكمة) خروجاً على الدين واوامر الآلهة يستحق العقاب الذي تقرره الشرائع والقوانين . اما في الوقت الحاضر حيث اعتبرت السيادة للشعب من الناحية النظرية هي الفلسفة السياسية الشائعة والمقبولة في كثير من المجتمعات فان الفئة الحاكمة في الاماكن التي توجد تلك الفئة فيها تحاول ان تبرر حكمها على اساس ان مصلحة الشعب في الوقت الحاضر تستلزم ذلك وانه لم يصل بعد كما تدعي الفئة الحاكمة الى النضج السياسي الذي يؤهله لممارسة حقوقه النظرية . فتأخذ بالشمال عملياً ما تدعي انها تعطيه باليمين من الناحية النظرية . واذا كان الامر كذلك فان الفئة الحاكمة تسعى جهد استطاعتها الى تزوير ارادة الشعب لتحكمه حكماً شعبياً مزيفاً مدعية انها تسعى الى حماية الشعب من نفسه في حين انها تسوغ لنفسها عدم حماية الشعب من تصرفاتها . فالفئة الحاكمة اذن لا تسمح لافراد الشعب ان يفكروا تفكيراً حراً يتصل باوضاعهم الاجتماعية والسياسية ذلك لان حرية التفكير والتعبير في مشكلات المجتمع الراهنة تتضمن حتماً الكشف عن جوانب الفساد في

سلوك الفئة الحاكمة الامر الذي ربما يؤدي الى زعزعة ثقة الناس بها وبالتالى الى ضعضعة كيانها . ذلك لانها تعلم – وهي على صواب – ان الآثار التي يتركها الفكر الحر فى كيانها اكثر عمقاً واوسع مدى من الآثار التي تتركها الزلازل او البراكين في الاماكن التي تحدث فيها – فآثار الزلازل او البراكين – من الممكن التغلب عليها ولو بعد حين . اما آثار الفكر الحر في تحطيم معاقل الرجعية ومواضع الفساد فلا يمكن التغلب عليها الا باصلاح شامل للاوضاع العامة وهو امر لا تريد الفئة الحاكمة ان تعمله لانه يتنافى واساليبها في الحكم . فلا غرو ان حاولت الفئة الحاكمة ان توجد شعباً مطواعاً لها يأتمر باوامرها ويخضع لقوانينها ونظمها في السياسة والاخلاق . وهي بعملها هذا تسعى الى الهبوط بمستوى التفكير العام للشعب فتجعله متخلفاً عن غيره من الشعوب في تفكيره وانتاجه من الناحيتين العلمية والاجتماعية .

(٥) اتباع الفئة الحاكمة لسياسة (من الناحيتين الداخلية والخارجية) لا يساهم الشعب في وضع اسسها او في تنفيذها . وليس في ذلك غرابة ذلك لانه ما دام الشعب غير مشارك في مجيء « حكومته » للحكم وليست له الوسائل القانونية من الناحية العملية في تغيير تلك الحكومة فلامعنى لمســاهمته في سياستها (١) .

---

(١) غير أن للفئة الحاكمة في الوقت الحاضر من وسائل الدعاية ما يجعلها تظهر للشعب الاشياء على غير حقائقها . فقد وضع العلم الحديث بيدها من الآلات والاجهزة ما يساعدها على تضليل الشعب والتغرير به . واصبح بامكانها ان تقوم بحملة واسعة النطاق من الدعاية المبنية على ما يمكن ان يسمى : « الكذب المنظم » =

يقول جون ديوي ان نجاح الفئة الحاكمة معناه اندحار الشعب واستمراره على الخضوع لاوامرها وتصرفاتها . غير ان الشعب مع هذا قد يصل به « احتمال الاذى ورؤية جانيه » درجة لا يستطيع معها الاستمرار على تقبل الوضع السياسي السائد . فلا يلبث ان ينفجر . ويتوقف الزمن الذى ينفجر الشعب فيه ونوع

= الذي يبدو في ظاهره على غير حقيقته . والسير وفق مبدأ الكذب المنظم في تصريف امور الناس يستلزم حتماً استنزاف جزء كبير من ميزانية الدولة ليوزع على الجواسيس والدجالين والصحافة المرتزقة والجهاز السري للشرطة وتشكيلات السجون وما شاكلها . ولكن هناك دوياً هائلاً من جانب الشعب يسمى الاشياء باسمائها ويضع النقاط على الحروف كما يقولون فلا تخدعه الدعاية او التضليل .

وهناك اجراء آخر كثيراً ما تلجأ الفئة الحاكمة اليه لالهاء الشعب عن امر التفكير في مشكلته الرئيسة (مشكلة اسلوب الحكم نفسه) فتوجه انظاره في فترات خاصة نحو خطر خارجي توهمه بوجوده . وقد لا تتردد الفئة الحاكمة نفسها من نشر الاشاعات والاراجيف وتدبير المؤامرات والمظاهرات ضماناً لصرف انظار الناس عن مشكلتهم الرئيسة (وجود الفئة الحاكمة نفسها) من جهة وتنكيلا بمناوئيها من جهة اخرى . ولا تتردد الفئة الحاكمة في بعض الاقطار من توجيه انظار المطالبين بالاصلاح عن المشكلة الرئيسة (مشكلة اسلوب الحكم ذاته) الى مشكلة ثانوية الاهمية . كأن يقال مثلا ان « الاقطاع هو المشكلة الرئيسة لمجتمع ما » فى حين ان الاقطاع في واقعه جزء من مشكلة اسلوب الحكم لا العكس . وان كبار الاقطاعيين في الوقت الحاضر يستمدون نفوذهم من الفئة الحاكمة . لا العكس . يضاف الى ذلك ان الاقطاعيين يكونون في العادة منبعاً للمال يعونون الفئة الحاكمة به بالطرق غير المشروعة . والفئة الحاكمة بعملها هذا تفعل شيئين فى آن واحد =

ذلك الانفجار ونتائجه كما يحدثنا جون ديوي على الظروف الخاصة بكل شعب من جهة وعلى الوضع العام للفئة الحاكمة من جهة اخرى . وما انفجار الشعب في الواقع الا اجابته الاخيرة على تصرفات الفئة الحاكمة .

يأخذ انفجار الشعب ضد الفئة الحاكمة شكلين متميزين : ١ـ الاحتجاجات الفردية المبعثرة ٢ ـ الكفاح الجماعي المنظم الذي قد ينقلب الى عنف وثورة كما سنرى . ان تلك الاجابات تبدأ في الواقع منذ اللحظة الاولى التي يشعر فيها الشعب او بعضه بسوء نوايا الفئة الحاكمة وتصرفاتها الظالمة تجاهه . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الفئة الحاكمة تبدأ بفقدان هيبتها ومركزها منذ لحظة تسلمها مقاليد الحكم . وكلما اوغلت الفئة الحاكمة في اذلال الشعب وحرمانه من حقوقه باساليب تعسفية واضحة قربت اجلها بنفسها وجعلت الشعب مضطراً على مقاومتها .

يعتبر جون ديوي الاسلوب الأول في تعبير الشعب عن ارادته مقدمة للاسلوب الثاني الذي كثيراً ما ينقلب الى ثورة دامية عنيفة . غير ان هذا لا يعني ان الاسلوبين يتلاحقان بفترة قصيرة من الزمن فقد بدأت الاحتجاجات الفردية المبعثرة في فرنسا منذ اوائل القرن الثامن عشر وربما قبل ذلك وانتقلت الى ما يشبه الاعمال الجماعية المناوئة للحكومة في اواسط ذلك القرن ثم عبرت عن نفسها بشكل

= لدعم مصالحها : فهي تصرف المطالبين بالاصلاح عن اصل المشكلة (وهي وجود الفئة الحاكمة) وتجعلهم يطلبون منها (التي هي نفسها تحتاج الى اصلاح) ان تقوم بالاصلاح المنشود . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الفئة الحاكمة بدعوتها تلك تجعل الاقطاعيين في حالة قلق نفسي مستمر فتوحي لهم بالارتماء باحضانها لان ذلك يعصمهم ويعصمها من التعرض للانهيار .

ثوري عنيف فى عام ١٧٨٩ وبدأت الاحتجاجات الفردية المبعثرة في روسيا منذ اوائل القرن الماضي واتخذت شكل اعمال جماعية منظمة في اواخره . ولم تنقلب الى ثورة الا فى عام ١٩١٧م .

تأخذ الاحتجاجات الفردية اشكالا مختلفة حسب الزمان والمكان فطوراً تظهر على شكل انتقاد يوجهه بعض الناس فى مجالسهم الخاصة للفئة الحاكمة . وتارة تأخذ شكل تأنيب يوجه بشكل مباشر الى الفئة الحاكمة في بعض المناسبات . وتارة تأخذ شكل تعريض رمزي يتعلق بالاوضاع السائدة يوضع على هيئة قصص ومواعظ على السنة الحيوانات والطيور وطوراً يأخذ شكل رسائل غفل من التوقيع تكتب ويتداولها الناس . وتكون تلك الرسائل مستقلة بذاتها احياناً ومنشورة في الصحف المحلية في حالة وجودها احياناً اخرى . وقد تذيل باسماء مستعارة . ان تلك الاجراءات الشعبية وان كانت فردية ومبعثرة الا انها لا تحمل آراء اصحابها فقط بل تعبر فى واقعها عن آراء الكثيرين من ابناء الشعب الذين لم يتسن لهم ان يعبروا عن آرائهم بشكل واضح لشتى الاسباب . وهي تكثر عادة فى الاقطار التي ينتفي فيها وجود التنظيم الحزبي في بعض الحالات وتفتقر الى صحافة حرة في حالات اخرى او في الاماكن التي تنتشر الامية بين الكثيرين من ابنائها وبذا يفقد الشعب الوسائل الاساس لاتصاله الفكري وتبادله وجهات النظر وتوحيده جهوده فيما يتصل بموقفه من الفئة الحاكمة .

اما الكفاح الجماعي المنظم فيتجلى بوضوح فى اوربا طوال القرون الثلاثة الماضية . وتختلف تلك الظاهرة من حيث قوة تنظيمها وعمق اثرها باختلاف المجتمع الذي تحدث فيه . غير ان المشاهد مع هذا يشير الى انها تبدأ فى العادة على شكل

احتجاجات مبعثرة ساعدتها ظروفها الاجتماعية والفكرية على الانتشار فتبنتها فئة من الناس (قليلة العدد او كثيرته) واخذت تذيعها بين افراد المجتمع الآخرين بجميع الوسائل الممكنة . وظاهرة الكفاح الجماعي المنظم فى هذه المرحلة من تاريخها اما ان تستمر على النصر والتأصل في نفوس اتباعها بحيث تجعل منهم قوة تستطيع في المدى البعيد او القريب ان تقف فى وجه الفئة الحاكمة او لا ومن ثم ترغمها على التخلي عن الحكم . واما ان يكتب لها الفشل فتنتكس وتعود كما بدأت الى البعثرة وفقدان التنظيم . وقد تتوارى عن الانظار زمناً طويلا او قصيراً . وربما ساعدتها الظروف في المستقبل القريب او البعيد فعادت نشطة مرة اخرى فيكتب لها النجاح او الهزيمة المؤقتة وهكذا الى ان تتوج بنجاح حاسم . وتكون بداية النجاح الحاسم صراعاً دموياً عنيفاً بين الفئة الحاكمة وفئة تدعي انها تطالب بحقوق الشعب ان حقاً او باطلا غيران بداية التحدي في هذا الصراع تأتي عادة من جانب الفئة الحاكمة وتكون نتيجة الصراع ان عاجلا او آجلا وبالا عليها .

بدأ الصراع الجماعي المنظم بين الشعب والفئة الحاكمة اول ما بدأ من الناحية التاريخية في انكلترا في اواسط القرن السابع عشر . ثم انتقل الى فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر . وبعد ذلك سرى فى الاقطار الاوربية المختلفة منذ سقوط نابليون فى اوائل القرن التاسع عشر وبلغ مرحلة حاسمة فى اواسط ذلك القرن في الولايات الالمانية وفى النمسا وفي كثير من الاقطار الواقعة فى اواسط اوربا . ثم انتقل الى روسيا فاحدث ثورتها الكبرى عام ١٩١٧ . ويتلخص جوهر ذلك الصراع في قدرة الشعب او بعضه فى التعبير العملي بالقول او العمل عن كرهه للفئة الحاكمة نفسها واساليبها في الحكم ومحاولته تغيير تلك الاساليب مع تغيير في

الاشخاص الحاكمين . وقد لا يقف الامر عند حد تغيير اساليب الحكم واشخاصه بل يتعدى ذلك الى تغير نظام الحكم نفسه كما حصل ذلك في فرنسا عام ١٧٨٩ وفى روسيا عام ١٩١٧ وفي كثير من دول اوربا الوسطى حيث تغيرت انظمة الحكم نفسها مع اشخاصها . ويحدث التغير فى حالات اخرى في اساليب الحكم واشخاصه ضمن النظام القائم عن طريق جمله يسير على اسس شعبية كما حصل ذلك فى انكلترا حيث حدث التغيير ضمن النظام الملكي وفي حدود الوزارة والبرلمان . ويحصل التغيير في كلتا الحالتين اما حسب فلسفة نظرية واضحة المعالم يبدأ تطبيقها مباشرة بعد زوال العهد القديم او يكتفي بمجرد القضاء على النظام السائد ومن ثم يفكر بوضع اسس نظرية لحكم جديد او بالدعوة الى تغيير محتويات النظام القديم مع المحافظة على كيانه العام وفق بعض المفاهيم النظرية المجردة . وينصب اهتمام الشعب في جميع الحالات على ضرورة تغيير اساليب الحكم اكثر من انصبابه على مجرد تغيير الافراد الحاكمين . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان نجاح الشعب فى كفاحه ضد الفئة الحاكمة يكون عنيفاً وشاقاً وطويلا وبخاصة اذا كانت تلك الفئة مستندة في نفوذها على فئة حاكمة اخرى (فى قطر آخر) قوية فى تشكيلاتها السياسية والعسكرية . ويكون ذلك الكفاح عنيفاً وشاقاً وطويلا اذا تسنى للفئة الحاكمة فى قطر من الاقطار ان تتجنب الاخطاء التي عرضت زميلاتها في الاقطار الاخرى الى الفشل . ولكن تصرفات الفئة الحاكمة مع هذا كثيراً ما تكون عاملاً من عوامل اندلاع نيران الثورة .

. . . .

الثورة وان كانت كلمة واحدة الا انها ذات معان عدة تختلف باختلاف المجال

الذي تقع فيه والاسلوب الذي يتخذ لتحقيقها • فهناك مثلا الثورة الصناعية التي حدثت في اوربا فى القرن السادس عشر والثورة الفكرية التي حدثت في اوربا في القرن التاسع عشر والثورة الانكليزية التي حدثت عام ١٦٨٨ والثورة الفرنسية التي وقعت عام ١٧٨٩ والثورة الروسية التي حدثت عام ١٩١٧ • فالثورتان الصناعية والفكرية واضرابهما يقعان في حقل مشترك ويتشابهان في كثير من اوجههما على حين ان الثورة الانكليزية والروسية والفرنسية واضرابها تقع ضمن حقل مشترك كذلك وهي تتشـــابه فى كثير من اوجهها . فالثورة الاولى والثانية وما شاكلهما قد حدثتا بصورة سلمية ولم يرافقهما (اذا استثنينا ما رافق الثانية منهما من اضطهاد قامت به السلطات المسؤولة بمساعدة رجال الكنيسة لبعض رجال الفكر فى الحالات التي اظهروا فيها شكهم فى المعتقدات الدينية السائدة) اراقة دماء . اما الثورات الثلاثة الاخرى فقامت على استعمال العنف واللجوء الى اتخاذ السيف وسيطاً لحل المشكلات التي من اجلها حدثت تلك الثورات . غير ان تلك الثورات جميعاً مع هذا تشترك فى صفة عامة واحدة هي الخروج على السائد من الانظمة والتقاليد ومحاولة تغييره تغييراً جذرياً وسريعاً ، فبدأت الاولى منها (الثورة الصناعية) فى مجال الصناعة والتجارة وقلبت وسائل العمل وطرق المواصلات رأساً على عقب • وكان من نتائجها استعمال الآلات والادوات والاجهزة على اختلاف انواعها كالسفن البخارية التي حلت محل السفن الشراعية والسيارة والقطار اللذين حلا محل الحصان ، والطائرة والبرق والتلغراف والتلفون الخ • اما الثورة الثانية فاحدثت تغييرات واسعة المدى وعميقة الاثر في نظرة الانسان الى الطبيعة والمجتمع ونفسه • وكان من نتائجها ان ظهرت الفلسفات الاجتماعية المختلفة والنظريات

العلمية والقوانين والشرائع الاجتماعية وما شاكلها . والثورة الفكرية في بعض اوجهها ناتجة عن الثورة الصناعية . وهذه بدورها نتاج ثورة فكرية سابقة . وقد ادى الاثنان معاً الى ظهور الثورات العسكرية المسلحة التي اعقبتها بوساطة ما احدثتاه من تغيير كبير في اساليب عيش الناس وطرائق تفكيرهم الاجتماعي والسياسي . والثورات العسكرية المسلحة بدورها مهدت السبيل لتقدم فكري وصناعي جديد . وهكذا دواليك .

وبما ان بحثنا منصب على معالجة الثورة بمعناها السياسي ـ العسكري المسلح فسوف نتطرق الى ذكر ممهداتها وعوامل حدوثها ونجاحها او اخفاق القائمين بها . وقبل ان نبدأ بذلك يجمل بنا ان نشير هنا الى ان الكتاب السياسيين قد انقسموا على انفسهم بشكل عام الى قسمين حين تصدوا الى البحث في شرعية الثورة . فذهب بعضهم الى ان الثورة شيء مشروع يحق للشعب بل يجب عليه احياناً ان يقوم بها للقضاء على الحكومة التي لا تمثله والتي تتنكب عن السبيل السوي في الحكم . ذلك لان وظيفة الحكومة حسب رأيهم هي خدمة ابناء الشعب والعمل المستمر على رفع مستوياتهم من الناحيتين المادية والمعنوية . وان اخلالها بذلك يعتبر مبرراً مشروعاً لمناهضتها واقصائها بالقوة المسلحة عن مركزها في الدولة تمهيداً لمجيء حكومة افضل منها . على حين ان بعضاً آخر ذهب الى الناحية المعاكسة فاعتبر الثورة امراً محرماً من ناحية العرف العام والتشريعات الاجتماعية وسبب هذا الاختلاف او التناقض بين الرأيين السالفي الذكر راجع الى اختلاف واضح بين نظرتي الفريقين المار ذكرهما في اصل الدولة وكيفية نشوئها .

وسواء اكانت الثورة مشروعة ام غير مشروعة فانها ظاهرة اجتماعية كثيرة

الحدوث في الماضي والحاضر وربما في المستقبل . والثورة كما سلف ان ذكرنا تتضمن اجراء تغيير مفاجيء وعميق في الاوضاع السائدة وبخاصة السياسية منها . وتذهب تلك التغييرات الى مدى ابعد من مجرد تغيير اعضاء الفئة الحاكمة او استبدالهم بغيرهم او احداث تبدل في السياسة العامة للحكومة . اي انها تهدف اولا وقبل كل شيء تحطيم الجهاز الحكومي القائم (اشخاصه وقوانينه) لغرض احلال اشخاص آخرين ممن لا يشاطرون الفئة الحاكمة اساليبها في الحكم . وكذلك احداث قوانين جديدة يتبعها حتماً تغيير اساس واسع المدى وعميق الاثر في علاقات الافراد والجماعات ببعضهم والحكومة . وتحدث الثورة في العادة في مجتمع منقسم على نفسه الى اقلية حاكمة مستهترة من وجهة نظر المحكومين واكثرية محكومة ومحرومة . تشعر تلك الاكثرية او بعضها ان حقاً او باطلا بان الفئة الحاكمة قد استهانت بها وهدرت مصالحها واستباحت كرامتها وسلبتها حقها في العيش . ولا تنفجر الثورة كما سيأتي شرحه الا اذا سبقها ضمور في هيبة الحكومة القائمة وضعف عام من وجهة نظر الذين يدبرون امر القيام بالثورة . يقابل ذلك شعور بالثقة من جانب مدبري امر القيام بالثورة بالثقة بانفسهم في القدرة على تحقيق امانيهم التي يعتبرونها نبيلة في قصدها وسامية في مغزاها . فتبدأ هيبة الحكومة بالظهور بمظهر الضعف في بعض الاماكن وبنظر بعض الافراد الامر الذي يسهل القيام بالعصيان والتمرد والمظاهرات والاضطرابات وماشا كلها . وهنا اما ان تخمدها الحكومة باتخاذ اجراءات صارمة اذا استطاعت . واما ان تفشل في علاجها فيسهل امر انتشارها الى مناطق اخرى .

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول ان الثورة تحدث عادة اذا سبقها

(١) شعور (صحيح او غير صحيح) من جانب الشعب بضعف هيبة الحكومة و(٢) عدم رغبة الشعب او بعضه فى تحمل الاوضاع السائدة التي تعتبر (ان حقاً او باطلاً) قد بلغت مرحلة من التردي لا يمكن معه احتمالها . ولا يتسنى حصول ذلك الا اذا سبقه انتشار افكار (مبعثرة او منظمة) تناهض الوضع القائم وتبعث على التشاؤم منه وتنشر التذمر بين الناس وتبشر بانبلاج فجر اصلاح شامل يكون للقائمين بالثورة فيه القدح المعلى فى التنظيم والحكم .

ومن الطريف ان نذكر هنا ان الاوضاع السائدة كثيراً ما تتجسم مفاسدها ويبالغ فى ذلك بطريقة مقصودة او غير مقصودة . وكثيراً ما تحاول الفئة الحاكمة القيام باصلاحات مبعثرة يعتبرها الناس تافهة يراد بها التضليل والتمويه . وكثيراً ما يلجأ دعاة تغيير الاوضاع الى مقارنة الاوضاع الفاسدة مجسمة مع اوضاع مستقبلة يصفون محاسنها بشيء كثير من المثالية والمبالغة . ويقولون ان تلك الاوضاع سوف تتحقق اذا نجحت الثورة . ويلاحظ عادة ان الثورة فى حالة نجاحها تجعل الكثيرين من السكان (حتى وان لم يساهموا فيها) يعلنون بانهم من انصارها او من الممهدين لاحداثها . ولعل السبب في ذلك راجع الى رغبتهم في المساهمة في الوضع الجديد او تجنب ما قد يلحقهم من اذى فى حالة اعتبارهم من انصار القديم . والعكس صحيح كذلك . فاذا فشلت الثورة حاول الكثيرون من رجالها ان يتنصلوا عنها تجنباً لما يتعرضون اليه من متاعب وعقوبات .

وقبل ان نتطرق الى البحث في عوامل الثورة وممهداتها يجمل بنا ان ننبه القاريء الى ضرورة التمييز بين الثورة Revolution والانقلاب Coup d'etate والحركة الانفصالية Rebellion والعصيان او التمرد

Insurrection والتحريض Agitation والتظاهر Riot ، والاخماد او الثورة المماكسة Counter-revolution . فالانقلاب وهو مصطلح فرنسي كما بينا ازاء الكلمة العربية المقابلة له ظهر المرة الاولى في الكتابات السياسية على اثر الحركة التي قام بها نابليون بونابارت في فرنسا عام ١٧٧٩ حين اعلن عن توسيعه لصلاحياته الحكومية التي كان يتمتع بها قبل ذلك العام . ويصدق الشيء نفسه على الحركة التي قام بها نابليون الثالث في فرنسا عام ١٨٥١ . والانقلاب يختلف عن الثورة في انه محاولة من جانب الحاكم نفسه لتوسيع صلاحياته او تحويل نفسه من رئيس جمهورية مثلا الى ملك او اعلان نفسه رئيساً للجمهورية لمدة اطول مما كان متفقاً عليه او قيام فئة جديدة حاكمة للحلول محل الفئة الحاكمة القديمة . ويدخل ضمن نطاق الانقلاب كذلك جميع الحركات العسكرية او السلمية التي يقوم بها فرد او افراد قلائل دون ان يرافقها عادة ما يرافق الثورة من مظاهرات واضرابات وما شاكلها على نطاق واسع لغرض تسلم مقاليد الحكم . ومن المشاهد ان نجاح الانقلاب محدود اذا لم يتحول الى نظام يستمد مقوماته من الشعب والقوى المؤثرة في تصريف الشؤون العامة للدولة . ويكثر حدوث الانقلاب في الاقطار التي لازالت غير ناضجة من الناحية السياسية ويستند الانقلاب على القوة العسكرية . ولكن القائمين به احياناً قد لا يحتاجون الى استعمالها . اما الحركة الانفصالية فتتضمن (كما تدل التسمية على ذلك) قيام جزء كبير او صغير من اجزاء قطر او عدد من الاقطار للانفصال عن جسم الحكومة المركزية . وكثيراً ما يمهد للانفصال ببث روح التذمر من الوضع الحكومي القائم واحداث شعور عند السكان في المنطقة المراد فصلها يتضمن ضرورة الانفصال ومن ثم يستعمل العنف او القوة

المسلحة لتحقيقه . وقد تساهم فى ذلك قوى خارجية اخرى لاغراض شتى . وفي التاريخ امثلة كثيرة من هذا القبيل وبخاصة فيما يتصل بالامبراطوريات القديمة والحديثة التي تضم عناصر واقطاراً متباينة اللغات والتقاليد والآمال . ولعل لظهور الفكرة القومية في اوربا فى القرن التاسع عشر وانتشار مبدأ الحكم الذاتي اثراً كبيراً في الدعوة الى الانفصال الذي شهده القرن الحاضر وبدأ ظهوره فى اواخر القرن الماضي . اما العصيان او التمرد فهو حركة اضيق فى مداها واهدافها من الثورة ومن الحركة الانفصالية . ويمكن اعتبار التمرد مقدمة لحدوث الثورة وبخاصة اذا اتسع نطاقه وانتشر من موضعه الذي يحدث فيه فانتظم مواضع اخرى . والعصيان اذا لم يتحول الى ثورة لايكون ذا اثر كبير فى تغيير كيان الحكومة القائمة . وكثيراً ما يؤدي العصيان الى عكس ما يتوقعه القائمون به . ذلك لان الحكومة القائمة قد تحزم امرها وتقوى نفسها وتتناسى انقساماتها الداخلية فتطارد القائمين بالعصيان وتسد منافذهم الفكرية والاجتماعية . ويتضمن العصيان في العادة مواجهة مكشوفة عدائية بين القائمين به والقوات الحكومية المسلحة . فاذا لم تستطع القوات الحكومية صده تحول الى ثورة وانتشر الى كثير من المناطق التي ينتشر التذمر بين سكانها نتيجة للتمهيد لذلك من الناحيتين الفكرية والمادية المتمثل في بث الدعاية اللازمة له بشتى الطرق والايحاء للناس بانه انما يهدف الى تحقيق العدل الاجتماعي والقضاء على الظلم والفساد واذا استطاعت الحكومة اخماده فانه يختفي الى مدة . ومن ثم يظهر بشكل آخر . ولا يحصل العصيان بهذا الشكل السافر الا اذا اصبح القائمون به مقتنعين بان لا سبيل غيره لتحدي الحكومة القائمة وانه مضمون النجاح كذلك . اما التحريض فهو محاولة كسب الجماهير من الناحية العاطفية

والفكرية لغرض القيام بالعصيان تمهيداً للثورة . ويتضمن التحريض بث المبادىء والآراء المناهضة للوضع القائم والتبشير بمبادىء يعتبرها المحرومون البلسم الشافي للمجتمع من علله واوصابه . ويستهدف التحريض توجيه عواطف المتذمرين جميعاً ضد الوضع القائم (بعد استثارتها طبعاً) نحو الاشتراك في القيام بعمل ايجابي للقضاء على ذلك الوضع . فتسير عواطف الناس المتذمرين على الرغم من اختلافها ضمن اطار عام هو القضاء على الوضع الفاسد . وقد تقوم الحكومة بتحريض مقابل وقد تضغط على المحرضين كذلك . وكثيراً ما يلجأ المحرضون الى بث الدعاية السرية المنظمة واستعمال الرموز والشعارات . ولا يشترط حتماً ان يتبع التحريض قبل نضوجه عمل ايجابي منظم للقيام بالمظاهرات او الدعوة الى العصيان الخ . وكثيراً ما يسبق التحريض العصيان بفترة زمنية ليست بالقصيرة . كل ذلك يتوقف على عوامل كثيرة منها استجابة الجماهير وضعف السلطة القائمة وتفسخها بنظرهم . اما المظاهرات فهي الحركات التي ترافق العصيان عادة وتعبر عنه . اي انها صوت العصيان . وقد تكون المظاهرات محدودة الهدف او واسعته . وقد تكون موجهة ضد شخص او فئة من الاشخاص او ضد وضع خاص او عام . والمظاهرات طلائع العصيان وممهدات الثورة .

نستطيع ان نقول في ضوء ما ذكرنا ان العصيان والتحريض والتظاهر امور لا بد ان تسبق الثورة فتمهد لها . والثورة في واقعها عصيان وتحريض وتظاهر امتد اثرها واسعاً وعميقاً . وان كلا من تلك العناصر على حدة وان كان شرطاً لازماً لظهور الثورة الا انه لا يؤدي من نفسه وبمفرده الى حدوثها . والثورة بدورها لا تحدث الا اذا تظافرت العوامل الثلاثة وتعاونت على حدوثها كما سيأتي

تفصيله . ومما تجدر الاشارة اليه قبل التصدي الى بحث الثورة هو ان الفئة الحاكمة تحاول دائماً وتسعى ابداً الى عدم حدوث الثورة . اما اذا حدثت الثورة على الرغم من جميع اجراءاتها فان الفئة الحاكمة تقوم بسلسلة اخرى من الاجراءات لاحباطها . ويمكننا ان نصف الاجراءات التي تتخذها الفئة الحاكمة فيما يتصل بالثورة لتفادي وقوعها او لاخمادها الى صنفين : (١) الاجراءات الوقائيـــة (٢) الاجراءات العلاجية . والاجراءات الوقائية تتخذ قبل حصول الثورة بزمن بعيد او قريب اما الاجراءات العلاجية فيتم اتخاذها قبيل اندلاع نيران الثورة او اثناء ذلك . والغريب فى الامر ان الفئة الحاكمة فى كلتا الحالتين تستعين بالشعب ضد نفسه .

١ـ الاجراءات الوقائية : وتتجلى تلك الاجراءات في المدى البعيد فى محاولة الفئة الحاكمة ان تتبنى عدداً كبيراً او صغيراً من افراد الفئة المحكومة عن طريق المصاهرة او العطف وترفعهم الى مستواها من ناحية المساهمة فى الحكم. ويكون هؤلاء فى العادة اشد خطراً على الشعب وعلى كيان الفئة الحاكمة من الفئة الحاكمة نفسها . وبما ان هؤلاء كانوا بارعين في الوصول الى مستوى الفئة الحاكمة فانهم يحاولون ان يبرعوا فى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة للمحافظة على وضعهم الذي وصلوا اليه وضمان ذلك الوضع لاسرهم واقربائهم في المستقبل القريب والبعيد . وتظهر براعة الفئة الحاكمة في قدرتها على التقاط هذا النوع من الافراد من حيث قدرته على المســـاهمة في ابقاء الاوضاع العامة على ما هي عليه لانها تصبح بنظره متصلة بمصالحه الخاصة وآماله ومستقبله . غير ان هؤلاء النفر من الجهة الثانية كثيراً ما تكون تصرفاتهم الطائشة واستهتارهم بمصالح الناس سبباً من اسباب تقويض

كيانهم وكيان الفئة الحاكمة التي اوصلتهم الى مراكزهم تلك . ولا تتردد الفئة الحاكمة كذلك لغرض تثبيت كيانها الى استغلال جميع الروابط التي تربطها بالشعب . وبما ان تلك الروابط كثيرة ومنوعة فان الفئة الحاكمة تتصل بكل جانب من جوانب الشعب عن طريق استثمار اكبر كمية ممكنة من الروابط التي تربطها به عن طريق اللعب على عواطفه ضماناً لمصالحها في المدى البعيد . فتارة تستثير عند بعض الناس روابطها الدينية او المذهبية وطوراً تستثير في بعض آخر روابطها العنصرية او اللغوية . ومرة روابط المصلحة المشتركة . وهكذا وهي بهذا الاسلوب تحاول من الناحية السلبية قطع صلة الشعب بنفسه وتمزيق وحدته فتجعل بعضه مساهماً في سلب حقوق بعض آخر . ويحصل ذلك كله على حساب مصلحة الشعب .

وتتجلى تلك الاجراءات كذلك بالاستيلاء على جميع وسائل النشر والاتصال الفكري بين الافراد حيث تخضع تلك جميعاً الى توجيهات الفئة الحاكمة واهدافها . ولا تتردد الحكومة من اللجوء الى التمويه والدجل والتضليل والكذب لغرض السير في سياستها وكثيراً ما تستعين الحكومة ببعض العناصر المحافظة والرجعية من ابناء الشعب لغرض اخماد التذمر والشكوى من الاوضاع العامة . ومن الوسائل الاخرى التي تستعين بها الفئة الحاكمة للحيلولة بين الشعب وتمرده عليها الهاؤه بمسائل جانبية تافهة لتوجيه انظاره عن معالجة المشكلات العامة التي تتصل بحياته وكيانه . وكثيراً ما تلجأ الفئة الحاكمة الى استعمال الوسائل الزاجرة والعقوبات الرادعة كالنفي او الحبس او الاغتيال وما شاكلها .

٢- الاجراءات العلاجية : وتتخذ عادة قبل اندلاع نيران الثورة أو اثناء

ذلك . وهي تمتاز بالشدة والصرامة أو تقوم على الادعاء بان من يريدون القيام بها انما هم «مشاغبون» أو «هدامون» أو «خطرون» أو «ملاحدة» أو «زنادقة» أو «خونة» الخ . حسبما تقتضيه الظروف الاجتماعية العامة . غير ان المشاهد مع هذا كله يدل على ان تلك الاجراءات بنوعيها كثيراً ماتفشل في اداء مهمتها على وجهها السليم . وانها ربما تكون عاملا من عوامل التمهيد للثورة .

لقد مر بنا القول ان اجابة الشعب على تصرفات الفئة الحاكمة المبنية على اساس الاستهانة بمصالحه وحقوقه تظهر في بعض الاحيان على شكل حركات فردية مبعثرة يقوم بها بعض افراد الشعب مُتَحَدّين سلطان الفئة الحاكمة . وتظهر تلك الاجابة الشعبية احياناً اخرى على شكل كفاح جماعي منظم يتحول احياناً الى ثورة دموية تنشب بين الجانبين المتخاصمين . فاذا كتب النجاح لتلك الثورة اكتسحت الفئة الحاكمة وازالت نفوذها ومهدت الطريق لحدوث انقلاب فى اصول الحكم ونتائجه من الناحيتين النظرية والعملية . واذا لم تنجح الثورة في وقتها فانها ربما تتلاشى عن الانظار وقد يعمل دعاتها متخفين لتجنب العوامل التي عرضت قيامهم بالثورة الى الفشل في الماضي وقد يحاولون اجراء تغيير فى وسائلهم وخططهم وفقاً لمستلزمات الظروف السائدة . وقد يكتب لهم النجاح أو الفشل ثانية . غير انه يمكن ان يقال من الجهة الثانية ان الكفاح بين الشعب والفئة الحاكمة ينتهي حتماً ان عاجلاً أو آجلا بانتصار الشعب واندحار المعتدين على حقوقه . غير ان الثورة احياناً تكون عاملا من عوامل استبدال فئة حاكمة باخرى من الناحية السياسية حتى وان رافق ذلك تغيير صغير أو كبير في الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للشعب . كما حصل ذلك فى روسيا بعد ثورتها الحمراء عام ١٩١٧ حيث استبدل حكم القياصرة القائم آنذاك بحكم فئة جديدة اكثر براعة منهم في المحافظة على نفسها

وعلى حكمها . ولحدوث الثورة الدموية عوامل وممهدات قريبة وبعيدة فكرية ومادية يشترك فيها الشعب والفئة الحاكمة في آن واحد . ومهما يكن من شيء فان الفئة الحاكمة في الواقع تزرع بذور الثورة في نفوس ابناء الشعب في اللحظة التي تبدأ حكمها غير العادل وعبثها بحقوقه ومقدراته . والشعب إلاّ في حالات خاصة يساء فيها توجيهه طالب حق يسعى لرفع الجور عن نفسه . وكلما امتد الزمن بالفئة الحاكمة حتى وان بدا لها ولاتباعها أو للشعب نفسه انها في اوج سلطانها وعظمتها فان مركزها في الواقع يكون في كل لحظة اضعف منه في اللحظة التي سبقتها . والزمن الذي تبدو فيه الفئة الحاكمة كأنها ماسكة زمام الموقف من جميع جوانبه ماهو في الواقع الا فترة اختفت فيها عوامل التذمر والتحدي ولكنها لم تتلاش كما يخيل للكثيرين . وكثيراً مايكون ذلك الزمن الذي يبدو هادئاً اذا توافرت شروط معينة سنذكرها هو الزمن الذي تنفجر فيه قوى الشعب الكامنة التي تجتاح الحكم القائم واعمدته . وكثيراً مايوصف هذا الهدوء بانه الهدوء الذي يسبق العاصفة .

تحدث الثورة في العادة اذا سبقتها ممهدات خاصة . غير ان حدوث الثورة لايستلزم حتماً نجاحها . فقد تفشل الثورة وينتكس دعاتها لانها حصلت قبل اوانها ولا بد لنجاح الثورة بعد حدوثها من توافر الشروط الآتية مجتمعة :

آ — فيما يتصل بالشعب

١ — الجانب المعاشي

ينبغي لكي يكون حصول الثورة ممكناً ان يتعرض الشعب أو بعضه قبيل انفجار الثورة باسابيع أو اشهر الى ازمة معاشية حادة . ولا يستطيع الباحث

بطبيعة الحال ان يحسب مقدار تلك الحدة في الازمة المعاشية الآنفة الذكر .
ولكنه مع هذا يستطيع أن يقدر حدتها بوساطة حسابه انتائجها . اي ان
انتفاضات الشعب أو بعضه على الحكومة دليل بقدر مايتعلق الامر بالجانب
المعاشي على ان ازمة معاشية قد المت بالبلاد وقد شعر بتلك الحدة من قاموا بذلك .
فقد تعرض الشعب الفرنسي الى ازمة معاشية حادة نتيجة لرداءة المحصول الزراعي
وقلته في شتاء عام ١٧٨٨ الشديد البرد الامر الذي مهد السبيل الى قيام الثورة
الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . ويصدق الشيء نفسه على روسيا في شتاء عام ١٩١٦ .
وقد لا يتردد دعاة مناهضة الوضع القائم من التمهيد لايجاد ازمة معاشية حادة
بوساطة اخفاء ما هو موجود من الطعام عن متناول الناس الذين هم بامس الحاجة
اليه او عرض ما لا يسد حاجتهم منه او جعل ما يعرض منه على حالة من الرداءة
بحيث يجعل صيحات التذمر تتعالى في الفضاء . وغرض دعاة الثورة من كل ذلك
هو الانتفاع باستثارة عواطف الجماهير وتوجيه مجرى تذمرها عن الاتجاه الذي
يسير فيه من جهة وعن البعثرة التي تكتنفه من جهة اخرى فيسير وفق الاتجاه
الذي يريدونه وبشكل منظم ومتماسك . وبهذه الطريقة يسدون على الجماهير المتذمرة
منافذ التذمر القديم ويفتحون امامها منافذ جديدة . فهم اذن لا يقضون على
التذمر من حيث الاساس حتى بعد نجاح ثورتهم وانما يحولون تحويل اتجاهه فقط .
فيشغلون الناس قبيل الثورة واثناءها في شجب الوضع القديم ومن ثم يوحون لهم
بامكانية عودته لاشغالهم في التأهب لخنقه في مهده . وكثيراً ما يتم ذلك على
حساب الجماهير التي تستعمل حطباً لنار الثورة . وكثيراً ما يكون الوضع الجديد
اقسى عليهم من سلفه من حيث جوهره لا من حيث المظهر الخارجي . ومما تجدر
الاشارة اليه في هذا الصدد ان الطبقات المحرومة في العادة هي التي تكتوي بنار

الوضع في الحالتين القديمة والجديدة . ففي الثورة الفرنسية مثلاً بلغ عدد من سيقوا الى المقصلة او اعدموا رمياً بالرصاص او اغرقوا في نهر اللوار او هربوا من بلادهم او سجنوا (من الذين عرفت هوياتهم فقط) حوالى ٧٠٠ الف شخص كلهم كانوا من الفلاحين والعمال والفئات المحرومة . ولم يتجاوز عدد الذين تعرضوا للموت من اعضاء الفئة الفرنسية الحاكمة واصحاب المصالح المركزة بضع مئات .
ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان القرويين والفقراء الذين انبثقت الثورة لحماية ارواحهم ومصالحهم كانوا معرضين للقتل من قبل زعماء الثورة انفسهم باعداد كبيرة ولاتفه الاسباب . وكثيراً ما كانت محاكمتهم تجري بشكل سريع هذا في حالة سوقهم الى المحاكم . على انهم في الاعم الاغلب كانوا يساقون الى الموت زرافات ووحدانا دون محاكمة . على حين ان اعمدة العهد القديم كانوا يقدمون للمحاكم حسب الاصول المتبعة ويسمح للمحامين بالدفاع عنهم هذا عدا عن جعل جميع وسائل الراحة الممكنة متوافرة لهم اثناء السجن أو المحاكمة . ذلك مايتصل بحدوث ازمة معاشية حادة من حيث كونها احدى ممهدات الثورة .

غير ان الباحث من الجهة الثانية يشاهد عدداً من الازمات المعاشية الحادة التي كانت تحدث في كل من فرنسا وروسيا في بعض المناطق أو في معظم ارجاء القطر مع مايرافقها من تذمر ومظاهرات في بعض الاحيان دون ان يعقب ذلك الوضع ثورة دموية مسلحة . ويعود السبب في ذلك دون شك الى ضرورة توافر عوامل اخرى الى جانب الازمة المعاشية الحادة التي يتعرض لها الشعب أو بعضه . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان الازمة المعاشية الحادة وان كانت شرطاً لابد منه لحدوث الثورة . الا انها بنفسها منفصلة عن عوامل اخرى مصاحبة سنذكرها لاتؤدي حتماً الى انفجار بركان الثورة . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الازمة المعاشية

لا تكون حادة بنظر الشعب أو بعضه الا اذا هيأت لها زمرة من ابناء الشعب تتخذ منها وسيلة لايقاظ شعور الناس وتأليبهم على تحدي الوضع القائم وتشجعهم على القيام بالمظاهرات واعمال التخريب والتدمير . وكثيراً ماتلجأ تلك الزمرة أو بعضها الى تصوير الوضع القائم بابشع مما هو عليه عن طريق الخطب والمناشير أو القيام باعمال استفزازية تقلق بال الحكومة القائمة .

٢ـ الجانب الفكري

لكي يتحول التذمر والمظاهرات التي يقوم بها الشعب أو بعضه سواء اكانت تلك المظاهرات جارية على نطاق محلي محدود أو على نطاق واسع الى ثورة دموية مسلحة يتحتم ان يسبق ذلك بالاضافة الى الازمة المعاشية الحادة التي سلف ذكرها انتشار الافكار والمبادىء المناوئة للحكم القائم بين الكثيرين من ابناء الشعب . فقد انتشر في فرنسا قبيل نشوب ثورة عام ١٧٨٩ كثير من الآراء والمبادىء النظرية غير المتفقة ومنطق الفئة الحاكمة واساليبها في الحكم آنذاك . ومن يرجع الى كتابات فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو مثلا يجد من الامثلة على انتشار المبادىء الاجتماعية غير المنسجمة مع الحكم القائم آنذاك شيئاً كثيراً . ويصدق الشيء نفسه على الوضع الفكري للشعب الروسي قبيل عام ١٩١٧ حيث انتشر كثير من الآراء والمبادىء الفكرية المناوئة للحكم القيصري الذي كان سائداً آنذاك . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ان انتشار الآراء فى هذه الفترة وقبول الناس لها لا يتوقف على سلامتها من الناحية العلمية بمقدار توقفه على ملاءمتها للظروف السائدة . وكلما مست الفكرة التي ينادي بها دعاة الثورة عاطفة قوية فى الناس ماهبة حماسهم للدفاع عنها كان ذلك عاملا قوياً فى استجابة الجماهير لها وايمانهم بها . غير ان انتشار الآراء والمبادىء المناوئة للحكم القائم وان كان ركناً اساسياً من الاركان

التي يستند اليها حدوث الثورة الا انه لوحده لايؤدي حتماً الى حدوث الثورة هذا من جهة ومن جهة ثانية فان انتشار المباديء المختلفة بين ابناء الشعب كثيراً مايكون عاملا من عوامل انقسام الشعب على نفسه . وقد يحدث ذلك احياناً في الحالات التي ينتشر فيها مبدأ سياسي واحد مناهض للوضع السياسي القائم فى قطر من الاقطار اذا تعددت الاساليب التي تتخذ لتحقيقه الامر الذي يجعل تعددها عاملا من عوامل تمزيق وحدة صفوف الشعب . وكثيراً ماتكون الفئة الحاكمة على درجة كبيرة من البراعة والنشاط فتستغل ذلك الخلاف الفكري فى المبادىء والاساليب لصالحها وتعمل جاهدة متخذة جميع الوسائل الممكنة على تشجيع انقسام الشعب على نفسه وبث التفرقة بين صفوفه وتوجيه انظار ابنائه واشغالهم بخلافاتهم الفكرية لتصبح هي فى منجى من تألبه عليها . وعلى هذا الاساس يمكننا ان نقول ان انتشار مبدأ سياسى واحد بين افراد الشعب لايكون فعالا بقدر مايتعلق الامر بتمهيده السبيل لحدوث الثورة الا اذا جمعت بين حملة تلك المباديء الكثيرة والمتباينة وحدة الشعور بضرورة القضاء على العدو المشترك المتمثل في الوضع السياسي القائم شريطة ان يتخذ الجميع اسلوباً واحداً أو اساليب متقاربة للتعبير عن ذلك الشعور .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد انه يشاهد اثناء اندلاع نيران الثورة ظهور اوجه جديدة تتولى الزعامة من الناحيتين السياسية والعسكرية . ولم تكن تلك الاوجه معروفة لسائر افراد الشعب الا بمقدار اتصالها به عن طريق ماتشغله من الوظائف المتواضعة بالنسبة للعهد القديم . ولعل ذلك راجع الى انها كانت تعتبر بمقاييس العهد القديم من الشخصيات المغمورة التابعة لتوجيهات الفئة الحاكمة واوامرها . وربما ساور بعض افراد الفئة الجديدة التي تنبثق الثورة عنها شعور

ربما يكون غامضاً في بعض الاحيان بان لها من الكفاءة والقدرة على تسيير دفة الامور مايجعلها تفكر بضرورة ازالة مايعترض سبيلها من عقبات وضعها في طريقها الحكم القائم الذي يتصف من وجهة نظرها بالفساد وعدم تقدير اصحاب الكفاءات. وربما كان شعورها بالكفاءة والحرمان في آن واحد هو الذي دفعها الى مناوءة الوضع القديم تمهيداً لايجاد عهد تتجلى فيه مواهبها وتظهر فيه كفاءاتها. ويجمل بنا ان نشير هنا الى ان الفئة الحاكمة قد تقوم احياناً بثورة معاكسة تقصد بها اخماد انفاس الثائرين. وفي هذه الحالة فان الفئة الحاكمة وان كانت تتمنى اعادة الماضي بجميع تفاصيله ومقوماته فانها لاتقوى على ذلك نظراً لتغير الظروف والاوضاع. وبما ان الفئة الحاكمة غير جادة للقيام باصلاح جذري لان ذلك يتنافى هو ومصالحها المركزة فانها تطلق لنفسها العنان في نثر الوعود وتبني المناهج الاصلاحية الخيالية. ولعل مخاوفها التي اثارتها الثورة قبل فشلها (فيما يتصل باحتمال فقدانها لكيانها ومركزها وشعورها بضعضعة ذلك الكيان في اوائل اخماد الثورة ظناً منها بامكانية عودة الثورة من جديد) فانها تتظاهر بالقيام بالاصلاحات التي يطالب بها الثائرون وربما تكون الفئة الحاكمة مخلصة في اول الامر لارغبة منها في الاصلاح بل محافظة على كيانها من التصدع مجدداً. غير انها بعد ان تتأكد من تثبيت مركزها واعادة هيبتها تعود ثانية وبالتدريج الى سابق عهدها متخذة سلسلة من الاجراءات الرجعية تكون كل حلقة فيها اكثر ايغالا في الرجعية من الحلقة التي تسبقها. وسبب ذلك على مايبدو في ان الاجراءات الاولى تكون اخف من الاجراءات اللاحقة هو ان الاولى منها قريبة العهد بالثورة الفاشلة فهي اذن تحاول ان تكون بعيدة عن استفزاز الناس من جديد.

اما اذا كتب النجاح للثورة نتيجة للعوامل التي نحن بصدد ذكرها فان اصحاب

المبادىء المختلفة (واصحاب الاساليب المختلفة في حالة انتشار مبدأ واحـــد) يعودون الى التناحر فيما بينهم . فيتسلم زمام الامور العامة في اول الامر ولفترة قصيرة من الزمن الجناح المتطرف من قادة الثورة . ولعل سبب ذلك راجع الى ان ذلك الجناح بحكم كونه اقلية عددية يشتد ايمانه بعدالة قضيته ويزداد تماسكه وقدرته على تجسيد مفاسد الوضع القديم . يضاف الى ذلك انصياع الجناح المعتدل والجناح المحافظ من رجال الثورة له مما يجعله بوضع يساعده على ادارة دفة السياسة العامة . وسبب انصياع الجناح المحافظ له هو خوفه من ان يوصف بالرجعية ومناصرة العهد القديم . اما الجناح المعتدل فيتخذ من ذلك ذريعة لاستلام مقاليد الحـكم . غير ان حماس الجناح المتطرف وايغاله في الانتقام من انصار العهد القديم يجعل الحكم يسير نحو المعتدلين من الثوار . واذا لم يستند المعتدلون في سياستهم على الشعب فان كيانهم يبقى معرضاً للانهيار . لقد بدأ زعماء الثورة الفرنسية بعد ان نجحوا في تقويض اركان العهد القديم بالـكيد لبعضهم بعضا . فاستطاع روبسبير زعيم الكتلة المعتدلة بعد ان استعان بدانتون زعيم الجناح المحافظان يسوق هبرت زعيم الجناح المتطرف وبعض اتباعه الى المقصلة بتهمة التآمر على الوضع الجديد والخيانة العظمى للوطن ومخالفة مبادىء الثورة نظراً لصرامتهم في محاسبة من اعتبروهم خصوما للعهد الجديد اثناء تسلمهم مقاليد الحـكم لفترة قصيرة من الزمن . وبعد ان تم ذلك بدأ الصراع من جديد بين الـكتلتين المتآخيتين فاستطاع روبسبير ان يقضي على دانتون والبارزين من انصاره بعد ان اتهمهم بالتآمر على مبادىء الثورة ووصفهم بخدمة الفئة الرجعية وممالأة العهد القديم . غير ان فشل روبسبير في كسب ولاء الجماهير قد ادى الى سوقه هو وبعض المخلصين من اتباعه الى المقصلة . ولا يختلف الوضع في روسيا بعد ثورتها الحمراء عنه في فرنسا . فقد تعرض قادة الثورة

الروسية بعد وفاة لنين الذي حقق مبادىء الثورة وقضى على الوضع القديم الى مجابهة وضع مشابه للوضع الذي وصفناه بعد حدوث الثورة الفرنسية . فبدأ الصراع العنيف بين ستالين واتباعه من جهة وبين تروتسكي وانصاره من جهة اخرى .
وكان جوهر الخلاف منصباً على الوسائل لا على الاهداف . ذلك لان الجانبين كانا مؤمنين بالفلسفة الماركسية ايماناً عميقاً على مايبدو من كتابات كل منهما وتصرفاته . ويظهر ان جوهر الخلاف بينهما كان متعلقاً باختلافهما في تفسيرها . فستالين واتباعه كانوا يؤمنون كما اتضح ذلك من سياستهم وفلسفتهم كذلك بضرورة اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لتثبيت الوضع القائم في روسيا بعد وفاة لنين في عام ١٩٢٤ ومن ثم يبدأ العمل كما يدعون على تشجيع الشعوب الاخرى للانتفاض على حكوماتها شريطة ان تكون روسيا هي مصدر الاشعاع في هذا السبيل . على حين ان تروتسكي كان يرى ان تتخذ جميع الوسائل لتحفيز الشعوب الاخرى للانتقاض على حكوماتها للوصول في آن واحد الى تشكيل دولة اشتراكية في الاقطار المختلفة . ذلك لانه بنظره من غير الممكن قيام دولة اشتراكية واحدة وسط عالم مملوء بالدول المناوئة لها . اما ستالين فكان يؤمن بامكانية قيام دولة مبنية على المبادىء الاشتراكية الماركسية وسط عالم يعج بالمبادىء الرجعية والرأسمالية . وقد كتب النصر في النهاية لستالين واتباعه . وقد حدث شيء مشابه لذلك بين مالنكوف وبيريا بعد وفاة ستالين .

٣ـ جانب التنظيم : التنظيم عنصر من العناصر الرئيسة التي يتحول بوساطتها التذمر أو المظاهرات المبعثرة الى حركة ثورية واضحة المعالم . ويتعلق التنظيم بتنسيق قوى الشعب لغرض مقاومة الحكومة وتعيين كيفية البدأ بالمقاومه ومكانها وزمانها والقائمين بها . وبقـــدر ما يكون التنظيم سليماً فان قوى الشعب تسير متعاونة

ومتراصة نحو بلوغ هدفها . ولا يتم التنظيم الناجح الا اذا توافرت للقائمين به زعامة تتحلى بالشجاعة والاقدام وتؤمن بعدالة الفكرة التي تسعى الى تحقيقها وتتصف باحكامها للوسائل التي توصلها الى اهدافها باقصر وقت ممكن وباقل كمية من الجهود والتضحيات .

لقد اختلف المؤرخون وعلماء النفس والاجتماع في تفسير طبيعة الزعامة ومقوماتها . فقال بعضهم انها تعود في أسسها الى امور وراثية محضة يتسلمها الافراد عن اسلافهم بوساطة النقل البايولوجي جيلا بعد جيل ولا اثر للبيئة الاجتماعية أو الطبيعية فيها مطلقاً الا فيما يتصل بالكشف عنها وتهيأة الوسط الذي عن طريقه تعبر عن نفسها . غير ان هؤلاء الباحثين مع هذا لم يتفقوا على تفسير تلك العوامل الوراثية . فزعم بعضهم انها راجعة الى تغلب ما اسماه بغريزة التسلط أو السيطرة عند الزعماء على غريزه الخنوع والانقياد . ويعزى على هذا الاساس الفرق بين سلوك افراد المجتمع الانساني الى مدى تغلب احدى هاتين الغريزتين على زميلتها .

وقال بعض آخر من هؤلاء الباحثين ان ظاهرتي الانقياد والتسلط تعودان الى اسس فسلجية تشريحية تتعلق بتركيب الجسم والجهاز العصبي والغدد الصم . وهناك فئة اخرى من علماء النفس والاجتماع انكرت أثر الوراثة في سلوك الافراد نكراناً تاماً وعزت جميع مظاهر السلوك الانساني الى عوامل بيئية اجتماعية وطبيعية . الواقع ان كيان الانسان من الناحية الجسمية والفكرية ومظاهر سلوكه جميعاً محصول بيئته ووراثته ولا معنى الا لغرض الدرس النظري ان يؤخذ بنظر الاعتبار احد الجانبين على حساب الجانب الثاني . فلا تستطيع البيئة ان تخلق عباقرة وزعماء مالم يكن في تكوينهم الوراثي ما يساعد على جعلهم كذلك . وان هؤلاء العباقرة

والزعماء من الجهة الثانية لا يستطيعون ان يحققوا زعامتهم وعبقريتهم على وجهها الاتم او ان يجعلوها ذات اثر واضح في المجتمع الا اذا توافرت لديهم بيئة اجتماعية وطبيعية تساعدهم على ذلك . اننا نميل الى الاعتقاد بان الزعامة لا تفهم فهماً صحيحاً الا اذا درست صلة الزعيم بالظروف العامة للمجتمع الذي يعيش فيه من الناحيتين الداخلية والخارجية ، وعلى هذا الاساس لا نرى القول الذي ذهب مذهب الامثال على السنة بعض الناس من ان الزعيم هو الذي يخلق المجتمع صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق . كما اننا من الجهة الثانية لا نرى القول المعاكس الذي يزعم دعاته بان المجتمع هو الذي يخلق الزعيم صحيحاً كذلك على اطلاقه . فلا الزعيم يخلق المجتمع الا اذا كانت الظروف او بعضها بجانبه . ولا المجتمع يخلق الزعيم اذا لم يكن في تكوينه ما يؤهله للزعامة . فالصلة بين الزعيم وظروفه وشيجة شريطة ان يسعى الزعيم بالتعاون مع المؤمنين برسالته للتغلب على ما يعترض سبيله من عقبات وصعوبات على القدر المستطاع والانتفاع بكل ما يمكن الانتفاع به من الظروف وتحويل ما يمكن تحويله من العقبات الى امور مساعدة في اداء رسالته .

ب ـ الجانب الحكومي : يجمل بنا قبل البدء بالبحث في الجانب الحكومي المتصل بالتمهيد لانفجار الثورة ان ننبه القارىء الى ان تصنيفنا لعوامل الثورة الى جانبين (حكومي وشعبي) انما هو تصنيف مصطنع الغاية منه تحليل العوامل المؤدية الى الثورة تحليلا نظرياً يساعدنا على الدراسة والبحث ذلك لان الجانبين الحكومي والشعبي يعملان معاً جنباً الى جنب يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به . ويصدق الشيء نفسه بطبيعة الحال على الاركان التي قسمنا اليها كلا من البحث في الجانب الشعبي والجانب الحكومي . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان كل ما بحثناه

وما سنبحثه في هذا الصدد لا يحدث مرة واحدة ولا يكون كذلك على درجة واحدة من التأثير .

١ـ الجانب الاقتصادي او المالي

لكي يتهيأ الجو الاجتماعي لانفجار الثورة لابد ان يسبقه شعور عند من يدعو اليها بان اعضاء الحكومة القائمة قد بلغوا من الاستهتار بمصالح الشعب درجة لا يمكن معها احتمال تصرفاتهم تلك او حلها بطريقة اخرى غير طريق النار والحديد . ومما يسهل لاولئك المتذمرين امرهم ان تتعرض الحكومة لازمة اقتصادية او ارتباك مالي يؤثر في كيانها العام على كل حال . وينتج عن هذا الارتباك المالي ويرافقه في العادة اضطراب في الوضع الحكومي من الناحية السياسية . ويقابل هذا الوضع المالي المرتبك في جهاز الدولة ازمة معاشية حادة يعانيها الشعب او بعضه سبق ان المعنا اليها . وفي التاريخ امثلة كثيرة على ذلك . فقد مرت الادارة الحكومية في عهد لويس السادس عشر قبيل انبثاق الثورة الفرنسية بعدة اعوام بازمة اقتصادية كانت احدى نتائجها ان استدعى الملك لويس السادس عشر نكر احد رجال المال الفرنسيين لمعالجة الازمة الاقتصادية . فاجرى نكر بعض الاصلاحات المالية الآنية التي اقتضاها الوضع بنظره آنذاك واقترح كذلك اتخاذ اجراءات اخرى لتحسين الوضع المالي في المدى البعيد . غير ان وقوف الملكة وحاشيتها وبعض المتنفذين في وجهه لاعتقادهم بان في تنفيذ تلك الاجراءات انتقاصاً لامتيازاتهم وتضييقاً لتصرفاتهم الامر الذي حدا بالملك ان ينحيه عن منصبه . غير ان تنحية نكر زادت في حراجة الوضع المالي المرتبك كما زادت في ارباك الحالة السياسية المضطربة . واذا صح ما ذهبنا اليه جاز لنا ان نقول ان الارتباك المالي في وضع الحكومة يكون عاملا من العوامل التي تهيىء الجو الاجتماعي للقيام بالثورة .

غير ان الارتباك المالي الآنف الذكر وان كان امراً لازماً لتهيأة الاذهان للقيام بالثورة الا انه بنفسه غير كاف لاحداثها .

٢ـ الجانب السياسي

يتضح الجانب السياسي من حيث كونه من العوامل الممهدة لاندلاع نار الثورة في الضعف الذي يبدو في جهاز الدولة وبخاصة في تنظيماتها السياسية والعسكرية والادارية وفي هيبتها بنظر الشعب بشكل عام وبنظر دعاة الثورة بشكل خاص . ويمكن ارجاع العامل الرئيس في هذا الضعف الى انقسام الفئة الحاكمة على نفسها في وقت يشتد فيه تكاتف القوى الشعبية المناوئة للحكم القائم وتظافر جهودها . وينتج هذا الانقسام في العادة من تضارب مصالح قادة الفئة الحاكمة احياناً او عن استهانتها بقوى الشعب احياناً اخرى او عن خروج بعض افرادها على مبادئها واعترافهم بسوء اساليبها في الحكم احياناً ثالثة او عن انصرافها او بعضها الى العبث واللهو وقلة اكتراثها بتدوير شؤون الحكم احياناً رابعة او عن اعتمادها في تدوير امور الملك وبخاصة الجوانب الفكرية منه على عناصر لا تصلح له من حيث الكفاءة والاخلاص احياناً خامسة او عن اكثر من عامل واحد من العوامل الآنفة الذكر احياناً سادسة . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان الحكومة القائمة التي تبدأ بالشعور بان الشعب متذمر منها وانه ربما انفجر عليها تسعى (بدلا من ازالة التذمر وتخفيف حدته عن طريق القيام باصلاحات واعمال ايجابية نافعة) الى تقوية جهازها السري وتشكيلاتها التعسفية وتفتح ابوابا جديدة للفساد والعبث بحقوق الشعب . فتزيد في ضغطها على حرية الفكر وتلجأ الى استعمال ما لديها من وسائل للدعاية لجعل الشعب او المتذمرين من بنيه يشعرون بعدم عدالة قضيتهم او ان الحكومة ليست فاسدة الى الحد الذي يصفها به خصومها . كما انها

تحاول كذلك ان توحي للشعب بهيبتها وقوتها وتجعله يشعر بامكانية انخذاله امامها . ولا يخفى ان الشعور بالخذلان هو اول خطوة من خطوات الخذلان نفسه . وبذلك يتسنى للحكومة القائمة وقتياً ان تحتفظ بكيانها وهيبتها وينتفي ولو ظاهرياً شعور بعض اعضائها او كلهم بامكانية اندحارها . غير ان الحكومة بعملها هذا كما سلف ان ذكرنا لا تقضي على مناوئيها بل تجعلهم يلجأون الى اتقان العمل المتخفي المستور واتخاذ الشعارات والرموز للانقضاض عليها في الوقت المعين . فاذا دقت ساعة الثورة بدت في افق الجو السياسي الذي يبدو صافياً غيوم سود تبدو قادمة من مكان بعيد تتهادى في سيرها وتسبقها طلائع عواصف بمازجها رعد وبرق لا تلبث ان تعكر الجو وتربكه وربما تعصف به . واخيراً ينجلي الموقف الجديد اما عن كيان حكومي جديد او عن الاحتفاظ بالكيان القديم وفي كلتا الحالتين ينكل المنتصر بخصومه اشد التنكيل .

غير ان قوى الشعب المنظمة مع هذا لا تستطيع القضاء على الحكومة القائمة الا اذا استطاعت ان تدمر قوى الجيش والشرطة . ويتم ذلك باحدى طريقتين هما التغلب على تلك القوى عند حصول تصادم مسلح بينها وبين الشعب او تمرد تلك القوى على اوامر الحكومة واعلانها العصيان على قادتها فيما يتصل باحجامها عن الاشتباك مع قوى الشعب بمعارك دموية تمهيداً لانضمامها الى القوى الشعبية . وهناك حالات كثيرة لا ينتج فيها فقدان الحكومة لهيبتها وكيانها عن انضمام قواها المسلحة او بعضها الى الثائرين بقدر ما ينتج ذلك عن اخفاق الحكومة في استعمالها قواها ببراعة وحنكة لاخماد انفاس الثائرين . ومهما يكن من شيء فان الثورة لا تنجح الا اذا فقدت الحكومة سيطرتها على قواها المسلحة او على القسم الذي باستطاعته حمايتها من بطش الثائرين .

ذلك ما يتصل بالثورة . اما ديوي فيقف منها موقف الشخص غير المؤيد لها وغير المؤمن بها . فالثورة بنظره عامل هادم كثيراً ما يفشل في علاج جميع مشكلات المجتمع ، وقد تؤدي الثورة احيانا الى تعقيد تلك المشكلات لا الى حلها . وان حل بعض مشكلات المجتمع ، في حالة حدوثها ، لا يأتي عن طريق الثورة نفسها بل عن طريق دور الاستقرار الذي يعقبها . واذا لم يعقب الثورة دور يسود فيه الاستقرار والطمأنينة فان آثارها المخربة تبقى ماثلة للعيان . واذا سلمنا بان دور الاستقرار هو الذي يجعل امر معالجة مشكلات المجتمع ممكناً جاز لنا ان نقول مع جون ديوي ان التعاون المبني على اسس التفكير الحر الذي يهدف الى خدمة المصلحة العامة هو الاسلوب الانساني الذي ينبغي الالتجاء اليه في هذا الصدد ذلك لان استعمال القوة كوسيط لحل مشكلات المجتمع المستعصية كثيراً ما يؤدي الى نبذ التعاون والبحث العلمي وعدم تشجيع الاخذ بها حتى في الحالات التي لا يتطلب حلها استعمال مثل تلك القوة . والثورة بالاضافة الى ذلك قد تشل تقدم المجتمع وتهدد كثيراً من موارده وامكانياته المادية والمعنوية . وهي وسيلة من وسائل قطع الصلة الفكرية والعاطفية بين ابناء الامة الواحدة ، وكثيراً ما تؤدي الثورة الى سيطرة فئة جديدة من الحكام (بدلا من الفئة الحاكمة المغلوب على امرها) يصعب كثيراً على الشعب ان يتخلص منها اذا اقتضت مصلحته ذلك . وكل نظام يستند الى العنف في مقوماته يجعل بعض الناس صرعى بطشه وبعضاً آخر ضحية لايمانه المطلق بصحته . والثورة بالاضافة الى ذلك توحي للفئة الحاكمة التي جاءت للحكم عن طريقها ان تستمر في حكمها وان تستعمل جميع الوسائل الممكنة لاقناع المحكومين (او اجبارهم) بضرورة الرضوخ لها رضوخاً تاماً او قريباً

من ذلك بوساطة سيطرتها المطلقة على وسائل العنف والاتصال الفكري بين الافراد .

يؤمن ديوي ، كما سلف ان ذكرنا ، بالاشتراكية الديمقراطية المبنية على اساس التربية الصحيحة (واولى مستلزماتها تنمية التفكير الحر وتربية المسئولية الاجتماعية لدى افراد الشعب) . والتربية السليمة بنظره هي الوسيلة الوحيدة التي باستطاعتها احداث اصلاح جذري شامل في كيان المجتمع وصلات افراده ، وعن طريقها كذلك يتجه سلوك الافراد وانماط تفكيرهم واساليب اتصالهم الفكري والعاطفي اتجاهاً يعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع وعلى الانسانية جمعاء . والتربية السليمة ، كما ذكرنا ، تعود الناس على التعاون في سبيل المصلحة العامة وعلى الاتصاف بالثقة المتبادلة واحترام الآراء ومناقشتها مناقشة علمية .

والاشتراكية الديمقراطية ، كما سلف ان ذكرنا ، هي الجانب الاقتصادي للديمقراطية البرلمانية . والديمقراطية البرلمانية (السياسية) ذات جانبين متلازمين : جانب الحكومة وجانب الشعب . فالحكومة الديمقراطية شرط اساس لتكوين شعب ديمقراطي . والعكس صحيح كذلك . فكأننا هنا ندور في حلقة مفرغة لا سبيل الى الخلاص منها . غير انه يمكن ان يقال من الناحية التاريخية ان الحكومة الديمقراطية تسبق في الوجود الشعب الديمقراطي . وان الشعب بدوره كلما قرب من الديمقراطية في تفكيره وسلوكه كان اكثر قدرة على تقريب حكومته من السير وفق المبادىء الديمقراطية . هذا من جهة ومن جهة ثانية فان الديمقراطية السياسية من الناحية النظرية اسبق في الوجود من الديمقراطية التطبيقية . واذا

كانت اسس التشريع ديمقراطية من الناحية النظرية وجب على المجتمع ان يسعى جهد طاقته ، بالوسائل الديمقراطية المتيسرة لديه ، الى اخراجها الى حيز التطبيق بادئاً بالاهم فالمهم . وهكذا . ونقطة البداية في ذلك كله على رأي جون ديوي هي اصلاح البرلمان بطريقة برلمانية (هذا في حالة وجوده اما في حالة انتفاء وجوده فيجب ان تبذل الجهود لاحداثه ولو بشكل ناقص قابل للتعديل) . ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان ديوي يعتقد بان العالم (الا في المجتمعات الدكتاتورية وهي حالات ناشزة عن السير العام للجنس البشري) سائر نحو تحقيق الديمقراطية من الناحيتين السياسية والاقتصادية .

